سلسلة التحقيقات العلمية (٥٢) إصداراتنا الرقمية (٢١١)

شرح الحكم العطائية

للعلامة أبي محمد عبد المجيد الشرنوبي الأزهري
المتوفى سنة (١٣٤٨ هـ)

اعتنى به وخرج أحاديثه وترجم لمؤلفه وأعلامه

الأستاذ الدكتور
صلاح محمد أبو الحاج
عميد كلية الفقه الحنفي
بجامعة العلوم الإسلامية العالمية
عمان - الأردن

ومعه التعليقات المسماة

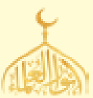
اللطائف النورانية

على شرح الحكم العطائية

للدكتور معاذ سعيد حوى
المدرس في كلية الفقه الحنفي

ومعه في الخاتمة

مكاتبات ومناجاة الإمام ابن عطاء الله



مركز أنوار العلماء للدراسات

اللطائف النورانية........

.... على شرح الحكم العطائية

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ ـ ٢٠٢٢م

شرح الحكم العطائية

للعلامة أبي محمَّد عبد المجيد الشُّرنوبي الأزهري
توفي سنة (١٣٤٨هـ)
اعتنى به وخرج أحاديثه وترجم لمؤلفه وأعلامه
الأستاذ الدكتور صلاح محمد أبو الحاج
عميد كلية الفقه الحنفي

ومعه التعليقات المُسمَّاة

اللطائف النورانية

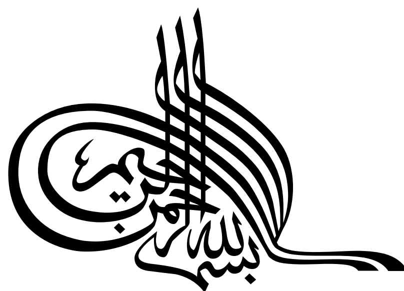
على شرح الحكم العطائية

للدكتور معاذ سعيد حوى
المدرس في كلية الفقه الحنفي

ومعه في الخاتمة

مكاتبات ومناجاة الإمام ابن عطاء

مركز أنوار العلماء للدراسات



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، والصلاة والسلام على سيدنا المصطفى الحبيب، وعلى آله وصحبه وسلم، في كل وقت وحين.

وبعد:

فإن التربية الإسلامية ترتقي بالمسلم إلى الإحسان، وترتقي بالمحسن إلى أن يكون صِدِّيقاً، ومن علامة الصِّدِّيق أن يشترك قلبه مع عباداته ومعاملاته في تقربه إلى الله، وأن يكون قلبه مع الله في كل حالاته، وأن يكون في حالاتِه القلبيةِ كلِّها ذَوْقٌ ووَجْد وشُعُور وإِحْساس وعواطف.

فكما أن الإنسان إذا أحب إنساناً أو شيئاً وجد في قلبه ميلاً وهوىً وتَعلُّقاً ورغبة تجاه المحبوب وتذكُّراً له، وشوقاً وحنيناً إليه، فكذلك ينبغي أن يكون العارف بالله المحب له يشعر بالتعلق والميل إلى الله محبوبِه، ويتذوق الشوق إليه، ويحن إلى لقائه، ويرغب في إرضائه، ويسعى في استجلاب محبته، فليس الغريب أن يكون صاحب ذَوْقٍ وشعور، بل العجيبُ أن لا يكون حبُّه فوقَ كلِّ حُبٍّ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]،

فالله أعظم جمالاً وكمالاً وأعظم إحساناً من كل شيء، فكيف لا يكون حبه أعلى من كل حب.

وكما أن الإنسان إذا خاف من إنسان أو حيوان أو شيء شَعَر بقلبه بحالة من الرهبة أو الرعب أو الخوف والقلق والهم والغم، فينبغي أن يكون عند الصالح الوليِّ الصِّدِّيق شعور بالخشية والخوف من الله والرهبة أعلى من ذلك، إذ هو يعلم أن الله شديد العقاب وأنه العظيم المتعال وأنه المنتقم الجبار، ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ ﴾ [التوبة: ١٣]، فالشعورُ والإحساسُ وذوقُ الخشية ينبغي أن يكون أعلى من كل ما يجده الخائف من مخلوق يخاف منه.

وهكذا قل في تذوق الرجاء والطمع برحمة الله ومغفرته، وفي ثقة القلب واعتماده على الله، وفي تفانيه في العمل لمولاه وإخلاصه له، وفي ذوق التذلل والعبودية، وغير ذلك من أحوال القلب ومقاماته الواجبة.

وقد كانت حِكَم ابن عطاء الله السكندري من أعظم ما ينبه إلى أعمال القلوب، على اختلاف تقلبات أحوال الإنسان وأعماله، وكانت من أعظم ما ينبه إلى دقائق الأدب مع الله عز وجل.

وكانت عبارات هذه الحِكَم من أرقى العبارات في التعبير عن الذوقيات والوُجْدانِيّات، وتقريب المعاني الشعورية للسالك والعارف.

وذلك من العلوم التي نفتقر إليها في هذا الزمان كثيراً، سعياً إلى التحقق بالوَجْد والذَّوْق والطَّعْم والحلاوة التي أشار إليها قول النبي ﷺ: « ذاق طعم

الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً »[١]، وقوله ﷺ: « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار »[٢].

والآيات القرآنية تشير إلى حالات ذوقية شعورية.

كما ترى في قول الله تعالى عن الحاج بعد انتهاء أعمال حجه: ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

أي ليكن حبكم واشتياقكم إلى الله أشد من الاشتياق الذي يجده الإنسان لأهله وأبيه حين يفكر بالرجوع إليهم بعد أن أنهى مناسك الحج، فإذا شعرت بالشوق المختلط بالتعظيم والاحترام لأبيك؛ فعليك أن تشعر بالشوق إلى الله إن كنت صادقاً.

وكما ترى في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فانشراح الصدر بالإيمان والهداية، وضِيقُ الصدر بالضلال والكفر، حالتان ذوقيتان، يشعر بها أصحابها.

---

(١) أخرجه مسلم رقم ٣٤.

(٢) أخرجه البخاري رقم ١٦ ومسلم رقم ٤٣.

وكما ترى في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِىَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل: ٦].

فتشير الآية إلى الحالة النفسية الطيبة من السكينة وهدوء النفس الذي يرافق قيام الليل، فيجتمع القلب مع اللسان في تلاوته وذكره ودعائه، وينقطع القلب إلى الله ويتفرغ، فلا شيء يشوش عليه، فيشعر بلذة القرب من الله، ويكون كلامه صادقاً في مناجاة الله(١).

وغير ذلك كثير في القرآن والسنة.

وقد شهد العلماء لابن عطاء الله أنه صاحب ذوق، قال خليل بن آيبك: «كان رجلاً صالحاً له ذوق، وفي كلامه ترويح للنفس وسَوْق إلى الشوق، وله إلمام بآثار السلف الصالح، وكلام الصوفية، إذا هبّ نسيمه العاطر الفائح شوّق كثيراً من القلوب، ومحا بالدموع غزيراً من الذنوب، وله مشاركة في الفضائل، وعليه للصَّلاح سيماء ودلائل(٢).

---

(١) قال أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ) في تفسيره جامع البيان ٢٣: ٣٧١ : « قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِىَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا ﴾ قَالَ: إِنَّ مُصَلِّي اللَّيْلَ الْقَائِمَ بِاللَّيْلِ ﴿ أَشَدُّ وَطۡـًٔا ﴾: طُمَأْنِينَةً، أَفْرَغُ لَهُ قَلْبًا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لاَ يَعْرِضُ لَهُ حَوَائِجُ وَلا شَيْءٌ »، وذكر عن مجاهد في تفسير الآية: « قالَ: أَنْ تُوَاطِئَ سَمْعَكَ وَبَصَرَكَ وَقَلْبَكَ » وعنه أيضاً: « قَوْلُهُ: ﴿ أَشَدُّ وَطۡـًٔا ﴾ قَالَ: مُوَاطَأَةً لِلْقَوْلِ ، وَفَرَاغًا لِلْقَلْبِ »، ٢٣: ٣٨٢، وقال أبو البركات عبد الله النسفي (ت ٧١٠هـ) في مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٣: ٤٧٩ : « وعن الحسن: أشد موافقة بين السر والعلانية لانقطاع رؤية الخلائق ».

(٢) أعيان العصر وأعوان النصر، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ١: ٩٢.

وقد اعتنى العلماء الربانيّون وأئمة التربية الصوفية بحِكَم ابن عطاء الله تدريساً وشرحاً، لما فيها من المعاني العالية والتنبيهات الراقية والأذواق الرقيقة، فكُتِبَتْ عشرات الشروح، بين طويل وقصير، وكلٌّ له ذوقه واهتمامه، فمنها من اعتنى بتجلية موافقتها لعقائد أهل السنة، ومنها ما اعتنى بإبراز أسرارها وأذواقها، ومنها ما جاء بقصص الصالحين التي تثبت صحة أذواقها، ومنها ما اعتنى بتجلية الجانب الدعوي المتضمن فيها، وغير ذلك.

وكان من تلك الشروح شرح الإمام عبد المجيد الشرنوبي المالكي الأزهري، المتوفى سنة ١٣٤٨هـ، ١٩٢٩م[1].

وقد كتب لشرحه القبول، ودُرِّس في جامعة الأزهر وكثير من الزوايا الصوفية والمساجد، حتى إنك تجد الأشعار الراقية النافعة التي ذكرها الشرنوبي واستشهد بها قد سارت بين العامة والعلماء، واشتهرت في المواعظ والخطب، وكان للشرنوبي فضل في إشهارها.

والكتاب منضبط على منهج أهل السنة في التصوف، وشرحه ينبئ عن باعه في العلم والسلوك والمعرفة.

وقد عَمِلْنا على تحقيق نصه، وضبط كلماته، وتشكيلها، وتخريج آياته وأحاديثه، وترجمة رجالاته.

وعرَّفْنا بالإمام ابن عطاء الله، في مبحث، وفيه مطالب:

---

(١) انظر الأعلام للزركلي ٤ : ١٤٩.

المطلب الأول: اسمه ونسبته وكنيته ولقبه وشهرته وطريقته ومذهبه

المطلب الثاني: أسرته ومراحل حياته

المطلب الثالث: كراماته وثناء العلماء عليه

المطلب الرابع: خصومة ابن تيمية

المطلب الخامس: شيوخه وتلاميذه

المطلب السادس: مؤلفاته

المطلب السابع: شعره ووفاته

المطلب الثامن: شروح الحكم

ثم أثبتنا شرح الحكم، للإمام الشرنوبي.

وبعض عبارات الإمام الشرنوبي تحتاج إلى نوع تفصيل، لأنه يخاطب أهل السلوك، فقد يستعمل بعض مصطلحات الصوفية التي تحتاج إلى شرح بالنسبة للعامة وطلاب العلم، فعملنا على بيان كثير من تلك المصطلحات.

ولما كان هذا الكتاب سيدرس في كلية الفقه الحنفي في جامعة العلوم الإسلامية العالمية، والطالب ينبغي أن يطلع على أدلة المعاني الذوقية والمعارف الربانية، فكان لا بد من التنويه إلى أدلةِ كثيرٍ من مسائل الكتاب وحِكَمِه، ليطلع الطالب على نبع هذه الحكم، واتصالها بنور القرآن والنبوة.

وقد أسمينا هذه التعليقات التي أثبتناها في الهامش، باسم:

اللطائف النورانية على شرح الحكم العطائية

ثم أثبتنا في خاتمة الكتاب مكاتبات الإمام ابن عطاء لتلامذته، وهي رسائل توجيهية لبعض طلابه السالكين.

ثم جاء في ختام الكتاب شرح مناجاة ابن عطاء الله السكندري، مع شرحها، وهي مما جعله مشايخ الطريقة الشاذلية من أورادهم في السَّحَر.

وفي الختام نسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يجعله نوراً لطلاب المعرفة والإحسان، وأن يغفر لنا خطايانا ويكفر عنا سيئاتنا، ويرحمنا برحمته، ويرزقنا الهداية إلى سبيله، ويكرمنا بقربه ومحبته، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه

الأستاذ الدكتور صلاح محمد أبو الحاج
عميد كلية الفقه الحنفي
جامعة العلوم الإسلامية العالمية

الدكتور معاذ سعيد حوى
مدرس في كلية الفقه الحنفي
جامعة العلوم الإسلامية العالمية

في عمان، الأردن ٣ - ٣ - ٢٠٢٢م

الدراسة عن المؤلف والكتاب

ابن عطاء الله السكندري

المطلب الأول: اسمه ونسبته وكنيته ولقبه وشهرته وطريقته ومذهبه:

أولاً: اسمه:

لم أقف على خلافٍ عند مَن ترجم له في اسمه ونسبه، ولكن بعض المؤرخين(١) اقتصر على اسمه أَبيه وجدِّه، وبعضُهم(٢) زاد جد أبيه، وبعضُهم(٣)

(١) ينظر: طبقات الأولياء١: ٤٢٢، وقلادة النحر٦: ٥٣.

(٢) ينظر: المنهل الصافي٢: ١٢١، وسلم الوصول٤: ٨٢، والأعلام١: ٢٢٢، وهدية العارفين١: ١٠٣.

(٣) ينظر: الوافي بالوفيات ٨: ٣٩، ومعجم المؤلفين٢: ١٢١، ومعجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ ٦٦٦.

زاد جد جد أبيه، وبعضُهم[١] زاد ذكر جدّ جدّ جدّ أبيه، وبعضُهم[٢] زاد ونسبه إلى سيدنا الحسن رضوان الله عليه.

فكان اسمه على النحو الآتي: أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله بن عبد الرحمن بن عبد الكريم الحسنيّ.

ثانياً: نسبته:

الجذامي[٣]، فهو من أصل عربى، أجداده من الجذاميين من قبيلة كهلان التى ينتهى نسبها إلى بنى يعرب ابن قحطان، من العرب العاربة الذين وفدوا إلى مصر، واستوطنوا مدينة الإسكندرية بعد الفتح الإسلامي[٤].

ثالثاً: كنيته:

اشتهر إطلاق كنية أبي الفضل عند عامة[٥] مَن أرخ له، وذكر بعضهم[٦] أن كنيته أبا العباس، وهذا محل نظر؛ لأنها لم توجد في الأصيلة التي ترجمة له.

---

(١) ينظر: معجم المفسرين١: ٦٧.

(٢) ينظر: المقفى الكبير١: ٣٦٥.

(٣) ينظر: معجم المؤلفين٢: ١٢١، ومعجم تاريخ التراث١: ٦٦٣-٦٦٦.

(٤) ينظر: مرشد الزوار إلى قبر الأبرار٢: ١٢.

(٥) ينظر: الوافي بالوفيات ٨: ٣٩، والأعلام١: ٢٢٢، ومعجم المؤلفين٢: ١٢١، والمقفى الكبير١: ٣٦٥، ومعجم المفسرين١: ٦٧.

(٦) ينظر: معجم المؤلفين٢: ١٢١، ومعجم تاريخ التراث١: ٦٦٣- ٦٦٦، ومعجم المفسرين١: ٦٧.

رابعاً: لقبه:

اتفق كلُّ مَن ترجم[١] له على أنّ لقبه هو تاجُ الدين.

خامساً: شهرته:

اشتهر بين الخاصة والعامة بابن عَطَاء الله الإسكندري؛ لذلك لم يختلف كلُّ مَن ترجم[٢] له بهذه الشهرة.

سادساً: طريقة:

لما كان التصوف راجعاً لطرق متعددة، فقد بَيَّن بعضُ[٣] مَن ترجمة له أن الطريقة التي سلكها في الوصول إلى ربه هي الطريقة الشاذليّة، وهذه الطريقة ترجع للعارف المشهور سيدي أبي الحسن الشاذلي الذي عمَّت شهرتُه في البلاد، وانتشر نفعُه بين العباد، نفعنا الله تعالى بفيوضه وأنواره.

---

(١) ينظر: المنهل الصافي٢: ١٢١، والوافي بالوفيات ٨: ٣٩، وقلادة النحر٦: ٥٣، وطبقات الأولياء١: ٤٢٢، والأعلام١: ٢٢٢، وهدية العارفين١: ١٠٣، ومعجم المؤلفين٢: ١٢١، والمقفى الكبير١: ٣٦٥، ومعجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ٦٦٦، ومعجم المفسرين١: ٦٧.

(٢) ينظر: الوافي بالوفيات ٨: ٣٩، والمنهل الصافي٢: ١٢١، وطبقات الأولياء١: ٤٢٢، وقلادة النحر٦: ٥٣، والأعلام١: ٢٢٢، وهدية العارفين١: ١٠٣، ومعجم المؤلفين٢: ١٢١، والمقفى الكبير١: ٣٦٥.

(٣) ينظر: قلادة النحر٦: ٥٣، وهدية العارفين١: ١٠٣، ومعجم المؤلفين٢: ١٢١، والمقفى الكبير١: ٣٦٥.

سابعاً: مذهبه:

تعلم المذهب المالكيّ في معرفة أحكام التكاليف؛ لمعرفة الواجب عليه، ولتمييز الحلال من الحرام، وهذا ما اشتهر عنه[١].

المطلب الثاني: أسرته ومراحل حياته:

أولاً: أسرته:

كان والده عطاء الله معاصراً للشيخ أبى الحسن الشاذلي، مؤسس الطريقة الشاذلية، فقد ذكر ابن عطاء الله فى كتابه «لطائف المنن» ما يلى:

«أخبرنى والدى ـ رحمة الله عليه ـ قال: دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلى ﵁ فسمعته يقول: والله قد تسألونني عن المسألة لا يكون لها عندي جواب، فأرى الجواب مسطراً في الدَّواة، والحصير، والحائط ... ».

وكان جده من الفقهاء المشهورين فنشأ ابن عطاء كجده مهتماً بالفقه ساعياً أن يبلغ فيه مكانة رفيعة.

ويذكر ابن عطاء الله في «اللطائف» أن جده كان يُنكر على الصوفية، وأن الصوفية كانوا يصبرون على أذاه، كما يظهر ذلك من القصة التالية:

---

(١) ينظر: المقفى الكبير١: ٣٦٥.

«قال الشيخ أبو العباس المرسي لأصحابه: إذا جاء ابنُ فقيه الإسكندرية ـ يقصد ابن عطاء الله ـ فأعلموني به، فلما أتيت وعلم بي قال: «جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذّبته قريش، فسَلَّم عليه ملك الجبال، وقال: يا محمد، إن شئت أُطبق عليهم الأخشبين فعلت، فقال رسول الله ﷺ: لا، ولكن أرجو أن يخرج من أصلابهم مَن يوحّده ولا يشرك به شيئاً، فصَبر عليهم رسول الله ﷺ رجاء مَن يخرج من أصلابهم»[١]، كذلك صبرنا على جدِّ هذا الفقيه ـ يقصد جدّ ابن عطاء الله ـ لأجل هذا الفقيه»[٢].

وكان للعارف ابن عطا ء أخ معروف بالعلم، وهو شرف الدين، قال ابن الملقن[٣]: «اجتمعت بأخيه العلامة شرف الدين بالاسكندرية، وسمعتُ منه، ولبستُ منه الطاقية كما ستعلمه».

---

(١) فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد، قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً» في صحيح البخاري٤: ١١٥.

(٢) ينظر: غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، النفزي الرندي، ص ٢٢٠.

(٣) في طبقات الأولياء١: ٤٢٢.

ثانياً: أطوار حياته:

مرَّ العارف بالله ابن عطاء الله في ثلاثة أطوار:

الطور الأول: أمضاه بمدينة الإسكندرية طالباً للعلم بفنونه المختلفة من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول، ونحو، وبيان، وغيرها، من خيرة أساتذتها فى ذلك الوقت.

وفي هذا الطور من حياته كان متأثراً إلى حد كبير بآراء جدّه في إنكاره على الصوفية إنكاراً شديداً، تعصباً لعلوم الفقهاء، وقد ذكر ذلك فى كتابه «لطائف المنن»؛ إذ يقول: «وكنت أنا لأمره ـ أي لأمر أبي العباس المرسي ـ من المنكرين، وعليه من المعترضين، حتى جرت مقابلة بيني وبين أصحابه، وذلك قبل صحبتي إيّاه، وقلت لذلك الرجل: ليس إلّا أهل العلم الظاهر، وهؤلاء القوم ـ أي المتصوفون ـ يدّعون أموراً عظيمة، وظاهر الشرع يأباها».

الطور الثاني: ويبدأ الطور الثاني من حياته سنة ٦٧٤ هـ عند التقائه بأبي العباس المرسي واصطحابه له، وينتهي بارتحاله إلى القاهرة، وفي هذا الطور نلاحظ زوال إنكاره للصوفية حين لقي أُستاذه المرسي؛ إذ أعجب به إعجاباً كبيراً، وأخذ عنه طريق الصوفية، وقد كان السبب في تحوّله الواضح من

الإنكار الشديد إلى التصوف أنه أحسّ بأزمة نفسية شديدة، خشي معها أن يكون منكراً علي الشيخ أبى العباس المرسي من غير حقّ، وفى ذلك يقول:

وكان سبب اجتماعى به «بأبي العباس» أن قلت لنفسي بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل: دعني أذهب أنظر إلى هذا الرجل، فصاحب الحقِّ له أَمارات، ولا يخفى شأنه، فأَتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلَّم في الأنفاس التي أمر الشارع بها، وعلمت أنَّ الرَّجل إنّما يغترف من فيض إلهي، فأذهب الله تعالى ما كان عندي» .

ومما هو جدير بالذكر أن العارف ابن عطاء الله لم ينقطع عن طلب العلم بسلوكه طريق الصوفية، وإنّما ظل يطلب هذه العلوم بتوجيه شيخه له، فقد ظَنّ في بادئ الأمر أنه لن يستطيع أن يسلك طريق الصوفية إلّا إذا انقطع عن اشتغاله بهذه العلوم، وتفرغ بالكلية لصحبة شيخه.

ويذكر العارف ابن عطاء الله كيف كان أبو العباس المرسي يرسم لكل واحد من تلاميذه طريقاً خاصّا فيقول: «ودخلت أنا عليه ـ أي علي أبي العباس المرسي ـ وفى نفسي ترك الاشتغال بالعلم الظاهر، فقال لي من غير أن أبدي له شيئاً: صحبني بقوص إنسان يُقال له ابن ناشئ، وكان مدرّساً بها ونائب الحاكم، فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا، فقال:

يا سيدي، أأترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟ فقلت له: ليس هذا شأننا، ولكن امكث فيما أقامك الله تعالى، وما قسم لك على أيدينا هو إليك واصل، ثم قال: وهكذا شأن الصديقين، لا يخرجون عن شيءٍ حتى يكون الحقّ هو الذي يتولى إخراجهم، فخرجت من عنده، وقد غسل الله تعالى تلك الخواطر من قلبي، وكأنها كانت ثوباً نزعته، ورضيت عن الله تعالى فيما أقامني فيه».

الطور الثالث: يبدأ من وقت ارتحاله من الإسكندرية ليقيم بالقاهرة، وينتهي بوفاته سنة ٧٠٩ هـ، وهو طور نضجه واكتماله من الناحيتين: الفقهية والصوفية، والإفادة منهما في التدريس، وفى هذه المرحلة من حياته فرّق ابن العارف عطاء الله بين العزلة والخلوة، وأعطانا وصفاً مميزاً لكل منهما، ويرى ابن عطاء ضرورة اصطناع العزلة عن النّاس والخلوة في مكان بعيد، وفي ذلك يقول الغزالي فى «إحياء علوم الدين»: «والذين يستندون في هذا المسلك إلى أساس من اعتزال النبي ﷺ وتحنثه في غار حراء قبل نزول الوحي، حتى صفت نفسه وتهيّأ لنور النبوّة».

والعزلة عند العارف ابن عطاء تعني الانقطاع المعنوي لا الحقيقي عن الخلق، بحيث يكون السالك مراقباً نفسَه على الدوام، ومحاذراً أن يشغل ذهنه بالعالم، فإذا أحكم الصوفي عزلته، وألفت نفسه الوحدة دخل الخلوة.

ويعرِّف الخلوة بأنها وسيلةٌ للوصول إلى سرِّ الحقّ، فهي تبتّل إلى الله تعالى، وانقطاع عن غيره سبحانه وتعالى.

ويصف ابن عطاء الله البيت الذي يختلي فيه المتصوف فيقول: «فأمّا بيت الخلوة فله هيئة خاصة، فيكون ارتفاعه قدر قامة الرجل، وطوله قدر سجوده، وعرضه قدر جلسته، ولا يكون فيه ثقب ينفذ الضوء منه إلى الخلوة، وأن يكون بعيداً عن الأصوات، وبابه وثيقاً قصيراً فى دار معمورة بالناس».

المطلب الثالث: كراماته وثناء العلماء عليه:

أولاً: كراماته:

معلومات أنّ الكرامات حقّ، وأنّ الأولياء الصالحين يجري على يدهم العديد من الكرامات الخارقة للعادة كما تجري على يد الأنبياء إلا الوحي خاص بالأنبياء دون الأولياء.

والعارف بالله تعالى ابن عطاء السكندري بلغ مبلغاً عظيماً وشأناً كبيراً في الولاية والمكانة كما يلحظ من مؤلفاته والقبول الواسع له وانتشار علمه بين المسلمين وانتفاع الناس به، فلا شك أنه هذه أعظم الكرامات وأكبرها.

ورغم ذلك جرت على يديه العديدة من الكرامات، ومنها:

١ .ما روى ابن حجر العسقلانى: «يقال: إن ثلاثة قصدوا مجلسه، فقال أحدهم: لو سَلِمْتُ مِن العائلةِ لَتَجَرَّدْتُ. وقال آخر: أنا أصلى وأصوم ولا أجد من الصلاح ذرّة. وقال الثالث: أنا صلاتى ما ترضينى فكيف ترضى ربى؟

فلما حضروا مجلسه قال فى أثناء كلامه: ومن الناس من يقول كذا وكذا، وأعاد كلامهم بعينه».

٢ .ذكر المناوي في كتابه «الكواكب الدرية» واقعتين أخريين خارقتين للعادة، وعدّهما من قبيل الكرامات.

ففى الأولى يقول: إن الشيخ الكمال ابن الهمام زار قبره، فقرأ عنده سورة هود حتى وصل إلى قوله: فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ.

فأجابه ابن عطاء الله من القبر بصوت عال: يا كمال، ليس فينا شقى! .. فأوصى أن يدفن بجواره..

والواقعة الثانية: أن رجلاً من تلاميذ ابن عطاء الله حجّ، فرأى الشيخ ابن عطاء الله فى المطاف، وخلف المقام، وفي المسعى، وفي عرفة، فلما رجع سأل عن الشيخ: هل خرج من البلد في غيبته في البلاد الحجازية؟ قالوا: لا، فدخل إليه وسلّم عليه، فقال له: من رأيت في سفرتك من الرجال؟ قال: يا سيدى رأيتك، فتبسّم وقال: الرجل الكبير يملأ الكون، لو دُعِيَ القُطْبُ مِن حَجَرٍ لأجاب.

ثانياً: ثناء العلماء عليه:

مَن بلغ هذا المقام الذي بلغه هذا العالم العارف بالله تعالى، فلا يُمكن أن تحصر العبارات في الثناء عليه ووصفه وبيان حاله، وإنّما نذكر شيئاً للتنبيه على مقامه ومكانته وتزكية العلماء له، ومنها:

قال ابن الملقن(١): «الزاهد تلميذ الشيخ أبي العباس المرسي، كان ينتفع الناس بإشاراته، وله موقع في النفس وجلالة، ومشاركة في الفضائل، مات كهلاً».

وقال الصفدي(٢): «العارف... كان رجلاً صالحاً يتكلَّم على كرسي في الجامع بكلام حسن، وله ذوق ومعرفة بكلام الصوفية، وآثار السلف، وله عبارةٌ عذبةٌ، لها وقع في القلوب، وكانت له مشاركةٌ في الفضائل، وكان تلميذاً لأبي عباس المرسيّ صاحب الشَّاذلي، ... وكانت له جلالة».

وقال ابن تغرى(٣): «الشيخ الزاهد المعتقد العارف بالله تاج الدين، أبو الفضل الإسكندري الصوفي المشهور، كان صاحب كرامات وأحوال.... وكانت عليه جلالة ومهابة، وله أدب وفضل».

---

(١) في طبقات الأولياء١: ٤٢٢.

(٢) في الوافي بالوفيات ٨: ٣٩.

(٣) في المنهل الصافي٢: ١٢١.

وقال الهجراني[١]: «الشيخ الكبير الشهير ...كان فقيهاً عالماً، يُنكر على الصوفية، ثمّ جذبته العناية، فصحب أبا العباس المرسي، وانتفع به، وفتح له على يديه، ومن أراد الاطلاع على فضائله وفضائل شيخه وشيخ شيخه أبي الحسن الشاذلي .. فليطالع كتابه الموسوم بـ: «لطائف المنن»».

وقال المقريزي[٢]: «الشيخ العارف ...تكلّم بالجامع الأزهر وغيره فوق كرسيّ بكلام يروّح النفوس على طريقة القوم، مع إلمام بآثار السلف، ومشاركة في الفضائل، فأحبّه الناس، وكثر أتباعه، وكان رجلا صالحا، له ذوق، وعليه سيماء الخير».

المطلب الرابع: خصومة ابن تيمية:

معلوم أن الخصومة كانت كبيرةً بين ابن تيمية وبين علماء عصره؛ لكثرة خروجه عن منهاج أهل السنة الفقهي والعقدي والسلوكي، حتى أفتوا بسجنه مرة بعد مرة أكابر العلماء في عصره، حفاظاً على المنهج السني من التشويش والاضطراب، ورعاية للمجتمع من انتشار العقائد الزائعة والفتاوى المضللة.

وكان من أكثر العلماء الذي تصدوا لما صدر عن ابن تيمية من شذوذات العارفَ بالله ابنَ عطاء السكندري، حيث خاصمه وواجهه وبذل قصارى

---

(١) في قلادة النحر٦: ٥٣.

(٢) في المقفى الكبير١: ٣٦٥.

جهده في المنع من هذا الانحراف، قال الصفدي[١]: «وكان من كبار القائمين على الشيخ تقي الدين ابن تيمية».

وقال المقريزي[٢]: « وكان من أشدّ الناس قياماً على تقيّ الدين أحمد بن تيمية».

ونذكر مثالاً فيه قصة تبين حقيقة الحال، فعندما استمر سجن ابن تيمية في الجبِّ بقلعة الجبل وصل الأمير حسام الدين مهنا إلى الأبواب السلطانية في شهر ربيع الأول سنة سبع وسبع مئة فسأل السلطان في أمره وشفع فيه، فأمر بإخراجه فأخرج في يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر، وأُحْضِر إلى دار النيابة بقلعة الجبل وحصل بحث مع بعض الفقهاء ثم اجتمع جماعة من أعيان العلماء ولم تحضره القضاة وذلك لمرض قاضي القضاة زين الدين المالكي، ولم يحضر غيره من القضاة، وحصل البحث وكتب خطّه ووقع الإشهاد عليه وكتب بصورة المجلس مكتوب مضمونه:

بسم الله الرحمن الرحيم شهد من يضع خطه آخره أنه لما عقد مجلس لتقي الدين أحمد ابن تيمية الحراني الحنبلي بحضرة المقر الأشرف العالي المولوي الأميري الكبيري العالمي العادلي السيفي ملك الأمراء سَلاَّر الملكي الناصري نائب السلطة المعظمة أسبغ الله ظله، وحضر فيه جماعة من السادة العلماء الفضلاء أهل الفتيا بالديار المصرية.

---

(١) في الوافي بالوفيات ٨: ٣٩.

(٢) في المقفى الكبير ١: ٣٦٥.

بسبب ما نُقِل عنه وَوُجِد بخطُه الذي عرف به قبل ذلك من الأمور المتعلقة باعتقاده أن الله تعالى يتكلم بصوت، وأن الاستواء على حقيقته، وغير ذلك مما هو مخالف لأهل الحق، انتهى المجلس بعد أن جرت فيه مباحث معه ليرجع عن اعتقاده في ذلك إلى أن قال بحضور شهود: أنا أشعري، ورفع كتاب الأشعرية على رأسه، وأشهد عليه بما كتب به خطًا، وصورته: الحمد لله، الذي أعتقده أن القرآن معنى قائم بذات الله، وهو صفة من صفات ذاته القديمة الأزلية، وهو غير مخلوق وليس بحرف ولا صوت، كتبه: أحمد ابن تيمية، والذي اعتقده من قوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] أنه على ما قاله الجماعة، أنه ليس على حقيقته وظاهره، ولا أعلم كُنْهَ المراد منه بل لا يعلم ذلك إلا الله تعالى، كتبه أحمد بن تيمية.

والقول في النزول كالقول في الاستواء، أقول فيه ما أقول فيه، ولا أعلم كنه المراد به، بل لا يعلم ذلك إلا الله تعالى، وليس على حقيقته وظاهره، كتبه: أحمد ابن تيمية، وذلك في يوم الأحد خامس عشرين شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعمائة.

هذا صورة ماكتب به بخطه، وأشهد عليه أيضًا أنه تاب إلى الله تعالى مما ينافي هذا الاعتقاد في المسائل الأربع المذكورة بخطه، وتلفظ بالشهادتين المعظمتين، وأشهد عليه أيضًا بالطواعية والاختيار في ذلك ووقع ذلك كله بقلعة الجبل المحروسة من الديار المصرية حرسها الله تعالى بتاريخ يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعمائة.

وشهد عليه في هذا المحضر جماعة من الأعيان المُفْتين والعدول، وأفرج عنه واستقر بالقاهرة بدار شقير، ثم عُقد له مجلس ثالث بالمدرسة الصالحية بالقاهرة في يوم الخميس سادس عشر شهر ربيع الآخر وكتب بخطه نحو ما تقدم ووقع الإشهاد فيه عليه أيضًا.

وسكن الحال مدة ثم اجتمع جماعة من المشايخ والصوفية مع الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله في نحو خمس مئة نفر وتبعهم جمعٌ كثير من العوام وطلعوا إلى قلعة الجبل في العشر الأوسط من شوال من السنة، واجتمع الشيخ المذكور وأعيان المشايخ بنائب السلطان وقالوا: إن تقي الدين يتكلم في حق مشايخ الطريقة، وأنه يقول: لا يُسْتغاث بالنبي ﷺ فرد الأمر إلى قاضي القضاة بدر الدين ابن جماعة الشافعي.

واقتضى الحال أن رُسِمَ بتفسيره إلى الشام على خيل البريد، فتوجه وكان قاضي القضاة زين الدين المالكي في ذلك الوقت في حالٍ شديدةٍ من المرض، وقد أشرف على الموت، فبلغه ذلك عقيب إفاقة من غشي كان قد حصل له، فأرسل إلى الأمير سيف الدين سلاَّر وسأله في رده فأمر برده إلى القاهرة، فتوجه البريد وأعاده من مدينة بلبيس فوصل وقاضي القضاة زين الدين مغلوب بالمرض فأرسل إلى نائبه القاضي نور الدين الزواوي فحضر به إلى مجلس قاضي القضاة بدر الدين وحررت الدعوى عليه في أمر اعتقاده وما وقع منه.

فشهد عليه الشيخ شرف الدين ابن الصابوني، وقيل: إن الشيخ علاء الدين القُوْنوي يشهد عليه فاعتقل بسجن الحاكم بحارة الديلم، وذلك في

ثامن عشر شوال سنة سبع وسبعمائة، واستمر به إلى سلخ صفر سنة تسع وسبع مئة، فأُنهِيَ عنه أن جماعة يحضرون إليه بالسجن، وأنه يَعِظُهم ويتكلَّم في أثناء وعظه بما يشبه ماتقدم من كلامه، فأمر بنقله إلى ثغر الإسكندرية واعتقاله هناك، فجهز إلى الثغر في هذا التاريخ وحبس ببرج شرقي واستمر به إلى أن عادت الدولة الناصرية[١].

المطلب الخامس: شيوخه وتلاميذه:

أولاً: شيوخه:

إن بلوغ هذا المقام العلمي والمعرفة العلمية تقتضي من صاحبها أن مجتهداً جداً، وباذلاً وقته وعمره في سبيل الله تعالى في طلب العلم والتقرب إليه سبحانه، ولا يكون هذا إلا بالتعلم على أيدي الأئمة الكبار والعلماء العظام؛ لأنه الوسيلة الوحيدة للتلقي بطريقة صحيحة وفق المنهج السني.

لذلك نجد العارف بالله ابن عطاء الله تتلمذ على أشهر فقهاء الإسكندرية فى ذلك العصر، ومنهم الفقيه ناصر الدين المنير الجذامى الإسكندري.

ولازم أحد أبرز أئمة التصوف في عصره، وهو الشيخ أبو العبّاس المرسيّ صاحب أبي الحسن الشاذليّ وتتلمذ له[٢]، فنهل من معارفه وتربى على يديه، حتى بلغ ما بلغ.

---

(١) ينظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ١: ١٨٢.

(٢) ينظر: المقفى الكبير١: ٣٦٥.

ثانياً: تلاميذه:

هذه العلوم اللدنية التي اكتسبها، والمعارف الربانية التي تلقاها جعلت العارف ابن عطاء الله قبلةً للرَّاغبين في السلوك لله تعالى، حتى يجدون مقاصدهم ويصلون إلى مرامهم، فتزاحم عليه الطلبة والكملة في التلقي والتربية والتزكية، ومنهم:

١.الإمام العلامة علي بن عبد الكافي بن علي السبكي تقي الدين أبو الحسن الشافعي، وأخذ عليه التصوف[١]، والسُّبْكِيّ نسبةً إلى سُبْك من أعمال المنوفيةِ، شيخ الإسلام في عصره، من مؤلفاته: «الدر النظيم في التفسير» لم يتم، و«مجموعة فتاوى»، و«الابتهاج في شرح المنهاج»، (٦٨٣-٧٥٦هـ)[٢].

٢.الشيخ داود الكبير بن ماخلا الشاذلي، العالم الشهير الإِمام الفاضل العارف بالله الولي الواصل، أخذ عن العارف ابن عطاء الله وانتفع به، وعنه الشيخ محمد وفا مؤلف «عيون الحقائق»، لم أقف على وفاته[٣].

٣.داود بن عمر بن إبراهيم الأسكندري: كان من الأئمة الراسخين والعلماء العاملين أخذ عن التاج ابن عطاء الله وانتفع به، كان عالماً بفنون عديدة وله تصانيف مفيدة منها: «شرح مختصر التلقين» و«جمل الزجاجي» وغير ذلك في المعاني والبيان، (ت ٧٣٣هـ)[٤].

---

(١) ينظر: الدرر الكامنة٤: ٧٤.

(٢) ينظر: الدرر الكامنة ٣: ٦٣-٧١، والأعلام ٥: ١١٦.

(٣) ينظر: شجرة النور١: ٢٩٣.

(٤) ينظر: شجرة النور١: ٢٩٣.

المطلب السادس: مؤلفاته:

اشتهرت العديد من المؤلفات للعارف ابن عطاء الله لا سيما حكمه التي بلغت شهرتها الآفاق، فكانت مرجعاً أصيلاً لكل من أراد الذوق الصوفي والمعرفة الإلهية، وأذكر هاهنا الكتب التي نسبت له، مع أن في نسبة أكثرها إليه نظر.

١. «الحكم العطائية»(١)، وهي الكتاب الذي بين أيدينا(٢).

---

(١) ينظر: الأعلام١: ٢٢٢، والمقفى الكبير١: ٣٦٥، وفي هدية العارفين١: ١٠٣: الحكم العطائية على لسان أهل الطريقة.

(٢) من نسخه المخطوطة: آماسيه رقم ١٦٩٥/ ٢ ورقة ٣٣ – ٤٦؛ محمد عاصم رقم ٧٢٨/ ١ ورقة ١٥؛ ٩٨١ هـ؛ المكتبة القادريّة ١٤٥٥/ ٢٤ ورقة ١٥٧ – ١٦٧؛ ١١٧١ هـ؛ مكتبة الأوقاف العامّة ٥٣٧٦/ ٤ ورقة ١٥؛ ١١٧٥ هـ؛ رقم ٤٨١٨؛ ٤٩٣٢؛ متحف مولانا ٦٩٠٦ ورقة ٣٣؛ ٩٠٧ هـ؛ جعفر ولي ٤٨٣ ورقة ٣٢؛ ١٢٧٣ هـ؛ المكتبة القادريّة ٦٩٣ ورقة ٢٠؛ ١٠٣٣ هـ؛ ٦٩٥ ورقة ٢٤؛ ١١٧٧ هـ؛ أسعد أفندي ١٣٩٥؛ طهطاوي فقه ٥٩ ورقة ٢١، ١١٨٣ هـ؛ مجامع ٧ ورقة ٢٦؛ أحمد ثالث يكيلر ٤٤٠٤/ ٥ ورقة ٤٠ – ٥٠، محمود ثاني ٤١٤ ورقة ٦٠٧؛ ١١٥٨ هـ؛ روان كوشكي ٢٤٦/ ٢ ورقة ٩٧ – ١١٥، ١٠١٥ هـ؛ Amucezade رقم ٢٧٥ ورقة ١٨أ ١١٠٨ هـ؛ معلّم جودت K /٥٨٧ ورقة ١٩، ١٠٩٠ هـ؛ وهبي أفندي ٢٠٠٠/ ٣؛ الظاهريّة ٣٧٥٦ مجموع ١٩ ورقة ٣٠ – ٣٩، ١١٠١ هـ؛ القاهرة ملحق رقم ٢٢٩٦٣/ ب ورقة ٥٩، ١١٧٠ هـ؛ رقم ٢٠٥٣٩/ ب مجموعة ورقة ١٢٠ – ١٤٢؛ المدرسة الحجيّات بالموصل مجامع ٢٢/ ١١١/ ٢؛ المدرسة الأحمديّة بالموصل مجامع ٢٤/ ٤٢/ ١؛ مدرسة الحاج زكريا بالموصل ٥/ ٤ ورقة ٨٠، ١١١٢ هـ؛ دار الكتب الوطنيّة بتونس ٥٩٧٤/ ١ ورقة ١٧، ١٢١٨ هـ، خزانة المدرسة العليا بالرباط ٦٥/ ١٧ =

٢. «تاج العروس[١] الحاوي على تهذيب النفوس»، نسبه له الزركلي والبغدادي[٢].

٣. «لطائف المنن[٣] في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي

= ورقة ١٥٣ – ١٧٢؛ المكتبة الخاصّة لعبد الله بن محمد بن محمد بن حسين غمضان بصنعاء ٦٦ ضمن مجموعة، نشر في بيروت ١٩٧٢؛ كما في معجم تاريخ التراث١: ٦٣٤ـ ٦٦٦ كما في معجم تاريخ التراث١: ٦٣٤ـ ٦٦٦.

(١) من نسخه المخطوطة: آماسيه رقم ١٦٩٥/ ١ ورقة ٣٣؛ عثمان أركين ٤٥٣ ورقة ٦٨؛ مكتبة الأوقاف العامّة ٧١٤٥/ ١ ورقة ٢١؛ ١٠٧٤ هـ؛ رقم ٤٨٠٨/ ٢ ورقة ٣٦؛ المكتبة القادريّة ٦٩٨ ورقة ٥٠؛ إزمير ملّي ٩٢٣/ ٣ ورقة ٤٠ – ٦٨؛ ١١٨٧ هـ؛ المكتبة العباسية بالبصرة رقم ١٣١/ ج، ١٢٤٢ هـ؛ طهطاوي تصوّف ١٠ ورقة ٤٩أ ٨١٩ هـ؛ القاهرة ملحق رقم ٢٢٩٥١/ ب ورقة ٤٥؛ رقم ٢٠٥٣٤/ ب مجموعة ورقة ١٦٤ – ٢١٥؛ رقم ٢٠٦٢٤/ ب ورقة ٤٠؛ بلديّة الإسكندريّة ٥١٧٣/ج ورقة ٢٢، ١٢٤٤ هـ؛ رقم ٣١٢١/ج ٢١ ورقة ٤٥ كتبت في القرن ١٣ هـ؛ رقم ٣٢١١/ج ورقة ٣٦ كتبت في القرن ١٣ هـ؛ خزائن مدرسة الخيّاط بالموصل مجامع ١٦/ ٣٦/ ٩أ ١٢٤٨ هـ؛ المكتبة السليمانية قسم البابانيان ٣/ ٦ ت / مجامع / ١٠٢ – ١٠٩ ورقة ٣٢، ١٢٩٢ هـ؛ دار الكتب الوطنيّة بتونس ٢٠٨١ ورقة ٣١، ١٠٦٩ هـ؛ رقم ٧٣٣٢/ ٣ ورقة ٤٥ – ١٠٠، بانكبور خدابخش رقم ٨/ ٢٦٣٧ ورقة ٤٥، ١٢٠٠ هـ، طبع في القاهرة ١٢٨٦، ١٢٩١، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٤٥، كما في معجم تاريخ التراث١: ٦٣٤ـ ٦٦٦.

(٢) ينظر: الأعلام١: ٢٢٢، وهدية العارفين١: ١٠٣.

(٣) ينظر: جامعة أمّ القرى ١٧٤ ورقة ٦؛ قره مان رقم ٩٤٥ ورقة ١٧٦؛ ٦٩٤ هـ؛ متحف مولانا ١١٤/ ٧ ورقة ٣٢٥ – ٣٤٣ كوبريلي رقم ٧٧٢/ ١ ورقة ١٤٢؛ رقم ٧٧٣ =

الحسن الشاذلي»، نسبه له المقريزي والزركلي وكحالة والبغدادي[١].

٤. «أصول مقدمات الوصول»، نسبه له البغدادي والزركلي[٢].

٥. «التنوير[٣] في إسقاط التدبير»، نسبه له المقريزي والبغدادي

= ورقة ٦٨؛ ١٠٠٨ هـ؛ الظاهريّة ٨٣٣٨ ورقة ١٠٠؛ ٨٨٧ هـ؛ رقم ٨٩٤٣ ورقة ٩٣؛ ٩٤٣ هـ؛ رقم ٥٩٢٦ ورقة ٨٦؛ ١٠٢٤ هـ؛ Chester Beatty 3062 ورقة ١٢٨، ٧٤٠ هـ؛ رقم ٤٧٨٢ ورقة ١١٨؛ المدرسة المحمَديّة بالموصل مجامع ٢٠/ ١٣/ ١؛ مدرسة جامع مريم خاتون بالموصل ٤٢ ورقة ١٠١؛ خزانة جامع الزيتونة بتونس مناقب ٣٤٢٧ ورقة ١٣٣؛ دار الكتب الوطنيّة بتونس ورقة ٢٠٠؛ رقم ٣٥٩٧ ورقة ٢٢٠؛ رقم ٧٤٥٣/ ١ ورقة ٨٩, ١١٨٤ هـ؛ طبعت في تونس ١٣٠٤ وفي القاهرة ١٣٢٢، ١٩٧٤ وفي دمشق ١٩٩٢؛ كما في معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ٦٦٦.

(١) ينظر: الأعلام١: ٢٢٢، وهدية العارفين١: ١٠٣، ومعجم المؤلفين٢: ١٢١، والمقفى الكبير١: ٣٦٥.

(٢) ينظر: هدية العارفين١: ١٠٣، ومعجم المؤلفين٢: ١٢١.

(٣) من نسخه المخطوطة: أحمد باشا رقم ١١٧ رقة ١٢٤؛ أحمد ثالث ١٤٢١ ورقة ٢٦٧، ٧٦٠ هـ؛ رقم ١٤٨٣ ورقة ١٢٨؛ خزينه رقم ٢/ ١٧٦٩ ورقة ١٠ – ٨٦، ١١٤٤ هـ؛ رقم ٥٩/ ٣، ورقة ٣٤ – ٤٦؛ عثمان أركين ٤٥٣ ، ورقة ٦٨؛ مكتبة الأوقاف العامّة ١٣٧٦٠؛ ٤٧٣٠؛ ٤٨٨٧/ ٢؛ متحف مولانا ٦٩٠٦/ ٢ ورقة ٢٤ – ١١٤؛ karahisar قم ١٧٥٩٤ ورقة ٩٥ طهطاوي تصوّف ٣٠ ورقة ١١٠، ٩٩٥ هـ؛ ماكس ما يرهوف ٥٣ ورقة ٩٨؛ ٥٠٢٩ Chester Beatty ورقة ٧٣، ٧٧٠ هـ؛ القاهرة ملحق رقم ٢٢٩٨٧/ ب ورقة ١٠٦ ، ١٢٧١ هـ؛ ر قم ٢١٨٤٩/ ب ورقة ٦٧، ١١٥٧ هـ؛ آية الله نجفي ٢١٣٢ ورقة ٧٩، ١٢٦٨ هـ؛ بلديَة الإسكندرية ٢٠٤١/ د ورقة ٩١، ٩٩٩ هـ؛ رقم ١٥٢٥/ ب ورقة ٥٨، =

وكحالة[١].

٦. «الطريق الجادة في نيل السعادة»، نسبه له البغدادي[٢].

٧. «مختصر تهذيب المدونة للبرادعي» في الفقه، نسبه له البغدادي[٣].

٨. «المرقى إلى القدير الأبقى»، نسبه له البغدادي وكحالة[٤].

٩. «مفتاح الفلاح[٥] في ذكر الله الكريم الفتاح»، نسبه له البغدادي وكحالة[٦].

= ١٢٧٤ هـ؛ رقم ٤٦٢٧/ ج ورقة ١٧٣ – ٢٤٧ كتب في القرن ١٣ هـ؛ المدرسة الرضوانيّة بالموصل ٤/ ٤ ورقة ٩٤؛ رقم ٤/ ٥ ورقة ٧٩؛ جامعة الكويت رقم ٢٦/ ١؛ مدرسة تلمسان بالجزائر ٢٨/ ٢ ورقة ٢٥، ١١٩٧ هـ؛ نشر في القاهرة ١٢٨١ ، ١٢٩٠، ١٣٤٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٣؛ كما في معجم تاريخ التراث١ : ٤٦٣ـ ٦٦٦.

(١) ينظر: هدية العارفين١ : ١٠٣، ومعجم المؤلفين٢ : ١٢١، والمقفى الكبير١ : ٣٦٥.

(٢) ينظر: هدية العارفين١ : ١٠٣.

(٣) ينظر: هدية العارفين١ : ١٠٣.

(٤) ينظر: هدية العارفين١ : ١٠٣، ومعجم المؤلفين٢ : ١٢١.

(٥) ينظر: خزينه رقم ٢٨٦ ورقة ٤٨؛ مكتبة الأوقاف العامّة ٤٨٨٧ ورقة ٥٠؛ ١١٤٦ هـ؛ Ramazanoglu رقم ٩٠٧/ ٦ ورقة ٢٠ – ٧٦؛ خزانة الدكتور داود جلبي ورقة ٧٦، ١٠٣٦ هـ؛ مدرسة الصائغ مجامع ١٧/ ٢٠/ ٢؛ جامعة الكويت رقم ٢٦/ ٢ ، ١٠/ ٣؛ دار الكتب الوطنيّة بتونس ٤١١٢/ ١ ورقة ٤٨؛ الجامع الأعظم بالجزائر ١٠٣/ ٤٠/ ٢ ورقة ١٦٤ – ٢٠٦؛ طبع في القاهرة ١٣٣٢ ، ١٩٠٣؛ كما في معجم تاريخ التراث١ : ٤٦٣ـ ٦٦٦.

(٦) ينظر: هدية العارفين١ : ١٠٣، ومعجم المؤلفين٢ : ١٢١.

قال الزركلي[١]: «وينسب إليه كتاب «مفتاح الفلاح» وليس من تأليفه».

١٠. «الأنفاس الزكية[٢] في شرح الحكم العطائية»، نسبه له بلوط[٣].

١١. «تحرير التنزيه[٤] وتحرير التشبيه في الكلام»، نسبه له بلوط[٥].

١٢. «ترتيب[٦] السلوك»، نسبه له بلوط [٧].

١٣. «حزب الرجاء[٨] والابتهال والالتجاء»، نسبه له بلوط [٩].

---

(١) في الأعلام١: ٢٢٢.

(٢) من نسخه المخطوطة: Karahisar رقم ١٧١٧٢ ورقة ١٧٦؛ القاهرة ملحق رقم ٢١٤٩٠/ ب ورقة ١٠٣، ١٠٥٥ هـ، كما في معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ٦٦٦.

(٣) ينظر: معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ٦٦٦.

(٤) من نسخه المخطوطة: المكتبة العثمانية الرضائية بحلب ٥٧٧ ورقة ١١، ٦٨٣ هـ؛ كما في معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ٦٦٦.

(٥) ينظر: معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ٦٦٦.

(٦) من نسخه المخطوطة: الجامع الأعظم بالجزائر ١٠٣/ ٤٠/ ٣ ورقة ٢٠٦ - ٢٠٩؛ كما في معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ٦٦٦.

(٧) ينظر: معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ٦٦٦.

(٨) من نسخه المخطوطة: الجامع الأعظم بالجزائر ٨٨/ ٢٩ / ٨ ورقة ٤٤ - ٤٦؛ الجزائر ٤/ ١٧٢١؛ كما في معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ٦٦٦.

(٩) ينظر: معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ٦٦٦.

١٤. «شرح قصيدة[١] أبي مدين المغربي»، نسبه له بلوط [٢].

١٥. «عنوان التوحيد[٣] في آداب الطريق»، نسبه له بلوط [٤].

١٦. «الفوائد[٥] في الأخلاق»، نسبه له بلوط [٦].

١٧. «القصد المجرّد[٧] في معرفة اسم المفرد»، نسبه له بلوط [٨].

١٨. «قصيدة[٩] ابن عطاء الله الإسكندري»، نسبه له بلوط [١٠].

---

(١) من نسخه المخطوطة: جامعة أمّ القرى ١١٩٢/ ٣ ورقة ١١؛ بلديّة الإسكندريّة ١٥٢٤/ ب ورقة ٨ كتب ١٢ هـ؛ كما في معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ ٦٦٦.

(٢) ينظر: معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ ٦٦٦.

(٣) ينظر: طبع في بيروت ١٤٠٨، كما في معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ ٦٦٦.

(٤) ينظر: معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ ٦٦٦.

(٥) من نسخه المخطوطة: آستان قدس رضوي رقم ٦١٣؛ كما في معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ ٦٦٦.

(٦) ينظر: معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ ٦٦٦.

(٧) من نسخه المخطوطة: دار الكتب الوطنيّة بتونس ٤٢٥٠/ ١، ٩٩٥ هـ؛ رقم ٣٠٦١ ورقة ٢٧، ١٢٨٢ هـ؛ طبع في دمشق ١٩٩٠؛ كما في معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ ٦٦٦.

(٨) ينظر: معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ ٦٦٦.

(٩) ينظر: مكتبة الأوقاف العامّة ٤٨١١ ٨؛ ١٠٦٤هـ؛ كما في معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ ٦٦٦.

(١٠) ينظر: معجم تاريخ التراث١: ٤٦٣ـ ٦٦٦.

١٩. «اللامعة المنيرة[١] والدرة المنيرة»، نسبه له بلوط [٢].

٢٠ «المناجات[٣] العطائية (منظوم)»، نسبه له بلوط [٤].

ومعلوم أن عامة هذه المؤلفات نسبها له بلوط والبغدادي وكحالة، وهم ليسوا من المؤرخين المعتبرين، ولا كتبهم من الكتب المعتمدة التي يعوَّل عليها؛ لأنهم يجمعون فيها بدون تحقيق ولا تمحيص ، فلا تصح نسبة كتاب لصاحبه بالاعتماد عليه، وإنما يجب أن يتثبت من غيرهم حتى تصح النسبة في الكتاب لمؤلفه.

المطلب السابع: شعره ووفاته:

أولاً: شعره:

عرف العارف بالله ابن عطاء الله بنظمه للشعر الحسن، ومنه:

مرادي منك نِسيان المراد إذا رُمْتَ السبيلَ إلى الرشاد

(١) ينظر: قره مان ٩٤٥/ ٢ ورقة ١٧٦ – ١٧٩؛ كما في معجم تاريخ التراث١: ٦٦٣ـ٦٦٦.

(٢) ينظر: معجم تاريخ التراث١: ٦٦٣ـ٦٦٦.

(٣) من نسخه المخطوطة: الظاهريّة عام ١٩ ورقة ٧ – ٨؛ ٣٦ بيتا؛ حسن حسني عبد الوهّاب بتونس ١٧٩٠١/ ٩ ورقة ٧٠ – ٧٣؛ طبعت في بيروت ١٩٧٢؛ ١٩ – وصية ابن عطاء الله الإسكندري بالإخوان قره مان رقم ٩٤٥/ ٣ ورقة ١٧٩ – ١٨٢؛ طبعت في تونس ١٣٠٤ وفي القاهرة ١٣٢٢؛ ١٩٧٤ وفي دمشق ١٩٩٢ مع لطائف المنن؛ معجم تاريخ التراث١: ٦٦٣ـ٦٦٦.

(٤) ينظر: معجم تاريخ التراث١: ٦٦٣ـ٦٦٦.

وأنْ تَدَعَ الوجودَ فلا تراه ... وتصبح ماسكاً حبل اعتماد
إلى كم غفلة عني وإني ... على حفظ الرعاية والوداد
ودي فيك لو تدري قديم ... ويوم السبت يشهد بانفرادي
وهل رب سواي فترتجيه ... غدا ينجيك من كرب شداد
فوصف العجز عمّ الكون طُرّا ... فمفتقر بمفتقر ينادي
وبي قد قامت الأكوان طُرّا ... وأظهرتُ المظاهرَ من مرادي
ووصفك فالْزَمَنْهُ وكن ذليلاً ... ترى مني المنى طَوْع القياد
وكن عبداً لنا والعبد يرضى ... بما تَقْضِي الموالي من مراد[١]

ثانياً: وفاته:

توفّي العارف بالله بالمدرسة المنصوريّة[٢] من القاهرة في ثالث عشر جمادى الآخرة[٣] القاهرة سنة ٧٠٩هـ، تسع وسبعمائة[٤].

وكانت جنازته مشهودةً[٥].

---

(١) ينظر: طبقات الأولياء١: ٤٢٢.

(٢) ينظر: معجم المفسرين١: ٦٧.

(٣) ينظر: المقفى الكبير١: ٣٦٥.

(٤) ينظر: المنهل الصافي٢: ١٢١، وقلادة النحر٦: ٥٣، وسلم الوصول٤: ٨٢، والأعلام١: ٢٢٢، والمقفى الكبير١: ٣٦٥، ومعجم تاريخ التراث١: ٦٦٣ـ٤٦٦.

(٥) ينظر: طبقات الأولياء١: ٤٢٢.

قال المقريزي[(١)]: «دفن بالقرافة، وتردّد الناس لزيارة قبره تبرّكا به، وعملوا عند قبره في كلّ ليلة حادي عشر جمادى من كلّ سنة مجتمعاً يقرءون فيه القرآن ويطعمون الطعام، فيحشر الناس من أكثر الجهات لشهود هذا المحيا ويخلطون فيه الحقّ بالباطل، ويأتون أنواعا من المنكرات، وهم على ذلك إلى يومنا».

المطلب الثامن: شروح الحكم:

تعدُّ الحكم من أَشهر الكتب في تاريخ الأمة، ومن أبرز كتب التَّصوف، فقد نالت قبولاً عظيماً وانتشاراً كبيرة، وأَصبح الكلُّ يحتجُّ بعبارتها، ويَفرحُ بحفظها وفهمها، ويَفتخر بذكرها وتكرارها، حتى قال بعضُهم: «حكم ابن عطاء الله يلهج كثير من متصوِّفه زمننا بحفظ كلمات منها»[(٢)].

ولما صنفها عرضها على شيخه أبي العباس المرسي فتأمّلها، وقال له: لقد أتيت يا بني في هذه الكراسة بمقاصد «الإحياء» وزيادة، ولذلك تعشقها أرباب الذوق لما رقّ لهم من معانيها وراق، وبسطوا القول فيها، وشرحوها كثيراً[(٣)].

فأقبل على درسها الطلبة والكملة، ورغب بشرحها الأكابر، فلا تحصى

---

(١) في المقفى الكبير١: ٣٦٥.

(٢) ينظر: البدر الطالع١: ١٠٨.

(٣) ينظر: كشف الظنون١: ٦٧٥.

الشروح عليها، وهاهنا ذكر لبعض الشُّروح عليها؛ لبيان مقامها ومقدارها:

١. شرح أبي الفلاح صالح بن محمد بن صالح السباعي، الأستاذ العمدة العارف بالله القدوة الحبر الإمام الفاضل الهمّام نادرة الأيام، وعمدة الأنام، الزّاهد الثقة الأمين مع ورع ودين متين، (١١٥٤ـ ١٢٢١هـ)[١].

٢. شرح أبو محمَّد عبد المجيد الشُّرنوبي الأزهري، العلامة المحقق المجيد واسطة العقد الفريدة العمدة الإِمام المؤلف المحقق الهمّام، أخذ عن جلة من علماء الأزهر، له تآليف رزق فيها القبول منها «شرح مختصر البخاري» لابن أبي جمرة، و«شرح الأرْبعين النووية» واختصر «الشمائل المحمدية»، و«شرح دلائل الخيرات» و«الجامع الصغير» و«دلالة السالك على أقرب المسالك»، و«مناهج التسهيل على متن خليل»، و«مناهج التيسير على مجموع الأمير» و«إرشاد السالك على ألفية ابن مالك» و«المحاسن البهية على العشماوية»، و«الكواكب الدرية على متن العزية»، و«تقريب المعاني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني»، و«شرح حكم ابن عطاء الله»، و«تائية الشيخ أبي العباس الشرنوبي»، و«ديوان خطب مثلث السجعات»، و«ديوان مربع السجعات»، وغير ذلك، (ت١٣٤٨هـ)[٢].

٣. شرح محمد بن زغران التونسي، الشيخ أبي المواهب، ونحا في شرحه نحو شقائق الفلاسفة ودقائقهم، فاللهَّ أعلم بمراده، ولم يكمل،

---

(١) ينظر: شجرة النور ١: ٥١٩.

(٢) ينظر: شجرة النور ١: ٥٨٩.

(ت٨٨٢هـ)[١].

٤. شرح علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي القلصادي (٨١٥ - ٨٩١ هـ)[٢].

٥. شرح أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى الشهاب البرنسي المغربي الفاسي المالكي، ويعرف بزروق[٣].

٦. شرح خلف بن محمد بن محمد الزين أبو محمد المشالي ثم الشيشيني القاهري الشاذلي[٤].

٧. «أحكام الحكم لشرح الحكم»؛ لبرهان الدّين أبو الطيب إبراهيم بن محمود بن أحمد بن حسن أوقصرائي (ت٩٠٨هـ)[٥].

٨. شرح أبي الطيب إبراهيم بن محمود الأقصرائي المواهبي المصري الشاذلي الحنفي، (ت٩١٤هـ)، وهو شرحٌ حسنٌ، وكان ينفق نفقة الملوك، ويلبس ملابسهم، وذلك من غيب الله تعالى لا يدري أحد له جهة معينة تأتيه منها الدنيا، ولم يطلب الطريق حتى لحقه المشيب.

---

(١) نيل الابتهاج١: ٥٥٧.

(٢) ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين٤: ١٠٧.

(٣) ينظر: الضوء اللامع١: ٢٢٢.

(٤) ينظر: الضوء اللامع٣: ١٨٥.

(٥) ينظر: شذرات الذهب١٠: ٥٢.

فجاء إلى سيدي محمد المغربي الشّاذلي وطلب منه التربية، فقال له: يا إبراهيم، تريد تربية بيتية وإلا سوقية. فقال له: ما معنى ذلك؟ قال: التربية السوقية: هي أن أعلمك كلمات في الفناء والبقاء ونحوهما، وأجلسك على السجادة، وأقول لك خذ كلاماً وأعط كلاماً من غير ذوق ولا انتفاع.

والتربية البيتية بأن تفني اختيارك في اختياري، وتشارك أهل البلاء، وتسمع في حقِّك ما تَسمع فلا تتحرك لك شعرة اكتفاء بعلم الله تعالى، فقال أطلب التربية البيتية، قال: نعم لكن لا يكون فطامك إلّا بعدي على يد الشيخ أبي المواهب، وكان الأمر كذلك، ولذلك لم يشتهر إلا بالمواهبي.

ثم قال له الشيخ محمد: قف غلاما اخدم البيت والبغلة، وحسّ الفرس، وافرش تحتها الزبل، وكب التراب، فقال: سمعا وطاعة، فلم يزل يخدم عنده حتّى مات، فاجتمع على سيدي أبي المواهب ولم يزل عنده يخدم كذلك ولم يجتمع مع الفقراء في قراءة حزب ولا غيره حتّى حضرت سيدي أبا المواهب الوفاة، فتطاول جماعة من فقرائه إلى الأذن، فقال الشيخ: هاتوا إبراهيم فجاءه، فقال: افرشوا له السجادة فجلس عليها، وقال له: تكلم على إخوانك في الطريق فأبدى الغرائب والعجائب، فأذعن له الجماعة كلهم[1].

٩.شرح شهاب الدّين أحمد بن عمر بن سليمان الجعفري الدمشقي الشافعي الصّوفي الوفائي (ت٩٢٠هـ)، وهو شرح لطيف، وضعه على

(١) ينظر: شذرات الذهب١٠: ٩١.

أسلوب غريب كلما تكلّم على حكمة اتبعها بشعر عقدها فيه فمن ذلك قول:

أجلّ أوقاتِ عارفٍ زَمَن يشهد فيه وجود فاقته
متّصفاً بالذي يُقرِّبه من رَبِّه من وجود زلّته

عقد فيه قول ابن عطاء الله: «خير أوقاتك وقت شهدت فيه وجود فاقتك، وتردّ إلى وجود ذلّتك».

وقال أيضاً:

خير ما تطلب منه هو ما يطلب منكا
فاطلب التوفيق منه للذي يرضيه عنك

عقد فيه قول ابن عطاء الله: «خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك»[١].

١٠ .شرح أحمد بن محمد بن عبد الرحمن البتروني الحلبي، شرح حكم ابن عطاء الله في مجلد ضخم[٢].

١١ . «الدرر الجوهرية» لعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين، الملقب زين الدين الحدادي ثم المناوي[٣].

(١) ينظر: شذرات الذهب١٠: ١٣٨.

(٢) ينظر: خلاصة الأثر١: ٣٤٥.

(٣) ينظر: خلاصة الأثر٢: ٤١٦، وكشف الظنون١: ٦٧٥.

١٢. شرح محمد شريف بن المنلا يوسف بن القاضى محمود بن المنلا، كمال الدين الكورانى الصديقى الشاهوى الرويسى الشافعى، صدر من صدور الأئمة، كان عالماً ولياً قدوة فى أفراد العلماء الزاهدين(١).

١٣. شرح الولي الصالح المعتقد المجذوب العالم العامل الشيخ علي ابن حجازي بن محمد البيومي الشافعي الخلوتي ثم الأحمدي، (ت١٠٨٣هـ)(٢).

١٤. شرح العلامة أبو العرفان الشيخ محمد بن علي الصبان الشافعي، (ت١٢٠٦هـ)(٣).

١٥. شرح مصطفى أبو العُلا، (ت١٤٠٦ هـ)، شرح فيه حكم ابن عطاء الله السكندري(٤).

١٦. شرح احمد بن عمر بن سليمان الجعفري، الدمشقي الوفائي، الشافعي شهاب الدين، (ت ٩٢٠)(٥).

١٧. «إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عطاء الله»؛ لأحمد بن محمد بن

---

(١) ينظر: خلاصة الأثر٤: ٢٨٠.

(٢) ينظر: تاريخ العجائب١: ٣٧٩.

(٣) ينظر: عجائب الآثار٢: ١٣٧.

(٤) ينظر: الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير٣: ٢٦٥٥.

(٥) ينظر: معجم المؤلفين٢: ٣٢.

المهدي بن عجيبة الحسني، الإدريسي، الشاذلي، الفاسي، أبي العباس، (١١٦٠ ـ ١٢٢٤ هـ)[١].

١٨. شرح حسن بن عوض بن مخدم، (١٢٦٠ - ١٣٣١ هـ)[٢].

١٩. شرح علي بن حجازي بن محمد البيومي، الحسني، الادريسي، الشاذلي، الشافعي، الخلوتي، الدمرداشي، الأحمدي، (١١٠٨ - ١١٨٣ هـ)[٣].

٢٠. شرح أبي القاسم الرماح، من أهل طرابلس الغرب، (ت ٨٨٧هـ)[٤].

٢١. شرح محمد بن عبادة بن بري العدوي المالكي، (ت ١١٩٣ هـ)[٥].

٢٢. شرحان للحكم لمحمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن أحمد جسوس، (١١٠٩ - ١١٨٢ هـ)[٦].

٢٣. شرح محمد بن يوسف بن احمد بن علي البدري الدجاني، القشاشي، القدسي الأصل، المدني، (ت ١٠٤٤ هـ)[٧].

---

(١) ينظر: معجم المؤلفين ٢: ١٦٣.

(٢) ينظر: معجم المؤلفين ٣: ٢٦٧.

(٣) ينظر: معجم المؤلفين ٧: ٥٦.

(٤) ينظر: معجم المؤلفين ٨: ١٠٠.

(٥) ينظر: معجم المؤلفين ١٠: ١١٨.

(٦) ينظر: معجم المؤلفين ١١: ١٤٦.

(٧) ينظر: معجم المؤلفين ١٢: ١٢٢.

٢٤. شرح عبد الله بن حجازي الشرقاوي، (ت١٢٢٧هـ)[١].

٢٥. شرح محمد بن إبراهيم الحلبي، المعروف بابن الحنبلي، (٩٧٢-٩٧١هـ)[٢].

٢٦. «غيث المواهب العلية»؛ لمحمد بن إبراهيم بن عباد النفزي الرندي، الشاذلي، (ت٧٩٢هـ) [٣].

٢٧. شرح محمد رمضان سعيد البوطي، (ت٢٠١٣هـ).

٢٨. «سراج الظلم شرح تلخيص الحكم»؛ لأبي بكر بن محمد بن عمر الملا الإحسائي الملا، (ت١٢٧٠هـ).

طبعات الكتاب:

طبع في في بولاق سنة ١٢٨٥هـ، وفي القاهرة ١٣٠٢هـ، مع شرحين اثنين: الأول لمحمد النفري الرندي، والثاني لعبد الله بن حجازي الشرقاوي (ت١٢٢٧هـ[٤].

---

(١) ينظر: اكتفاء القنوع ما هو مطبوع١: ٢٠٠.

(٢) ينظر: كشف الظنون١: ٦٧٥.

(٣) ينظر: كشف الظنون١: ٦٧٥.

(٤) ينظر: اكتفاء القنوع ما هو مطبوع١: ٢٠٠.

شرح الحكم العطائية

للعلامة أبي محمَّد عبد المجيد الشُّرنوبي الأزهري
توفي سنة (١٣٤٨هـ)
اعتنى به وخرج أحاديث وترجم لمؤلفه وأعلامه
الأستاذ الدكتور صلاح محمد أبو الحاج

ومعه التعليقات المُسمَّاة

اللطائف النوارانية

على شرح الحكم العطائية

للدكتور معاذ سعيد حوى

ومعه في الخاتمة

مكاتبات ومناجاة الإمام ابن عطاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي عطاؤه قِسَم وصُنعُهُ حكم، والصلاة والسلام على أفضلِ من نصح وأعدلِ من حكم سيدنا محمّد سيدِ الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فيقول أفقر العباد إلى مولاه الغني عبد المجيد الشرنوبي الأزهري ـ بلّغه الله الأمل ووفقه لصالح العمل ـ: لما كانت حكم السيد السري العارف بالله تعالى سيدي أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري من أنفع ما يَتَوَصَّلُ به المريد إلى معرفة طريق العارفين الموصلة إلى ذي العرش المجيد لاشتمالها على دقائق التوحيد المنيفة مع اختصار عباراتها الرَّائقة اللطيفة أردت أن أشرحها بشرح وسطٍ خال من التَّطويل والغلط يراه النّاظر لها كالمصباح، ويتحقَّق أنه ثمرة ما غرسه الشراح، فإني دخلت بستان العارفين الأعلام واجتنيت يانع الثمرات من حدائق الأفهام وقربت للجاني الجنى ورجوت من الله بلوغ المنى مع اعترافي بأن باعي قصير وذهني كليل لكن أردت التَّشبه بهؤلاء السَّادة على حدَّ ما قيل:

فَتَشَبَّهوا إن لم تكونُوا مثلَهم إن التَّشَبُّهَ بالكِرامِ فَلاحُ

وقد اختبرتها بالعدّ، فإذا هي مائتان وأربع وستون حكمةً غير مكاتباته لبعض إخوانه ومناجاته المشتملة على الحكم المهمة، فاخترت أن أذكر كلَّ حكمةٍ بتمامها بين قوسين، وأتبعها بالشَّرح ليقرب للنَّاظر فهمها، وتقرّ منه العين، وقصدت بذلك دخولي في عداد مَن خدم حكم هذا العارف الكبير راجياً الاستمداد من بحر أفضاله، فإنّه ذو المدد الشَّهير، وقد فتح على كثير من أهل الأزهر ببركاته، نفعنا الله به، وأعاد علينا من باهر نفحاته.

كان رضي الله عنه ترجمان الحقيقة، ومعدن السلوك والطريقة، مالكي المذهب، نشأ بالإسكندرية، وكانت وفاته سنة تسع وسبعمائة بمصر المحمية، وعلى مقامه في سفح الجبل من الأنوار ما يبهر الزوار.

ثم اعلم أنّ الحكم جمع حكمة، وهي كلُّ كلمةٍ حصل لك بها نفع، وقال العلامة الأمير: «الحِكَم جمع حكمة، وهي العلم النافع، وليس ذلك إلا علم الشريعة الشامل للفقه والتوحيد والتصوف، لكن لما كان علم التَّصوف هو العلم الباحث عن تهذيب النفس وتصفيتها من الصفات المذمومة، والتنبيه على ما يعرض للعبادات والمعاملات من الآفات المهلكة كالكِبْر والرياء والعجب، وتعريف الطرق المخلصة من ذلك كان أنفع العلوم فخص باسم الحكم»، اهـ.

وهذا أوان الشروع في المقصود، فأقول متوسِّلاً في القبول بحبيب الملك المعبود:

قال العارف رضي الله عنه:

(١)

(من علامة الاعتمادِ على العَمَلِ نُقْصانُ الرَّجاءِ عند وجودِ الزَّلَلِ)

يعني أنّ من علامات تعويل العامل على عملِه أن يَنقص رجاؤه في رحمة الله عند وجود زَلَـلِه(١)، ومفهومه رجحان الرَّجاء عند التَّحلي بالعمل والتَّخلي

(١) وقد وردت الآيات والأحاديث بالمعاني التي تعمق معاني الرجاء والطمع في رحمة الله ومغفرته، فمن ذلك: قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]، وعن أبي ذر ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة؛ فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن جاء بالسيئة ؛ فجزاءُ سيئة مثلها أو أغفر، ومن تقرب مني شبراً، تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً ؛ تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي؛ أتيته هرولة، ومن لقيني بقُراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً؛ لقيته بمثلها مغفرة» رواه مسلم رقم ٢٦٨٧. قال النووي في رياض الصالحين: «معنى الحديث: من تقرب إلى بطاعتي تقربت إليه برحمتي، وإن زاد زدت، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيته هرولة أي صببت عليه الرحمة، وسبقته بها، ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود، وقراب الأرض ...: ما يقارب مِلأَها، والله أعلم» (رياض الصالحين ت الفحل رقم ٤١٣)، وعن جابر ﵁ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان ؟ فقال: « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يُشرك به شيئاً دخل النار» رواه مسلم رقم ٩٣، ونحوه البخاري رقم ١١٨١ ومسلم رقم ٩٢ عن عبد الله بن مسعود ﵁. وعن أبي هريرة ﵁ قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي» رواه البخاري (٧٤٠٤) ومسلم (٢٧٥١)، وفي رواية: سبقت (٧٤٢٢)، والرجاء أثر عن الإيمان بصفات الله: الرحمن الرحيم الكريم الغفور العفو البر ... وقد بين الله عز وجل =

عن الزلل، وهذه الحكمة إنما تناسب العارفين الذين يشاهدون أن الأعمال كلَّها من رَبِّ العالمين، لملاحظتهم قوله سبحانه في كتابه المكنون: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٩٦: الصافات].

فلا يعظم رجاؤهم بالأعمال الصَّالحة حيث إنهم لا يشاهدون لأنفسهم عملاً، ولا ينقص أملهم في رحمة الله إذا قصَّروا في الطَّاعة أو اكتسبوا زللاً؛ لأنهم غرقى في بحار الرِّضا بالأقدار، متمسكون بحبل قضاء: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [٦٨: القصص]، فإن الرِّضا بالقضاء واجبٌ من حيث إرادتُه له، ومذمومٌ من حيث الكسبُ ما انفكت الجهة[١]، وقد قال المصنِّف في بعض قصائده:

ولا يَمْنَعْهُ ذنبٌ من رَجَاءٍ فإنَّ اللهَ غَفارُ الذُّنوب

وأما السالكون، فإنَّما يُناسبهم الفرح بصالح العمل، وتقديم الخوف[٢]

= أن الرجاء سبب في ولاية الله للعبد وحمايته، كما في قوله تعالى ذاكراً قول المؤمن: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ [غافر: ٤٤-٤٥].

(١) أي عن العمل بأن يعتمد على القضاء ولا يقوم بالأسباب المأمور بها من عند الله تعالى؛ لأنه لا بدّ أن يقوم بالأسباب، ويرضى بما يقدره الله تعالى بعدها، والله أعلم.

(٢) وقد وردت الآيات بالمعاني التي تعمق معاني الخوف والخشية لله، فمن ذلك: قال تعالى: ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة:٤٠]، وقال: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج:١٢]، ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران:٢٨]، ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ =

= [الرحمن: ٤٦]، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، فجعل الخوف شرطاً من شروط الجنة.
وفي السنة وردت أحاديث كثيرة توجب الخوف وتدل عليه، كأحاديث الحساب والموقف والسؤال والعذاب والخوف من غضب الله وناره، ومن ذلك: عن ابن مسعود ﵁ قال ﷺ: «... فوالذي لا إله غيره ؛ إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخُلُها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » أخرجه البخاري رقم ٣٠٣٦ ومسلم رقم ٢٦٤٣ ، عن ابن مسعود ﵁. وعن أنس أن النبي ﷺ خطبهم فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » فغطى أصحاب رسوله الله ﷺ وجوهم، ولهم خنين. أخرجه البخاري ومسلم. أخرجه البخاري رقم ٤٣٤٥ ومسلم نحوه رقم ٢٣٥٩ عن أنس بن مالك ﵁، والخنين: صوت من يبكي إذا اشتد بكاؤه وظهر صوت من أنفه. وفي رواية عن أبي ذر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، أطت السماء [الأطيط: صوت الرحل والقتب وشبههما] وحق لها أن تئطّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى» أخرجه الترمذي رقم ٢٣١٢ وقال: غريب حسن، ونحوه أحمد رقم ٢١٥٥٥.
وإيمان المؤمن بأن الله عظيم وجليل وكبير ومتعال وشديد العقاب يوجب الخوف من الله تعالى.
والخوف من الله ثمرته الاجتهاد في الأعمال والمسارعة إليها والبعد عن المعاصي، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف [أي خاف البيات، كناية عن خوف العذاب في الآخرة] أدلج [أي سار من أول الليل، كناية عن التشمير في الطاعة وإرضاء الله تعالى]، ومن أدلج بلغ المنزل، إلا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة» أخرجه الترمذي رقم ٢٤٥٠ وحسنه، والحاكم رقم ٧٨٥١ وصحح إسناده، عن أبي هريرة ﵁.

المستلزم لنقصان الرجاء عند وجود الزلل، على حدِّ قول الإمام الدردير(١):

وغَلِّبِ الخوفَ على الرجاءِ وسِرْ لمولاك بلا تَناءِ

لا سيما في هذه الأزمنة التي رقَّت فيها الدِّيانة، وكثرت الجراءة على المعاصي، وقلَّتْ فيه الأمانة، فإنّ الله تعالى جَعَل الأعمال الصَّالحة سبباً لرفع الدَّرجات بدار القرار، والأعمال الطَّالحة موجبة للدرك الأسفل من النار، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل ٥ـ ١٠].

وإنما بدأ المصنف بما يُناسب مقام العارفين(٢) وإن كان مقتضى التَّرقي البداءة بمقام السَّالكين من الحثِّ على حسن المَتابِ والتَّمسك بالأسباب الموصلة إلى الكريم التواب ليكون السالك حَسن البداية التي بها تشرق

(١) وهو أحمد بن محمد بن أحمد العَدَوي الخلوتي المالكي، أبو البركات، الشهير بالدردير، ولد في بني عَدِيّ (بمصر) وتعلم بالأزهر، وتوفي بالقاهرة، وكان من كبار الصوفية فى عصره، الإسلام، وبركة الأنام، قال البيطار: العالم العلامة أوحد وقته في الفنون العقلية والنقلية، شيخ أهل له كلمات حسنة العبارة، وبديعة الحقيقة والاستعارة، من مؤلفاته: «أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك»، و«منج التقدير في شرح مختصر خليل»، و«تحفة الإخوان في علم البيان»، (١١٢٧ - ١٢٠١ هـ)، ينظر: حلية البشر١: ١٨٥، والأعلام١: ٢٤٤، وموسوعة الأعلام١: ٢١٣.

(٢) العارف بالله يوازن بين الخوف والرجاء، والمبتدئ يرجح الخوف على الرجاء، وعند الموت يقدم الرجاء على الخوف، قال ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل» رواه مسلم ٢٨٧٧ عن جابر رضي الله عنه.

النهاية.

فمقصوده بهذه الحكمة تنشيط السالك المجد في الأعمال ورفع همته عن الاعتماد عليها واعتماده على محض فضل ذي العزة والجلال، كما أشار لذلك ابن الفارض[١] بقوله:

تمسَّكْ بأذيالِ الهوى واخلَعِ الحَيا وخلِّ سبيلَ النَّاسكينَ وإنْ جَلُّوا

فإنّه لم يُرِدْ الأمرَ بترك العبادة؛ لأنه كان من أعظم العُبَّاد، بل أراد عدم التعويل عليها، والاعتماد على فضل الكريم الجواد، وفي الحديث: «لن يُدْخِلَ أحداً عملُهُ الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمته»[٢].

---

(١) وهو عمر بن علي بن مرشد الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، أبو حفص وأبو القاسم، شرف الدين ابن الفارض: أشعر المتصوفين، يلقب بسلطان العاشقين، له ديوان شعر، مشتمل على اللطائف، والسلوك، والمحبة، والمعارف، والشوق، والوصل، وغير ذلك من الاصلاحات في العلوم الحقيقة المعروفة في كتب المشائخ الصوفية (٥٧٦ ـ ٦٣٢هـ)، ينظر: مرآة الجنان٤: ٦٠، والأعلام٥: ٥٥.

(٢) فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «لن يدخل أحدا عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت: إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب» في صحيح البخاري٧: ١٢١.
وليس معنى ذلك ترك العمل، بل التنبيه إلى أن ثمرة العمل وقبوله لا تكون إلا بفضل الله، وتنبيه إلى وجوب التوكل على الله تعالى في العمل، كما تتوكل على الله تعالى مع سائر الأسباب. فأنت حينما تطلب الرزق، تعلم أن الله هو الرزاق وليس طلب الرزق هو الرزاق، لكن =

وقد جُمع بين هذا الحديث وآية: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٣٢: النحل] بأن العمل لا يكون معتبراً إلا إذا كان مقبولاً، وقبوله بمحض الفضل، فصحَّ أن دخول الجنة بمحض فضل الله تعالى، وأن العمل سبب ظاهري متوقَّف عليه، والله تعالى يُوفِّقنا لما فيه رضاه(١).

= طلب الرزق مطلوب، وكذلك أعمال العبادة مطلوبة، لكنها ليست هي التي تدخلك الجنة، بل فضل الله تعالى، وما هي إلا أسباب، وهي أسباب مطلوبة، فقد أمرنا الله تعالى ورسوله بالعمل: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح: ٧-٨]، ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣]، ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥]، « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » أخرجه البخاري ٤٦٦٦ ومسلم ٢٦٤٧.

وليس مقصود النبي ﷺ في الحديث المذكور أن يصرفنا عن العمل أو يقلل من شأنه، فإن الحديث نفسه قد حث على العمل إذ قال في أوله: « قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو ... » كما في إحدى روايات مسلم للحديث رقم ٢٨١٦، فأمر بالعمل مع التنبيه إلى التوكل على الله فيه، وكيف يقلل رسول الله ﷺ من شأن العمل والله تعالى يخبرنا أنه سبب دخول الجنة ـ بعد رحمته التي أشار إليها الحديث ـ قال تعالى: ﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فالعمل هو الذي أدخلهم الجنة، كما في ظاهر الآية، والجمع بين الآية والحديث أن العمل هو مظهر الرحمة والقبول: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فإذا وجد العمل ـ والإحسان هو العمل مع الإخلاص والمراقبة ـ فذلك سبب الرحمة، فيدخل بالرحمة، لكن العمل هو مظهر الرحمة، كما رأيت .

(١) والحكمة تُنَبِّه إلى وجوب التوكل والاعتماد على الله، إذ التوكل حالة وصفة واجبة من صفات القلب ومقاماته الإيمانية، تلقي بظلالها على الأعمال والأقوال، وهو ثمرة الإيمان =

= بأن الله وكيل، وحسيب، ونافع، ومعطي ومانع ... ولما كان التوكل مما يقتضيه الإيمان فهو واجب وفرض قلبي مثلُه، والواجباتُ والفرائض المرتبطة بالإيمان والعقائد أعظمُ من الواجبات المرتبطة بالأعمال والفقه، وقد بين الله تعالى لنا أن التوكل من شروط الإيمان بل ومن شروط الإسلام فقال: ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].
وقد ذكر الله تعالى ورسوله لنا فضل التوكل والمتوكلين فمن ذلك أنه سبب لمحبة الله لنا: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وأنه سبب في الحفظ من الشيطان: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٩]. وبين النبي ﷺ أن التوكل سبب في دخول الجنة بغير حساب: « سبعون ألفاً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب؛ الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » رواه البخاري رقم ٦١٠٧ ومسلم رقم ٢١٧ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي رواية عندهما: «ولا يكتوون»، والتوكل سبب في تيسير الأسباب لقوله ﷺ: «لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتعود بطاناً» حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٠٥، والترمذي رقم ٢٣٤٤، وابن ماجة رقم ٤١٦٤، وابن حبان رقم ٧٣٠، والحاكم رقم ٧٨٩٤، عن عمر بن الخطاب ﵁، وبعضهم لفظه: «وتروح بطاناً»، وهذا المعنى جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]. وليس التوكل هو تركَ الأسباب، كما يظن بعض الناس، بل هو الاعتماد على الله في الأسباب عند وجودها، بدليل قوله ﷺ ـ لمن ظن أن التوكل يعني ترك الأسباب ـ فسأل النبي ﷺ: أربط ناقتي أم أتوكل فقال ﷺ: «اعقلها وتوكل» حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٢٥١٧ عن أنس بن مالك ﵁ ، وقال: غريب، وابن حبان رقم ٧٣١، عن عمرو بن أمية ﵁ .
ومن أعظم طرق التحقق بالتوكل؛ الإكثارُ من ذكر: لا حول ولا قوة إلا بالله، وذكر: حسبي الله ونعم الوكيل.



(٢)

(إرادتُكَ التجريدَ مع إقامةِ الله تعالى إِيَّاكَ في الأسباب من الشَّهوة الخفيةِ وإرادتُكَ الأسبابَ مع إقامةِ الله إِيَّاكَ في التجريد انحطاطٌ عن الهِمَّةِ العَلَيَّةِ)

يعني أن عزمك ـ أيها المريد ـ على التَّجرد أي لتخلص من الأسباب التي أقامك الله تعالى فيها كطلب الرِّزق الحلال والاشتغال بالعلم الظَّاهر من الشهوة الخفية.

أما كونها من الشهوة فلعدم وقوفك مع مراد مولاك.

وأمّا كونها خفيةً، فلكونك لم تقصد بذلك حظَّ نفسك في العاجل، بل التقرّب بالتجرد لمن خلقك وسوَّاك، فقد زيَّنت لك النَّفس بالدسيسة الخفية الخروج عن الأسباب التي أقامك فيها العزيز الوهاب.

وكذلك إرادتك الأسباب الشاغلة عن الله الكريم مع إقامته إياك في التجريد ورزقك من حيث لا تحتسب بفضله العميم انحطاطٌ عن الهمّة العلية؛ لأنّ ذلك رجوع من الحقّ إلى الخلق، وهي رتبة دنية.

فالزم ـ أيها المريد ـ ما رضيه لك العزيز الحميد، فإنَّ ما أدخلك الله تعالى فيه تولى إعانتك عليه، وما دخلت فيه بنفسك، وكَّلك إليه: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾ [٨٠:

الإسراء]، فالمدخل الصدق أن تدخل فيه لا بنفسك، والمخرج الصدق أن تخرج لا بنفسك بل بربِّك.

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [١٠١: آل عمران]، فكن حيث أقامك الله تعالى ذو الفضل العظيم، وعلامة الإقامة حصول الاستقامة، وتيسير الأسباب من الكريم الوهاب.



(٣)

(سَوابِقُ الهِمَمِ لا تَخْرِقُ أَسْوارَ الأَقْدَارِ)

هذه الحكمة كالتعليل لما قبلها وتوطئة لما بعدها، يعني أن ما قدَّره الله في الأزل لا تَخْرِقُ أسوارَه المحيطة به ـ فضلاً عن أن تصل إليه ـ سوابقُ الهمم أي لهمم السَّوابق، وهي قوى النفس التي تنفعل عنها الأشياء بإرادة الله تعالى، وتكون للولي كرامة، ولغيره كالساحر والعائن إهانة.

وفيه تشبيه الأقدار بمدينة لها أسوار في الصيانة والحفظ على سبيل المكنية: أي يجب عليك ـ أيها المريد ـ أن تعتقد أن الهمم أسباب عادية لا تأثير لها، وما ينشأ عنها إنّما هو بقضاء الله تعالى وقدره، فيكون عندها لا بها، فإرادتك خلاف ما أراده مولاك لا تجدي نفعاً، ولا تأثيراً لها في الحقيقة، حتى تظن أنها توجب لك رفعاً.



(٤)

(أَرِحْ نَفْسَكَ مِنَ التَّدْبِيرِ فما قامَ بِهِ غيرُكَ عنْكَ لا تَقُم بِهِ لنفسِكَ)

يعني أرح نفسك من تعبِّ التدبير المنافي للعبودية بأن تقول: لو لا فعلت كذا ما كان كذا، فإن الله تعالى دبَّر الأشياء في سابق علمِه، وما قام به غيرك عنك لا تقوم به لنفسك، فإنك عاجز عن القيام به.

وأما التدبير المصحوب بالتفويض للعليم الخبير فلا بأس به؛ لقوله ﷺ: «التدبير[١] نصف المعيشة»[٢]، وللمصنف كتاب سماه: «التنوير في إسقاط التدبير» راجعه أن شئت، فإن هذه المسألة أساس طريق القوم.



---

(١) أي النظر في عواقب الإنفاق نصف المعيشة؛ إذ به يحترز عن الإسراف والتقتير، وكمال العيش شيئان: مدة الأجل وحسن الحال فيها، وهذا لا يعارض قول الصوفية: أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك، ما ذاك إلا لأن الكلام هنا في تدبير صحبه تفويض، وكلامهم فيما لا يصحبه، كما في فيض القدير٣: ٢٨٠.

(٢) قال العراقي في المغني ١: ١١٤٦: « رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس رضي الله عنه، وفيه خلاد بن عيسى جهله العقيلي ووثقه ابن معين»، وقال السيوطي في الجامع الصغير١: ٤١٤: «إسناده ضعيف»، قال عبد القادر الأرناؤوط في هامش شرح الحكم ص١٨: «لكن للحديث طرق وشواهد بمعناه يرتقي بها إلى درجة الحسن لغيره».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال ﷺ: «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم» في المعجم الأوسط٧: ٢٥، وشعب الإيمان٨: ٥٠٣، ومكارم الأخلاق١: ٣٦٤.

(٥)

(اجتهادُكَ فيما ضَمِنَ لكَ وتقصيرُكَ فيما طَلَبَ منكَ دليلٌ على انْطماسِ البصيرةِ منْكَ)

يعني أن اجتهادك ـ أيها المريد ـ في طلب ما ضَمِنَ أي كفل الله لك به من الرزق بنحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [٦: هود]، وتقصيرك أي تفريطك فيما طلب منك من العبادة بنحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [٢١: البقرة]، دليل وبرهان على انطماس أي عمى البصيرة منك، وهي عين في القلب تُدْرَكُ بها الأمور المعنوية كما أن العين الباصرة تُدْرَكُ بها الأمور الحسية.

وفُهِمَ من المصنف أن دليل انطماس البصيرة هو اجتماع الأمرين أعني الاجتهاد في طلب الرزق مع التقصير في العمل، وأخبر عن الأمرين بقوله: «دليل»؛ لأن فعيلاً يستوي فيه المفرد وغيره، وأما إذا اجتهد في طلب الرزق الحلال من غير تقصير في العبادة، فإنه يدخل في حديث: «مَن بات كالاً من طلب الحلال بات مغفوراً له»[١].



---

(١) فعن ابن عباس ﵄، قال ﷺ: «من أمسى كالّاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له» في المعجم الأوسط٧: ٢٨٩، وضعفه العراقي في المغني١: ٥٣٦، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد٤: ٦٣: فيه جماعة لا أعرفهم.

(٦)

(لا يكُنْ تَأَخُّرُ أَمَد العَطاء مَعَ الإلْحاح في الدّعَاءِ موجباً ليأسِك، فهو ضَمِنَ لَكَ الإجابَةَ فيما يختارُهُ لكَ لا فيما تختاره لنَفْسكَ، وفي الوقْتِ الذي يريدُ لا في الوقْت الذي تُريدُ)

أي لا يكن تأخر وقت العطاء المطلوب مع الإلحاح أي المدوامة في الدعاء موجباً ليأسك من إجابة الدعاء، فهو سبحانه ضَمِن لك الإجابة بقوله: ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [٦٠: غافر]، فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك، فإنه أعلم بما يصلح لك منك.

فرُبما طلبت شيئاً كان الأولى منعه عنك، فيكون المنع عين العطاء، كما قال المصنف فيما يأتي: «ربما منعك فأعطاك وربما أعطاك فمنعك».

يشهد ذلك مَنْ تَحَقَّقَ بمقام: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٢١٦: البقرة]، ولذا قال بعضُ العارفين: «ومَنْعُكَ في التحقيق ذا عين إعطائي».

وكذلك ضمن لك الإجابة في الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد، فكن موسويَّ الصبر، فإن الصبر وعدم الاستعجال أولى بالعبيد، ألا ترى أن موسى كان يدعو على فرعون وقومه وهارون يُؤمن على قوله: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [٨٨: يونس] إلى آخر ما قصَّ الله تعالى في كتابه المكنون، وبعد أربعين سنة حصل المدعوُّ به، وقال: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا

وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [٨٩: يونس]، وفي الحديث: «إن الله يحب المُلِحِّين[١] في الدعاء»[٢].

وورد: «أن العبد الصالح إذا دعا الله تعالى، قال جبريل عليه السلام: يا رب عبدك فلان اقض حاجته، فيقول: دعوا عبدي، فإني أحب أن أسمع صوته»[٣].

---

(١) أي الملازمين له جمع ملح، وهو الملازم لسؤال ربه في جميع حالاته، اللائذ بباب كرم ربه في فاقته ومهماته، لا تقطعه المحن عن الرجوع إليه، ولا النعم عن الإقبال عليه؛ لأن دعاء الملح دائم غير منقطع، فهو يسأل ولا يرى إجابة، ثم يسأل ثم يسأل فلا يرى وهكذا فلا يزال يلح ولا يزال رجاؤه يتزايد، وذلك دلالة على صحة قلبه وصدق عبوديته واستقامة وجهته، فقلب الملح معلق دائماً بمشيئته واستعماله اللسان في الدعاء عبادة وانتظار مشيئته للقضاء به عبادة، فهو بين عبادتين سريتين ووجهتين فاضلتين، فلذلك أحبه الله تعالى، وهذا عام خص منه الخواص في مقام الابتلاء، فمقام التسليم لهم فيه أفضل لكونه أدل على قوى أنفسهم ورضاهم بالقضاء، والدعاء في مثل ذلك الموطن فيه من الهلع ما لا يخفى، ينظر: فيض القدير٢: ٢٩٢.

(٢) فعن عائشة رضي الله عنها: قال ﷺ: «إن الله يحب الملحين في الدعاء» في مسند القضاعي٢:١٤٥، وشعب الإيمان٢: ٣٦٤، والدعاء للطبراني١: ٢٨، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل»، كما في التلخيص ٢: ١٩٤.

(٣) فعن أبي أمامة رضي الله عنه، قال ﷺ: «إن الله عز وجل يقول للملائكة: انطلقوا إلى عبدي، فصبوا عليه البلاء صباً، فيأتونه فيصبون عليه البلاء، فيحمد الله، فيرجعون فيقولون: يا ربنا صببنا عليه البلاء صبا كما أمرتنا، فيقول: ارجعوا فإني أحب أن أسمع صوته» في المعجم الكبير٨: ١٦٦، وشعب الإيمان١٢: ٢٤٤، وضعفه العراقي في المغني١: ٢٦٣، والهيثمي في المجمع٢: ٢٦١.

فقم ـ أيها المريد ـ بما أمرك الله به من الدّعاء وسلم له مراده، فرُبَّما أجابك وادخر لك بدل مطلوبك ما تنال به الحسنى وزيادة.



(٧)

(لا يشككنك في الوعد عدم وقوعِ الموعود، وإن تَعَيَّن زمنُه؛ لئلا يكونَ ذلك قَدْحاً في بصيرتِكَ وإخماداً لنور سريرتك)

هذه الحكمة أعمّ مما قبلها، فإن الموعودَ به في تلك خصوص الإجابة، وفي هذه أعمّ؛ لأنه يشمل ما إذا كان الوعد من الله تعالى بإلهام رحماني، بأن ألهمك أنه يحصل لك في الوقت الفلاني فتحٌ، أو يحصل في هذا العام كذا كما يقع لبعض الأولياء، فيخبر بذلك ثم لا يحصل.

فإذا حصل لك ـ أيها المريد ـ مثل ذلك، ثم تأخر الموعود به، فلا تشكّ فيما وعدك الله به، وإن تعيَّن زمنه، وبالأولى إذا لم يتعيَّن لئلا يكون ذلك الشَّكّ قدحاً: أي نقصاً في بصيرتك وإخماداً: أي إطفاءً لنور سريرتك التي هي عين القلب، فهي مرادفة للبصيرة.

وذلك لجواز أن يكون وقوع ذلك الموعود معلقاً على أسباب وشروط لم تحصل، فالعارف مَن تأدب مع ربِّه، ولم يتزلزل عند تأخر ما وعده به.



(٨)

(إذا فتحَ لكَ وِجْهةً من التَّعرُّفِ، فلا تبالِ معها أن قلَّ عملُكَ، فإنه ما فَتَحَها لك إلا وهو يريد أن يتعرَّفَ إليكَ، ألم تعلم أن التَّعَرُّفَ هو مُورِدُهُ عليك، والأعمال أنت مهديها إليه، وأين ما تُهديه إليه مما هو مُورِدُهُ عليكَ)

يعني إذا فتح[١] لك الفتاح ـ أيها المريد ـ وجهةً أي جهةً من جهات التعرف، وتلك الجهة كالأمراض والبلايا والفاقات، فإنّها سببٌ لمعرفة الله تعالى بصفاته كاللطف والقهر وغيرهما.

والمخاطب بذلك المتيقظ دون المرتبك في حبال الغَفلة الذي يسخط عند نزولها، فلا تُبال معها ـ أيها المريد ـ أَنْ قلَّ عملك: أي بقلّة عملك ـ فهمزة أن مفتوحةً منسكبة مع ما بعدها بمصدر مجرور بالباء المقدرة المتعلقة بتبال ـ أي لا تغتمَّ مع تلك الجهة، ولا تهتم بقلّة الأعمال.

فإن الله تعالى يقول في الحديث القدسي:

«إذا ابتليت عبدي المؤمن، فلم يَشْكُنِي إلى عُوّاده، أَنْشَطْتُه من عِقالي،

---

(١) مصطلح الفتح عند الصوفية مصطلح قرآني، قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢]، ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤-١٥].

وأبدلته لحماً خيراً من لحمه[١]، ودماً خيراً من دمه، وليستأنف العمل»[٢]، يعني أنه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه، ولا يحاسب على الأعمال السيئة السالفة.

وورد: أنّ الله تعالى يقول للكرام الكاتبين عند مرض عبده المؤمن: «اكتبوا لعبدي ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»[٣]، فصحّ أنه ما فتحها: أي لك الجهة لك إلا وهو يرد أن يتعرف إليك بواسع فضله عليك.

ولا شَكَّ أنّ هذا أعظم من كثرة الأعمال التي تُطالب بوجود سر الإخلاص فيها، كما أشار إلى ذلك بالاستفهام التقريري بقوله: ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك...الخ.



---

(١) أي الذي أذابه شدة مقاساة المرض، ودماً خيراً من دمه الذي أحرقته الحمى بوهج حرهاً، فإن قدرت له البرء من مرضه أبرأته منه ولا ذنب له بأن أغفر له جميع ذنوبه، حتى يعود كيوم ولدته أمه، كما في رواية، وظاهره أنّ المرَض يكفر حتى الكبائر، كما في فيض القدير٣: ٢٩٤.

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدي المؤمن، ولم يشكني إلى عواده أطلقته من أساري، ثم أبدلته لحما خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، ثم يستأنف العمل» في المستدرك١١: ٥٠٠، وصححه، والسنن الكبير للبيهقي٣: ٥٢٥.

(٣) فعن ابن عمرو ﷺ، قال ﷺ: «ما من أحد من المسلمين يبتلى ببلاء في جسده، إلا أمر الله الحفظة، فقال: اكتبوا لعبدي ما كان يعمل وهو صحيح ما دام مشدوداً في وثاقي» في مصنف ابن أبي شيبة ٢: ٤٤٠، ومسند أبي حنيفة ر٢، والمعجم الكبير١١٣: ٥٤٢ ورجاله رجال الصحيح، كما في مجمع الزوائد، ينظر: هامش الجامع الكبير١٠: ٦١.

(٩)

(تَنوَّعتْ أجناسُ الأعمالِ لتنوُّعِ ارداتِ الأحوالِ)

أي اختلفت أجناس الأعمال الظاهرة لاختلاف الواردات التي هي الأحوال القائمة بالقلب، فإن الواردات ما يَرد على القلب من المعارف والأسرار، والأعمال الظاهرة تابعة لأحوال القلب؛ لما في الحديث: «ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صَلَحت صَلَحَ الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب»(١).

فإذا ورد على القلب العلم بفضائل قيام الليل توجه إليه، وآثره على غيره فتقوم به الجوارح، وكذلك الصدقة والصيام وباقي الأعمال(٢).

---

(١) فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه في صحيح البخاري١: ٢٠.

(٢) ومن كان حاله عظيماً ورجاؤه كبيراً فإنه يجتهد في كل طاعة وعمل، وفي حالة البسط والقبض، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف: ١١٠]، وكذلك كان حال أبي بكر رضي الله عنه حيث طمع في الدخول من جميع أبواب الجنة، لأنه مجتهد في كل الأعمال، قال رضي الله عنه: فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ» أخرجه البخاري رقم ١٧٩٨ ومسلم رقم ١٠٢٧ عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وإذا أصاب السالكَ حالٌ من الكسل، فتَخَفَّفَ من بعض النوافل حتى لا يصل إلى الملل والانتكاس؛ فلا حرج، فذلك من مسايسة الإنسان لنفسه في البدايات، قال ﷺ: «خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا» أخرجه البخاري رقم ٥٥٢٣ ومسلم نحوه رقم ٧٨٢. ويُروى في هذا المعنى حديث لا يصح، حسنه بعض العلماء من جهة المعنى: « رَوِّحُوا عن القلوب ساعة فساعة، فإن القلوب إذا كَلَّتْ عَمِيَتْ ». =



(١٠)

(الأعمالُ صُوَرٌ قائمةٌ وأرواحُها وجودُ سِرِّ الإخلاص فِيهَا)

يعني أنّ أعمال البرّ كصور قائمة أي أَشباح، وأرواحها التي بها حياتها وجود سرّ الإخلاص: أي سرٌّ[1] هو الإخلاص[2] فيها، فمَن عَمِل عَمَلاً

= لكن إذا تكاسل عن الفرائض فلا يجوز أن يخضع لحاله وضعفه، فيجب أن يجبر نفسه عليها. وإذا أصاب السالكَ فُتورٌ فعليه أن يجدد نيته وهمته، بتذكر ما يدفعه إلى العمل، وتذكر حق الله وعظمته، قال ﷺ: «إن لكل عامل شرة، وإن لكل شرة فترة، فإذا رأيتم الرجل يسدد ويقارب فارجوه، وإذا رأيتموه غير ذلك فلا تعدوه» حديث حسن، أخرجه ابن حبان ٣٤٩ والترمذي رقم ٢٤٥٣ عن أبي هريرة ﷺ، وقال حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

والواردات تصنع العبادات، والعبادات تصنع الواردات والأحوال في قلب المسلم، وأثر الصلاة في قلب السالك غير أثر الصيام أو الصدقة أو الجهاد أو التفكر أو الذكر، وإن كانت جميعاً تصنع نوراً وتقوى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

(١) ورد في حديث صححه النووي قوله ﷺ: «الإخلاص سر من أسراري أودعه قلب من أحببت من عبادي» والإخلاص منه اجتهاد العبد، ومنه عطاء الله له، فالمذكور في الحديث ما يكون عطاءً من الله بعد اجتهاد العبد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد: ١٧].

(٢) لا يقبل اللهُ عبادةً بلا إخلاص، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥]، وقال ﷺ: « إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى » وفي رواية: «بالنيات»، أخرجه البخاري رقم ١ و ٥٤، ومسلم رقم ١٩٠٧، عن عمر بن =

بلا إخلاص كان كمن أهدى جارية ميتة للأمير، يبتغي بها الثواب، وهو لا يستحقُّ على ذلك إلا أنواع العقاب.

والمرادُ مطلق الإخلاص الشامل لأنواعه، فإنّه يختلف باختلاف الأشخاص، فإخلاص العُبَّاد سلامةُ أعمالهم من الرِّياء الجلي والخفي، وكلُّ ما فيه حظٌّ للنفس، فلا يعملون العمل إلا لله تعالى طلباً للثواب، وهرباً من العقاب.

وإخلاص المحبين: هو العمل لله تعالى إجلالاً وتعظيماً؛ لأنه تعالى أهل لذلك لا لقصد شيءٍ مما ذكر، كما قالت رابعةُ العَدوية[1]:

كلُّهم يعبدون من خوف نار   ويرون النجاة حظاً جزيلا
أو بأن يسكنوا الجِنانَ فيَحْظُوا   بقصور ويشربوا سلسبيلا
ليس لي بالجِنانِ والنار حَظٌّ   أنا لا أبتغي بحبي بديلا

= الخطاب رضي الله عنه، وقال صلى الله عليه وسلم: « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) رابعة بن إسماعيل العدوية، وكان سفيان وأقرانه يتأدبون معها، وكانت رابعة تصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعةً خفيفة حتى يُسفر الفجر ثم تثب إلى الصلاة، وتقول: يا نفس كم تنامين، وإلى كم لا تقومين، يوشك أن تنامين نومة لا تقومين منها إلا بصرخة، ومن أقوالها: اكتموا الحسنات كما تكتمون سيئاتكم، وأيضا: استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار، وأيضاً: سمعت الثوري يقول اللهم إنا نسألك رضاك، فقالت: أما تستحي أن تسأل رضا من لست عنه براض، (ت١٣٥هـ). ينظر: مرآة الجنان ١: ٢٨١-٢٨٣. النجوم الزاهرة ١: ٣٣٠. وفيات ٢: ٢٨٥-٢٨٨. الأعلام ٣: ٣١.

وأما إخلاصُ المُقَرَّبين، فهو شهودُهم انفراد الحقِّ بتحريكهم وتسكينهم مع التبرؤ من الحول والقوة، فلا يعملون إلا بالله، ولا يرون لأنفسهم عملاً.



(١١)

(ادْفِنْ وجودَكَ في أرضِ الخمولِ فما نَبَتَ مما لم يُدْفَنْ لا يَتِمُّ نَتَاجُه)

أي ادفن ـ أيها المريد ـ نفسك أي شهرتُها في الخمول الذي هو كالأرض للميت في التغطية التامة، بأن لا تتعاطى أسباب الشهرة، فإن الخمول مما يُعين على الإخلاص، بخلاف حبِّ الظهور، فإنّه من جملة القواطع القاصمة للظهور.

فما نبت من الحَبّ مما لم يُدفن في الأرض لا يتم نتاجُه، بل يخرج مصفراً.

وكذلك أنت ـ أيها المريد ـ إذا تعاطيت أسباب الشهرة في بدايتك قَلَّ أن تفلح في نهايتك(١).

ومن ثَمَّ قال رجلٌ لبشر بن الحارث(٢): أوصني، فقال: أَخمل ذكركَ

---

(١) انظر: قضية العزلة والخلطة، ومتى تكون، ومتى يخرج من العزلة، وما أدلة ذلك، وحكم الخلوة والعزلة المرحلية، في كتاب: التزكية تصوف أهل السنة، معاذ حوى، ط٣، صفحة ١٥٠ – ١٥٣ وصفحة ٢٤٨ – ٢٥٣.

(٢) وهو بشر بن الحارث بن علي المروزي البغدادي، أبو نصر، المعروف بالحافي، قال ابن خلكان: أحد رجال الطريقة، كان من كبار الصالحين، وأعيان الأتقياء المتورعين، وإنما لقب بالحافي؛ لأنه جاء إلى إسكاف يطلب منه شسعاً لإحدى نعليه، وكان قد انقطع، فقال له الإسكاف: ما أكثر كلفتكم على الناس! فألقى النعل من يده والأخرى من رجله، =

وأطب مطعمك.

وقال بعضُهم: لا تصلح طريقتنا هذه إلا لأقوام كُنست بأَرواحهم المزابل.

وقال إبراهيم بن أدهم[١]: ما صدَّقَ الله تعالى مَن أحب الشهرة.

ولله در القائل:

عِشْ خامل الذكر بين الناسِ وارضَ	فذاك أسلمُ في الدنيا وفي الدين
مَنْ عاشرَ النَّاسَ لم تسلمْ ديانَتُهُ	ولم يزَلْ بين تحريكِ وتسكينِ



(١٢)

ما نَفَعَ القلبَ مثلُ عُزْلَةٍ يدخلُ بها مَيْدَانَ فكرة

أي ما نفع قلبَ المريد شيءٌ من الأشياء المطهِّرة له من الغفلات مثل عزلة

= وحلف لا يلبس نعلاً بعدها، قال المأمون: لم يبق في هذه الكورة أحد يستحيي منه غير هذا الشيخ بشر بن الحارث، ومن كلامه: عقوبة العالم في الدنيا أن يعمى بصر قلبه، وقال: من طلب الدنيا فليتهيأ للذل، (١٥٠ - ٢٢٧ هـ)، ينظر: وفيات الأعيان١ : ٧٥، والأعلام٢: ٥٤.

(١) وهو إبراهيم بن أَدْهَم بن منصور العِجْلِيّ التميمي البلخي، أبو إسحاق، زاهد مشهور، كان أبوه من أهل الغنى في بلخ، فتفقه ورحل إلى بغداد، وكان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين والحمل والطحن ويشتك مع الغزاة في قتال الروم، وجاءه عبدٌ لأبيه يحمل إليه عشرة آلاف درهم، ويخبره أنّ أباه قد مات في بلخ، وخَلَّف له مالاً عظيماً، فاعتق العبد ووهبه الدرهم، ولم يعبأ بمال أبيه، (ت١٦٢هـ). ينظر: التقريب ص٢٧ والأعلام ١ : ٢٤.

عن الخلق يدخل بها ميدان فكرة: أي تفكر في مصنوعات بارئ الأرض والسماوات(١).

وإضافة ميدان لفكرة من إضافة المشبه به للمشبه: أي فكرة شبيهة بالميدان؛ لتردد القلب فيها كتردد الخيل في الميدان، وفي الحديث: «تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة»(٢)؛ وذلك لأنه يوصل إلى معرفة حقائق الأشياء، وتزداد به معرفة الله تعالى، ويطلع به المتفكر على خفايا آفات النفس، ومكائد الشيطان وغرور الدنيا.

والعزلة التي ينشأ عنها هذا الفكر أحد أركان الطريق الأربعة المجموعة في قول بعضهم:

---

(١) العزلة ليست مقصودة لذاتها، إنما هي لأجل التفكر، والتفكر من العبادات التي أمر بها القرآن وبين عظيم أثرها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، فالتفكر يوصل إلى معرفة حكمة الله وتنزيهه وتعظيمه، والتفكر صفاء للذهن وخروج عن معتاد الحياة وغفلاتها، والمسلم يتفكر في ما يدله على الله، ويعرفه بنبوة رسول الله ﷺ، ويتفكر في الكون، ويتفكر في الاستعداد للموت، ويتفكر لأمته ودعوته.

(٢) أخرجه ابن حبان في «كتاب العظمة» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ ستين سنة بإسناد ضعيف، ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات»، ورواه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ: «ثمانين سنة» وإسناده ضعيف جداً، ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «خير من قيام ليلة»، كما في المغني للعراقي١: ١٧٩٨.

بيتُ الولاية قَسَّمَتْ أركانَهُ ساداتُنا فيه من الأبدالِ
ما بين صمتٍ واعتزالٍ دائمِ والجوعِ والسّهرِ النَّزيهِ الغالي

يوضحها قول الإمام أحمد بن سهل(١): أعداؤك أربعة:

١. الدنيا، وسلاحها الخَلْق، وسجنها العزلة.

٢. والشيطان، وسلاحه الشبع، وسجنه الجوع.

٣. والنفس، وسلاحها النوم، وسجنها السهر.

٤. والهوى، وسلاحه الكلام، وسجنه الصمت(٢).

واعلم أنّ الشَّأن في العزلة أن تكون بالقلب والقالب، بأن يتباعد

---

(١) وهو أحمد بن سهل البلخي، أبو زيد، وقد سبق علماء البلدان في الإسلام كافة إلى استعمال رسم الأرض في كتابه: «صور الأقاليم الإسلامية»، قال الحموي: كان فاضلا قائما بجميع العلوم القديمة والحديثة، يسلك في مصنفاته طريقة الفلاسفة، إلا أنه بأهل الأدب أشبه، ومن مؤلفاته: «أقسام العلوم» و«شرائع الأديان» و«كتاب السياسة الكبير»، (٢٣٥ - ٣٢٢ هـ، ينظر: معجم الأدباء١: ٢٧٤، والأعلام١: ١٣٤.

(٢) ومجاهدة النفس ومخالفتها فيما تهواه من كثرةِ طعام وكلام ونوم واختلاط بالأنام؛ من أهم أبواب المجاهدة للنفس، بعد مجاهدتها في ترك المعاصي والكبائر، ومجاهدة النفس هي الصبر، وقد أمرنا الله بالصبر على أحكامه، مِن أَمْرٍ ونَهْيٍ، وأمرنا بالمجاهدة بأنواعها، قال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج: ٧٨]، ويدخل في ذلك مجاهدة أعداء الأمة من الكافرين والمنافقين، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس، ولا يزال المسلم يجاهد نفسه حتى تستقيم على أمر الله، ولا تنازع ولا تميل إلى سواه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

صاحبها عن الخلق، وقد تكون بالقلب فقط بأن يختلط بجسمه معهم مع تعلق قلبه بالحقّ كما قالت رابعة العدوية في مقام المشاهدة القلبية:

ولقد جعلتُك في الفؤاد محدَّثي وأبحتُ جسمي مَنْ أراد جلوسي
فالجسمُ مني للجليسِ مؤانسٌ وحبيبُ قلبي في الفؤاد أنيسي



(١٣)

كيف يُشرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأكوانِ مُنْطَبِعَةٌ في مرآته؟ أَمْ كيف يرحلُ إلى الله وهو مكَبَّلٌ بشَهواته ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرةَ الله وهو لم يتطهَّر من جَنَابَةِ غَفَلاتِهِ ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائقَ الأسرارِ وهو لم يَتُبْ من هَفَواتِهِ ؟

هذه الحكمة كالتوجيه للحكمة التي قبلها؛ وذلك لأنّ العزلة المصحوبة بالفكرة يتخلّى القلب بها عن الأغيار، وبها يرحل إلى الله تعالى، ويدخل حضرته، ويتحلى بفهم دقائق الأسرار.

وأما القلبُ الذي طُبعت في مرآته صوَرُ المكوَّنات فاشتغل بها، وصار مكبلاً: أي مقيداً بالشهوات، فإنّه لا يَنال الإشراق[1]، ولا يدخل في حضرة

(١) الإشراق مصطلح يستعمله الصوفية، ويعني إشراق النور في قلب السالك، والذي أشارت إليه آيات كقوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

الكريم الخلاق؛ لأنه لم يتطهَّر من غفلاته الشبيهة بالجنابة، فيُمنع منها كما يُمنع الجنب من المسجد الذي هو محل المناجاة والاستجابة.

والاستفهامُ في المواضع الأربعة إنكاريٌّ بمعنى النفي: أي لا يكون إشراق القلب مع انطباع صور الأكوان التي هي كالظلمة في مرآته: أي محل ناظره الذي هو البصيرة؛ لما في ذلك من الجمع بين الضدين، ولا يُمكنه الرحيل إلى الله تعالى بقطع عقبات النفس مع كونه مكبلاً بشهواته للجمع المذكور، ولا يدخل حضرة الله تعالى أي دائرة ولايته المقتضية للطهارة مع كونه لم يتطهر من جنابة غفلاته لذلك الجمع، ولا يرجو أن يَفهم دقائق الأسرار[١] المتوقفة على التَّحرُّز من المعاصي مع كونه لم يتب من هفواته.

لذلك فالمطالب أربعة: إشراقُ القلب والرَّحيلُ إلى الحضرة ودخولها والإطلاع على أسرارها، وكلٌّ وسيلة لما بعده، والموانع أربعة: انطباع صور الأكوان في عين القلب، والتكبل بالشهوات، وعدم التطهير من جنابة

---

(١) الأسرار هي المعارف، وهي ليست سراً، لكن لما كان أكثر الناس في غفلة عنها فهي كالسر عليهم، والله تعالى جعل الإحسان والطاعة سبيلاً للمعرفة ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢]، وجعل الله في الأمة عارفين خبراء به أمرنا بسؤالهم والتعرف على الله منهم ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٥٩]، ويسمي الصوفية هذه المعارف حقائق أخذاً من قوله تعالى: ﴿ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٥]، ومن قول النبي ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لَبِيْد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل» أخرجه البخاري رقم ٣٦٢٨ ومسلم رقم ٢٢٥٦ عن أبي هريرة رضي الله عنه، و(لبيد): هو ابن ربيعة، كان من شعراء الجاهلية، ثم أسلم رضي الله عنه حين وَفَد قومه بنو جعفر إلى رسول الله ﷺ.

الغفلات، وترك التوبة من الهفوات[١].



(١٤)

الكونُ كلُّه ظُلْمةٌ وإنَّما أنارَهُ ظهورُ الحقِّ فيه، فمن رأى الكونَ ولم يشهدُهُ فيه أو عنده أو قَبْلَه أو بَعْدَه فقد أَعْوَزَهُ وجودُ الأنوارِ، وحُجبَتْ عنه شموسُ المعارفِ بسُحُبِ الآثار

أي أن الكون بالنظر إلى ذاته كلُّه ظلمة: أي عدم محض؛ لأنّه لا وجود له بذاته، وإنّما أناره أي أوجده ظهورُ الحقّ تعالى فيه: أي ظهور إيجاد وتعريف، لا ظهور حلول وتكييف، بمعنى أنّه تجلى عليه بذاته، وقال له: كن فكان، وهو قادر على إعدامه في الحال والاستقبال، فليس ثمَّ إلا مبدع الأكوان.

ثم إن من النَّاس مَنْ حجبه الكونُ أي المكونات عن المكون تعالى، فلم يشهده سبحانه: أي فلم يشاهد تأثيره فيه، وهو الذي قد أعوزه: أي فاته وجود الأنوار، فصار محتاجاً لها لفقدها عنده، وحجبت أي غابت عنه شموس المعارف: أي المعارف التي هي كالشموس في إظهار الأشياء والكشف عن حقائقها.

---

(١) هذه الحكم الأربعة تنبيه إلى الاعتناء بأمور أربعة، فحتى تخرج صور الأكوان من القلب لا بد من الذكر، وحتى يخرج من تكبيل الشهوات فلا بد من المجاهدة، وحتى يتطهر من غفلاته فلا بد من الحضور في الذكر، وحتى يتوب من هفواته فلا بد من مراقبة الخواطر وإصلاحها.

فإضافة شموس إلى المعارف من إضافة المشبه به للمشبه: كإضافة سحب إلى الآثار أي الآثار ـ جمع أثر ـ بمعنى المكوَّنات الشبيهة بالسُّحُب بضمتين جمع سحاب، قد منعتْ عنه المعارف الشبيهة بالشموس الكاشفة عنه الحقائق الموصلة إلى حضرة القدوس.

ومن الناس مَن لم يحجبه الكون عن المكوِّن سبحانه وتعالى، بل شهده(١) فيه بتأثيره وعنده بحفظه وتدبيره، وهؤلاء الذين يشهدون الأثر والمؤثر معاً.

ومنهم: مَن شهده قبله وهم الذين يستدلون بالمؤثر على الأثر.

ومنهم من شهده بعده وهم الذين يستدلون بالأثر على المؤثِّر.

وهذه الظروف المذكورة في كلام المصنف ليست زمانية ولا مكانية، فإن الظروف من جملة الأكوان، بل هي اصطلاحات ليس المراد منها ظاهرها عند ذوي العرفان، وإنما تدرك بالذوق لا بالتعبير، فقف عند حدك وتمسك بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [١١: الشورى].



(١) شهود الله معنوي علمي، كقولك: أشهد أن لا إله إلا الله، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]، وبين سبحانه أن العين تصير ذاكرة مع أن الذكر يكون باللسان والقلب، وهو إشارة إلى أن الذاكر يصير إذا رأى شيئاً تذكر الله، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [الكهف: ١٠١].

(١٥)

مما يَدُلُّك على وُجُودِ قَهْرِه سبحانه أن حَجَبَك عنه بما ليس بموجودٍ معه

أي ما يدلك ـ أيها المريد ـ على أنه سبحانه القاهر فوق عباده أن حجبك ـ بفتح همزة أن المصدرية المنسكبة مع ما بعدها بمصدر ـ أي حجبك عنه تعالى بالكون الذي ليس بموجود معه؛ لأنك قد علمت أنّه ظلمة أي عدم محض من حيث ذاته.

فالوجود الحقيقي إنما هو لله تعالى وما سواه لا يوصف عند العارفين بوجود ولا فقد؛ إذ لا يوجد معه غيره لثبوت أحدِيَّتِهِ، ولا يفقد إلا ما وجد.

وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي[١]: إنا لننظر إلى الله تعالى بنظر الإيمان والإيقان، فيغنينا ذلك عن الدليل والبرهان، ونستدل به على الخلق، فإنّه ليس

(١) وهو علي بن عبد الله بن عبد الشاذلي المغربي، أبو الحسن، رأس الطائفة الشاذلية، سكن «شاذلة» قرب تونس، فنسب إليها، وكان ضريراً، قال اليافعي: الشيخ الكبير العارف بالله الخبير الفقيه الإمام، علم العلماء بالله الأعلام معدن الأسرار وبحر العلوم الجمة، المودع درر المعار، وجواهر الحكمة الممنوع رفيع المقامات والأحوال السنية، المشهور بعظيم الكرامات والمناقب العلية، المعترف له بكثر العلوم، المشهود له بالقطبية جامع الفضائل والمفاخر والمحاسن، وعلوم الشريعة والحقيقة الظواهر والبواطن، النبي نافت علومه على مائة علم وعشرة، من مؤلفاته: «حزب الشاذلي»، و«الأمين»، و«نزهة القلوب وبغية المطلوب»، و«السر الجليل في خواص حسبنا الله ونعم الوكيل»، (٥٩١ – ٦٥٦ هـ). ينظر: مرآة الجنان٤: ١٠٧، والأعلام٤: ٣٠٥.

في الوجود إلا الواحد الحق، فلا نراهم، وإن كان ولا بُدّ فنراهم كالهباء في الهواء، إن فتشتهم لم تجدهم شيئاً.

وقال سيدي محي الدين بن العربي[1]: مَن شهد الخَلْق لا فِعْل لهم، فقد فاز، ومَن شهدهم لا حياة لهم فقد حاز، ومَن شهدهم عين العدم، فقد وصل، ومما قيل في هذا المعنى:

من أبصرَ الخَلْق كالسّراب فقد ترَقَّى عن الحجابِ
إلى وجود يراه رَتْقَاً بلا ابتعادٍ ولا اقترابِ
ولم يشاهدْ به سِوَاه هناك يُهدى إلى الصَّوابِ

فارفع ـ أيها المريد ـ عنك هذا الحجاب، واجعل تعلُّقك بربِّ الأرباب، فإن كلَّ شيء هالك إلا وجهه، ولا يضمن لك الوصول إلى الله تعالى إلا هذه الوجهة.



(١) وهو محمد بن علي بن محمد ابن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي المالكي الصوفي، أبو بكر، محيي الدين، المعروف بابن عربي، من مؤلفاته: «الفتوحات المكية في معرفة أسرار المالكية والملكية»، و«جامع الأحكام في معرفة الحلال والحرام»، و«فصوص الحكم»، قال اليافعي عن الطعن في ابن العربي: إن أعظم ما يطعن الطاعنون فيه بسبب كتابه الموسوم بـ«فصوص الحكم»: وبلغني أن الإمام العلامة ابن الزملكاني شرح كتابه المذكور، ووجهه توجيهاً نفى عنه ما يظن من المحظور، ويخشى من الوقوع في المحذور، (٥٦٠-٦٣٨هـ). ينظر: مرآة الجنان ٤: ١٠٠-١٠١. النجوم الزاهرة ٦: ٣٣٩-٣٤٠. الكشف ٢: ١٢٣٨، ٥٣٣.

(١٦)

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أن يَحْجِبَهُ شيءٌ؟ وهو الذي أظهر كلَّ شيء.

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أن يَحْجِبَهُ شيءٌ؟ وهو الذي ظهر بكل شيء.

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أن يَحْجِبَهُ شيءٌ؟ وهو الذي ظهر في كلِّ شيء.

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أن يَحْجِبَهُ شيءٌ؟ وهو الذي ظهر لكلِّ شيء.

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أن يَحْجِبَهُ شيءٌ؟ وهو الظاهرُ قبل وجود كل شيء.

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أن يَحْجِبَهُ شيءٌ؟ وهو أظْهَرُ من كل شيء.

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أن يَحْجِبَهُ شيءٌ؟ وهو الواحد الذي ليس معه شيء.

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أن يَحْجِبَهُ شيءٌ؟ وهو أقرب إليك من كل شيء.

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أن يَحْجِبَهُ شيءٌ؟ ولولاه ما كان وجودُ كل شيء.

يا عجباً كيف يَظْهَرُ الوجودُ في العَدَم؟ أم كيف يثبت الحادثُ مع مَنْ له وصْفُ القِدَم ؟

بَيَّن المصنِّف في هذه الحكمة الأدلة التي تدلُّ على أنّه سبحانه لا يحتجب بالأكوان، وأتى بها على وجه استبعاد أن يتصور ذلك في الأذهان فقال:

كَيْفَ يُتَصَوَّرُ أن يَحْجِبَهُ شيءٌ؟ وهو الذي أظهر كل شيء، حيث إنّه هو الذي أوجده بعد العدم، وما كان وجوده متوقِّفاً عليه لا يصحُّ أن يحجبَه.

وقوله: ظهر بكل شيء: أي من حيث إن كلَّ شيءٍ يدلُّ عليه، فإنّ الأثر

يدلُّ على المؤثر.

وفي كلِّ شيء له آية تدلُّ على أنه الواحد، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [٥٣: فصلت].

وقولُه: ظهر في كل شيء: أي من حيث إن الأشياء كلَّها مجالي ومظاهر لمعاني أسمائه، فيظهر في أهل العِزّة معنى كونه مُعزّاً، وفي أهل الذِّلة معنى كونه مُذِلاً وهكذا . . .

وقولُه: ظهر لكلِّ شيء: أي تجلى لكلِّ شيء، حتى عرفه وسبَّحه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ ﴾ [٤٤: الإسراء].

وقولُه: وهو الظاهر قبل وجود كلِّ شيء: أي فهو الذي وجوده أزليٌّ وأبديٌّ، فوجودُه ذاتي، والذاتي أقوى من العَرَضي، فلا يصحُّ أن يكون حاجباً له.

وقولُه: وهو أظهر من كلِّ شيءٍ: أي لأنّ الظُّهورَ المطلقَ أَقوى من المقيَّد، وإنّما لم يُدْرك للعقول مع شدّة ظهوره؛ لأنّ شدّةَ الظُّهور لا يُطيقها الضُّعفاء كالخَفَّاش يُبصر بالليل دون النَّهار لضعف بصره، لا لخفاء النهار على حدِّ ما قيل:

ما ضرَّ شمسَ الضحى في الأُفْقِ طالعةً   أنْ لا يرى ضوءَها مَنْ ليس ذا بصر

وقولُه: وهو الواحدُ الذي ليس معه شيء: أي لأنّ كلَّ ما سواه في الحقيقة عدمٌ محضٌ كما تقدَّم.

وقد قام البُرهان على وحدانيته تعالى بقوله سبحانه: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ [٢٢: الأنبياء].

وقولُه: أقرب إليك من كل شيء: أي بعلمه وإحاطته وتدبيره، كما قال تعالى في كتابه المجيد: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [١٦: ق].

وقولُه: ولولاه ما كان وجود كل شيء، هو بمعنى قوله: أولاً وهو الذي أظهر كلَّ شيء، ولكون المقصود المبالغة في نفي الحجاب لم يضر هذا التكرار؛ لأن المحلَّ محلُّ إطناب.

ثم قال: يا عجبا كيف يَظْهَرُ الوجودُ في العَدَم: أي يجتمع معه، وهما ضدان، أم كيف يثبت الحادثُ مع مَنْ له وصْفُ القِدَم؟ حتى يكون حجاباً للعظيم المنان.

قال ابنُ عَبَّاد[١]: وهذا الفصل من قولِه: الكون كلُّه ظلمةٌ إلى هنا أبدع فيه المؤلف غاية الإبداع، وأتى فيه بما تقرُّ به الأعين وتلذ به الأسماع، فإنه ذكر

---

(١) وهو محمد بن إبراهيم بن عبد اللهَّ ابن عباد النفزي الرندي، الشهير بابن عباد، الفقيه الصوفي الزاهد الولي العارف باللهَّ، له كلام عجيب في التصوف وصنف فيه، وله فيه قلم انفرد به وسلم له فيه بسببه ألف «شرح حكم ابن عطاء اللهَّ» في سفر، ومن كلامه: الاستئناس بالناس من علامة الافلاس، وفتح باب الأنس باللهَّ تعالى الاستيحاش من الناس، ومن لازم الكون وبقي معه وقصر عليه همته لم تفتح له طريق الغيوب الملكوتية، ولا خلص له سير إلى قضاء مشاهد الوحدانية، فهو مسجون بمحيطاته محصور في هيكل ذاته، ٧٣٣ـ ٧٩٢، ينظر: نيل الابتهاج بتطرير الديباج ١: ٤٧٣، ومقدمة شرح الحكم لابن عباد ص٣١.

جميع متعلِّقات الظُّهور، وأبطل حجابية كلّ ظلام ونور، وأراك فيه الحقَّ رؤية عيان وبرهان، ورفعك من مقام الإيمان إلى أعلى مراتب الإحسان، كلُّ ذلك في أوجز لفظ، وأفصح عبارة، وأتمّ تصريح وألطف إشارة، فلو لم يكن في هذا الكتاب إلا هذا الفصل لكان كافياً شافياً، فجزاه الله عنا خيراً.



(١٧)

(ما تَرَكَ من الجهل شيئاً مَنْ أراد أن يَحْدُثَ في الوقت غيرُ ما أظْهَرَهُ اللهُ تعالى فيه)

يعني أن من حسن الأدب أن يكون المريدُ راضياً بما أقامه الله فيه، كما قال بعض العارفين: لي منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حال، فكرهته ولا نقلني إلى غيره، فسخطته، فإنْ سخط المريدُ الحالة التي يكون عليها وتَشَوَّفَ إلى الانتقال عنها بنفسه، وأراد أن يُحدِّث غير ما أظهره الله تعالى، فقد بلغ غاية الجهل بربِّه، وأساء الأدب في حضرته[1].

---

(١) وليس معنى الحكمة أن نترك أحكام الشريعة في التعامل مع الظروف والأحوال التي يقيمنا الله فيها، ولا أن نركن إلى الكسل والمرض والبلاء، فقد أمرنا الله باتخاذ الأسباب في العبادة والرزق وغيره، ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وحذرنا من تضييع نعمة الأوقات والصحة « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس؛ الصحة والفراغ » أخرجه البخاري رقم ٦٠٤٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما. و(مغبون): أي مخدوع، وروي في معناه حديث فيه ضعف أن من استوى يوماه فهو مغبون.

(١٨)

(إحالتُك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس)

أي إحالتك ـ أيها المريد ـ الأعمال الصَّالحة على وجود الفراغ من أشغال الدنيا تُعَدُّ من رعونات النفس: أي حماقتها؛ لما في ذلك من إيثار الدُّنيا على الآخرة، وأشغال الدنيا لا تنقضي.

فما قضى أحدٌ منها لُبانته ... ولا انتهى أرب إلا إلى أرَب

وقال آخر:

نروح ونغدو لحاجاتنا ... وحاجات مَن عاش لا تَنقضي

وقد قالوا: الوقتُ كالسَّيف إن لم تقطعه قطعك.

وفي الحديث: «ما من يوم إلا وهو ينادي: يا ابن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فاغتنم مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة»(١) (٢).

---

(١) ذكره ابنُ رجب في «لطائف المعارف» موقوفاً على بكر المزني بلفظ: «ما من يوم أخرجه الله إلى أهل الدنيا إلا يُنادي، ابن آدم اغتنمني لعلّه لا يوم لك بعدي، ولا ليلة إلا تنادي، ابن آدم اغتنمني لعلّه لا ليلة لك بعدي»، كما في هامش شرح الحكم ص٣٢.

(٢) وفي هذه الحكمة نفي لما يتوهم من الحكمة السابقة من أن الإنسان لا يحدث عملاً لا خيراً ولا شراً، فبين أن الحكم االشرعي يطالبك بإحداث أعمال الخير والاجتهاد فيها، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» أخرجه البخاري ٤٦٦٦ ومسلم ٢٦٤٧، وقال ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، =



(١٩)

(لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها، فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج)

أي لا تطلب ـ أيها المريد ـ من الله تعالى أن يخرجك من حالة موافقة للشَّرع دنيويةً أو دينيةً؛ لتوهمك أن غيرَها أرقى منها؛ لأنه تخيير على مولاك، ولا خِيَرَةَ لك في ذاك.

فلو أرادك: أي جعلك من أهل إرادته وخاصته لاستعملك استعمالاً محبوباً عنده من غير إخراج من الحالة التي أنت عليها.

وأما لو كانت الحالة غير موافقة للشرع، فإنه يجب عليك المبادرة وطلب الإخراج منها، والانتقال إلى غيرها، كما قال بعضُ الأكابر:

أطِعْ عظيمَ المِنّة[١] في عمل موافقٍ للسُّنة
فهو مقامك الذي يليق بك فلا تَرُم خِلافَه بشهوتك

= ولا تعجز، وإن أصابك شيء؛ فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان» أخرجه مسلم رقم ٢٦٦٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه، ويريد الشيخ من الحكمة: أن تبذل جهدك في الدخول على أعمال الخير، ولا تنتظر تغير حالك أو وضعك أو أوقاتك أو أعمالك أو بيتك أو زوال مشكلاتك.

(١) في بعض النسخ: «فإن أقامك عظيم المنة»، وما ذكر أصح وزناً.

لو شاء ربنا العظيم المالك ومن له التصريف في الممالك
لكنتَ في المطلوب من غير طلب فارض بحكم الله والزمِ الأدب
وإن أقامك هواءُ الطبع في عمل مخالف للشرع
فبادر الخروج لا تماطل واقطع بسيف العزم كل حائل



(٢٠)

(ما أرادت همّةُ سالك أن تقف عندما كُشِفَ لها إلا ونادته هواتف الحقيقة: الذي تَطْلُبُ أمامَك، ولا تبرَّجَتْ له ظواهر المكونات إلا ونادتُه حقائقُها: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢])

أي ما قصد سالك أي سائر إلى الله تعالى أن يقف بهمَّتِه عندما كُشِف لها من الأنوار والأسرار في أثناء السِّير ظناً منه أنّه وصل إلى النِّهاية في المعرفة إلا ونادته هواتف الحقيقة جمع هاتف، وهو ما يُسمع صوته ولا يُرى شخصه: أي قالت له بلسان الحال: الذي تَطْلُبُ أمامك فلا تقف.

وما ألطف قول أبي الحسن التُّسْتُري[١] في هذا المعنى:

---

(١) وهو سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله بن رفيع التُّسْتَري الصوفي، والتُّسْتَري: بضم التاء المثناة من فوقها، وسكون السين المهملة وفتح التاء الثانية، وبعدها راء، نسبة إلى تُسْتَر، وهي بلدة من كُوَر الأهواز من خوزستان، (ت٢٨٣هـ). ينظر: وفيات ٢: ٤٢٩-٤٣٠. مرآة الجنان ٢: ٢٠٠-٢٠١.

ولا تلتفت في السَّير غيراً فكل ما   سوى الله غيرٌ فاتخذ ذكرَه حصناً
وكلُّ مقام لا تقم فيه إنه   حجابٌ فجُدَّ السيرّ واستنجد
ومهما ترى كل المراتب تجتلى   عليك فَحُلْ عنها فعن مثلها حُلْنا
وقل ليس لي في غير ذاتك مطلب   فلا صورةٌ تُجلى ولا طَرفةٌ تُجنى

وقال سلطان العاشقين ابن الفارض:

قال لي حُسْنُ كل شيء تجلى   بي تملّى فقلتُ: قصْدي وَراكا
لي حبيبٌ أراك فيه مُعَنَّى   غُرَّ غيري وفيه مَعْنىً أراكا
وَحَّدَ القلبُ حُبَّه فالْتِفاتي   عنك شِرْكٌ ولا أرى الإشْراكا

وقوله: ولا تبرجت: أي أظهرت له زينتها ظواهر المكونات التي هي كالعروس في تبرُّجها، إلا ونادته حقائقها: أي بواطنها بلسان الحال، إنما نحن فتنة: أي ابتلاء واختبار، فلا تكفر: أي فلا تفتتن بنا، ولا تقف عندنا، فتحجب بنا عن معرفة الله تعالى التي لا تتناهى في دار البقاء الأبدية، فضلاً عن هذه الدار الدنية، وهو كفر بحقِّ المنعم جل شأنه.

وبالجملة فالوقوف بالهمّة[1] على شيء دون الحقّ خسران، والاشتغال

---

(١) الهمة في العمل: الاجتهاد فيه، والهمة في القلب: نيته العالية وتوجهه نحو الهدف، وهي المقصودة هنا، وهدف المؤمن إرضاء الله قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف: ٢٨] وقال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وأمرنا النبي ﷺ أن نتوجه نحو الهدف ونجتهد إليه قدر الإمكان فقال: « سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا» أخرجه البخاري ٦٤٦٣ ونحوه مسلم ٢٨١٨، وقوله: شيء من =

بطلب ما يقرب إليه كرامة من الله تعلى ورضوان، فجُدَّ في الطَّلب والتزم حسن الأدب.



(٢١)

(طلبُك منه اتهامٌ له.

وطلبُك له غيبةٌ منك عنه.

وطلبُك لغيره لقلّة حيائك منه.

وطلبُك من غيره؛ لوجود بعدك عنه)

أي طلبك منه تعالى حوائجك معتمداً على الطَّلب، مُعتقداً أنّه لولاه لما حَصَل مطلوبك اتهامٌ له تعالى بأنه لا يَرزقُك إلا بالطلب؛ إذ لو وَثِقت به في إيصال منافعك إليك من غير سؤال لما طلبت.

= الدلجة دعوة إلى التبكير والقيام إلى الطاعة، وقال تعالى منبهاً إلى همة العمل والقلب: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح: ٧-٨]، ولا يكون صادقاً من ادعى همة القلب وترك العمل، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠]، والكسل في العمل إنما يأتي من نسيان الهدف، وقد أشار إليه النبي ﷺ في حديث حسنه العلماء: «إن لك عامل شِرَّة [أي نشاط وإقبال] وإن لك شرة فترة [أي فتور وتكاسل وتقصير]، فإذا رأيتم الرجل يسدد ويقارب فارجوه، وإذا رأيتموه غير ذلك فلا تعدوه» أخرجه الترمذي ٢٤٥٣ قريباً من هذا اللفظ، وقال:هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ.

وأمّا إذا كان الطَّلب على وجهِ التَّعبد امتثالاً؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ [٦٠: غافر]، فلا يكون معلولاً، وبهذا يجمع بين طلب الدُّعاء والنهي عنه(١).

وكذلك طلبُك له تعالى بأن تَطْلُب قُرْبَك منه، والوصول إليه بعملِك غيبةً منك عنه؛ إذ الحاضر لا يُطْلَبُ، وهو تعالى أقرب إليك من حبل الوريد.

وكذلك طلبُك لغيره من الأعراض الدنيوية أو المراتب الأخروية؛ لقلّة حيائك منه؛ إذ لو استحييت منه لم تؤثر عليه سواه.

---

(١) نبينا محمد ﷺ دعا يوم بدر «اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ» أخرجه مسلم ١٧٦٣، عن عمر ابن الخطاب ﷺ، وألح في الدعاء، على الرغم من أنه كان موعوداً بالنصر، فقد قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٧]، وقد فاتت طائفة الغنيمة، فلم يبق إلا النصر، فكان دعاء النبي ﷺ تعبداً، لا شكاً ولا طلباً، فهو موقن بأن النصر قادم، ووعد الله لا يتخلف.

ونبي الله زكريا عليه السلام طلب الولد عبودية فقال: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨]، فلما أعطي الولد قال: ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ ﴾ [آل عمران: ٤٠]، فلم يكن التفاته إلى الإجابة، وإنما التفاته أنه يعبد الله ويرجوه بدعائه.

والله تعالى علمنا أن انشغالنا به عن أنفسنا وحوائجنا سبب في قضاء الحوائج من غير دعاء قال تعالى في الحديث القدسي: « من شغله قراءة القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» أخرجه الترمذي رقم ٢٩٢٦ عن أبي سعيد وقال: حسن غريب، وشرط ذلك أن يبلغ حد الانشغال والاستيلاء على الفكر، لا مجر القراءة والذكر باللسان.

وكذلك طلبُك من غيره تعالى غافلاً في حال الطَّلب عن مولاك، إنّما يكون لوجود بعدك عنه؛ إذ لو كان قريباً منك، لكان غيره بعيداً عنك(١).

---

(١) لذلك فقد كان من أدب الصالحين أنهم يرون أن الحاجة والبلاء مُذَكِّراتٌ بالله، توجب عليك الرجوعَ إلى الله واللجوء إليه وذكره ودعاءه، فكان من أدبهم أن يتذكروا صفات الله، فيدعوا بأسماء الله بما يناسب حاجاتهم، كما علمنا القرآن الكريم، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فإذا سألتَ اللهَ الرزقَ؛ قلت: ارزقني يا رزاق، يا معطي، يا كريم، يا مغني، ولا تقول: يا مانع ارزقني، وتقول مثلاً: اللهم ابطش بأعدائك وأرنا فيهم بأسك، يا قوي يا منتقم يا شديد البأس يا جبار، ولا تقول مع هذا الدعاء: يا رحيم يا عفو يا غفور، وهذا من أدب الأنبياء والمؤمنين فقد ذكر الله لنا أمثلة من أدعيتهم:

قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فالعمل يتناسب معه طلب القبول واستشعار علم الله به.

وقال سبحانه ذاكراً دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وطلب إرسال الرسل بهذه المهمات؛ متوافق مع عزة الله وحقه في أن يحكم عباده ومتوافق مع حكمة الله في خلق الخلق وتشريع الشرائع.

وقال عز وجل معلماً لنا دعاء المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨]، وطلب الهبة يتناسب معه ذكر اسم الوهاب.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥]، والاستعانة على ظالم يتناسب معه ذكر الولي النصير.

وهكذا في الآيات الآتية: ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [المائدة: ١١٤]، وقوله =

فالطلب بأوجهه الأربعة معلولٌ سواء كان متعلِّقاً بالحق أو الخلق، إلا ما كان على وجه التَّعبد والتَّأدب واتباع الأمر وإظهار الفاقة.



(٢٢)

(ما من نَفَسٍ تُبديه إلا وله قدرٌ فيك يُمضيه)

النَّفَس ـ بفتح الفاء ـ جزءٌ من الهواء يخرج من باطن البدن في جزء من الزَّمن، والمعنى ليس من نَفَس من أنفاسك تُبديه: أي تُظهره بقدرة الله تعالى إلا وله تعالى فيك قَدَر ـ بفتح الدال المهملة ـ: أي أمر مُقَدَّر ناشئٌ عن قدرتِهِ وإرادته.

يمضيه: أي ينفذُه كائناً ما كان فأنت رهن القضاء والقدر في كلِّ نفس، وفي كلِّ طرفةِ عين، فكن عبداً لله تعالى في كلِّ شيءٍ عطاءً ومنعاً وعِزّاً وذِلاً

= تعالى: ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، وقال عز وجل: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠]، وغير ذلك في القرآن كثير.

وقبضاً وبسطاً وفقداً ووجداً إلى غير ذلك من مختلفات الآثار، وتنقلات الأطوار، فإن الكاملين من أهل الله تعالى يُراعون الحقُّ في كلِّ نفس حتى يكونوا أبداً بالموافقة مع الله تعالى[١].

وهذا مقامٌ شريفٌ لا يُوفي به إلا أهلُ العنايات، ومَن غَفِل في حسابه خَسِر في اكتسابه، وقال بعض العارفين: مَن أدرك في نفسه التَّغيير والتَّبديل في كلِّ نفس، فهو العالم بقوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٍ ﴾ [٢٩: الرحمن] وما ألطف قول بعضهم:

نفذت مقاديرُ الإله وحُكْمُهُ فأَرحْ فؤادَكَ من لعلَّ ومن لوِ



(٢٣)

(لا تترقب فراغ الأغيار، فإن ذلك يقطعك عن وجودِ المراقبةِ له فيما هو مقيمُك فيه)

(١) ليس معنى الحكمة التثبيط عن العمل والاتكال على القدر، وإنما التنبيه إلى ما يجري من القضاء عليك من غير فعلك، أن تسلم لله فيه، وأن لا تغفل أنه بفعل الله وإرادته، وأن لا تخاف من الخلق فإنهم لا يستطيعون التأثير والضر إلا ما أراده الله، وأن لا تَرْكَنْ إلى الخلق في الخير فإنه لا يمضي إلا أذا أراده الله وخَلَقَه، قال ﷺ: « وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢٦٦٩ والترمذي رقم ٢٥١٦، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

أي لا تنتظر ـ أيها المريد ـ انتهاء الأغيار: أي الشَّواغل التي منها ما أقامك فيه الحقّ، بل راقبه فيما تترقب فراغه، فإن تأميلك للوقت الثّاني يَمنعك من القيام بحقِّ الوقت الذي أنت فيه، والفقير الصَّادق يكون في كلِّ وقت بحسبه(١).

وسُئِل بعضُ العارفين متى يستريح الفقير؟ فقال: إذا لم يَرَ وقتاً غير الوقت الذي هو فيه.

(١) والحكمة حث على التحقق بالمراقبة، وهي الانتباه إلى مراقبة الله لك، وهي مقام الإحسان، فلو لم تفعل شيئاً إلا أن تراقب فقد ارتقيت إلى مقام الإحسان فيما أنت فيه من عمل ودنيا وعلم وعبادة، وموجِبات المراقبة: إيمانك بأن الله سميع بصير عليم خبير رقيب قريب، والله نبهنا في آياته إلى ما يوجب المراقبة فقال: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق: ١٤] وقال: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩]، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥]، ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، وقال ﷺ: « اتق الله حيثما كنت » حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٢١٣٩٢ والترمذي رقم ١٩٨٧، عن أبي ذر رضي الله عنه، ومن كان الله مذكوراً في قلبه كان محلَّ رعاية الله وعنايته قال ﷺ: « احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك » أخرجه الترمذي رقم ٢٥١٦، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: حسن صحيح، وحِفْظُك لله دوامُ ذِكْرِه، ومن اشتدت مراقبته عَظُمَ أدبه وزاد ورعه واستعظم الذنوب، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا، هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ» أخرجه البخاري رقم ٦٤٩٢ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، والموبقات: المهلكات.

وقال بعضُ المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ ﴾ [٣٥: الأنبياء]: أي نختبركم بالشدّة والرَّخاء والصِّحَّة والسُّقم، والغِنى والفقر.

وقيل: بما تحبون، وما تكرهون؛ لننظر شكركم فيما تحبُّون وصبرُكم فيما تكرهون.



(٢٤)

(لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمتَ في هذه الدَّار، فإنّها ما أَبرزت إلا ما هو مستحقٌّ وصفها وواجبٌ نعتِها)

أي لا تَعُدَّ وقوع الأكدار أمراً غريباً مدّة كونك في هذه الدَّار الدنيوية، فإنها ما أبرزت: أي أظهرت إلا ما هو مستحقٌّ وصفها: أي وصفها المستحقّ لها، وواجبُ نعتها: أي نعتها الواجب أي اللازم لها، فمن ضرورياتها وجود المكاره فيها مع الانهماك عليها(١)، كما قال بعضُ واصفيها:

طُبِعَتْ على كدرٍ وأنت تريدها صَفواً من الأقذاء والأقذار
ومكلِّفُ الأيام ضدّ طِباعِها مُتَطَلِّبٌ في الماءِ جَذوةَ نـار

---

(١) بين الله تعالى أن الدنيا دار غرور تخدع أهلها، ومتاع زائل، وكَمَثَلِ غَيثٍ أنبت الخضرة والثمار ثم زالت بهجتها واصفرت، وبين النبي ﷺ أن الدنيا هينة لا تسوى جناح بعوضة وأنها دون سَخْلَة ميتة منتنة، فالدنيا لا تصلح هدفاً، ولا مستقراً، إنما هي وسيلة واختبار.

ومن كلام جعفر الصادق[1]: مَن طلب ما لم يخلق أتعب نفسه، ولم يُرزق، قيل له: وما ذاك؟ قال: الراحة في الدنيا.

وأخذ بعضهم هذا المعنى فقال:

تَطلبُ الرَّاحةَ في دارِ العَنا   خاب مَن يَطْلُبُ شيئاً لا يكون

وقال الصَّفي الحليّ[2]:

قال العذول لِمَ اعتزلْتَ عن الورى   وأقمتَ نفسَك في المقام الأوْهَنِ
ناديتُ طالبَ راحةٍ فأجابني   أَتعبتُها بطِلابِ ما لم يُمْكنِ

وقال آخر:

ومن رام في الدنيا حياةً سليمةً   من الهمِّ والأكدار رام مُحالا

فينبغي للمريد أن يُوطن نفسَه على المحن، فإنّه لا يتحرَّك من قلبه عند نزولها به ما سكن، على حدِّ ما قيل:

يُمثِّل ذو اللُّبِ في لُبِّه   شدائدَه قبل أن تَنْزلا

---

(١) وهو جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولقب بالصادق لصدقه في مقالته، (٨٠ـ ١٤٨هـ). ينظر: وفيات ١: ٣٢٧-٣٢٨ وروضة المناظر ص١٣٧، والنجوم الزاهرة ٢: ١٠.

(٢) وهو عبد العزيز بن سرايا بن علي السنبسي الطائي، المعروف بالصفي الحلي، له: «ديوان شعر»، و«العاطل الحالي»، و«معجم للأغلاط الغوية»، و«صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء»، (٦٧٧ - ٧٥٠ هـ)، ينظر: الأعلام ٤: ١٨.

فإن نزلَتْ بغتةً لم يُرَعْ   لِما كان في نَفسِهِ مَثَّلا
رأى الأمر يُفضي إلى آخِرٍ   فصيَّر آخِرَه أوّلا
وذو الجهل يأمن أيامَه   ويَنسى مَصارِعَ مَن قد خلا
فإن دَهَمَته صُروفُ الزَّمان   ببعض مصائبِهِ أعْوَلا
ولو قدَّم الحَزْمَ في نفسه   لعلَّمه الصبرَ عند البَلا



(٢٥)

(ما توقَّف مطلبٌ أنت طالبُه بربِّك، ولا تيسَّر مطلبٌ أنت طالبُه بنفسك)

أي ما تعسَّر مطلبٌ من مطالب الدُّنيا والآخرة أنت طالبه بربك: أي بالاعتماد عليه والتَّوسل إليه، فمتى أنزلت حوائجك به، فقد تمسكت بأَقوى سبب، وفزت بقضائها من أفضاله بغير تعب: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ [٣: الطلاق].

ومعنى قوله: ولا تيسَّر مطلبٌ أنت طالبه بنفسك أنك لو اعتمدت ـ أيها المريد ـ على حولك وقوتك تعسَّرت عليك المطالب، ولم تتحصَّل على بغيتك[١].

(١) لذلك علم النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم أن لا يعتمدوا على قدراتهم ولا يثقوا بأنفسهم، بل يعتمدون على الله ويثقون بفضله ويستمدون من قدرته وتوفيقه، روى البخاري رقم ٦٧٢٧ « عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: « يا عبد الرحمن؛ =



(٢٦)

(من علاماتِ النُّجْحِ في النهاياتِ الرُّجوعُ إلى الله تعالى في البداياتِ)

أي من العلامات الدالة على النُّجح ـ بضم النون ـ أي الظفر للمريد بمقصوده في نهايته الرجوع إلى الله تعالى بالتوكل عليه والاستعانة به في بدايته[١]، فمَن صحَّح بدايته بالرُّجوع إلى الله تعالى والتوكل عليه في جميع أُموره عليه نَجَح في نهايته التي هي حال وصوله إلى مطلوبه، وفاز بما يقرِّبُه لديه، وأمّا مَن لم يصحح بدايتَه بما ذُكر انقطع عن الوصول، ولم يَبلغ في نهاية أَمره المأمول.

قال بعضُ العارفين: مَن ظَنَّ أنّه يَصِل إلى الله تعالى بغير الله تعالى قُطِع به، ومَن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه وُكِّل إلى نفسه.



(٢٧)

(من أشرقت بدايته أشرقت نهايته)

أي مَن عَمَّرَ أوقاته في حال سلوكه بأنواع الطَّاعة وملازمة الأوراد، أشرقت نهايتُه بإفاضة الأنوار والمعارف حتى يظفر بالمراد، وأمّا مَن كان قليل

= لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة؛ وُكِلْتَ إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أُعِنْتَ عليها » أخرجه البخاري رقم ٦٢٤٨ ومسلم رقم ١٦٥٢، عن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ.

(١) مع القيام بما أمر الله والاجتهاد في طاعاته.

الاجتهاد في البداية، فإنه لا يَنال مزيد الإشراق في النهاية(١).



(٢٨)

(ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظَّواهر)

هذه علامات يُعرف بها حال المريد السَّالك، فإن الظَّاهر عنوان الباطن، فمَن طابت سريرتُه حُمدت سيرتُه(٢).

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠]، أي والسابقون بأعمالهم وإخلاصهم هم السابقون بدرجاتهم وقربهم من الله، وقال ﷺ: «من خاف أَدْلَج، ومن أدلج بَلَغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة» أخرجه الترمذي رقم ٢٤٥٠ وحسنه، والحاكم رقم ٧٨٥١ وصحح إسناده، عن أبي هريرة ﷺ، أي من اجتهد وبكر وسبق بلغ ووصل قبل غيره ولم ينقطع ولم يتأخر.

(٢) وقد أخبرنا النبي ﷺ بهذه الحقيقة فبين أن علامات القبول تظهر بين الناس، فقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: « إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض » أخرجه البخاري رقم ٣٢٠٩، ومسلم رقم ٢٦٣٧، فهذه علامة وضعها الله يتعارف بها الخلائق.

ومن العلامات: ما رواه البخاري ١٣٦٧ عن أنس بن مالك أنهم مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي ﷺ: وجبت، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً، فقال: وجبت، فقال عمر بن الخطاب: ما وجبت ؟ قال: « هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض »، وليس معنى "وجبت" أن الجنة وجبت بقولهم، بل هي علامة جعلها الله، فجعل شهادة الناس في الظاهر دالة على الباطن وعلى حقيقة الأمر، وهذه الشهادة المعتبرة مقتصرة على أهل الإسلام والصلاح. =

ومهما تكن عند امرئٍ من خَليقةٍ وإن خالَها تخفى عن الناس تُعْلَمِ

وقال آخر:

دلائلُ الحبّ لا تخفى على أحدٍ كحامل المِسكِ لا يَخْفَى إذا عَبِقا

فما في القلب من محمودٍ أو مذمومٍ يظهر على الجوارح؛ لما في الحديث: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»(١)، فمَن ادعى بقلبه معرفة الله تعالى ومحبّته ولم تظهر على ظاهره ثمرات ذلك من اللهج بذكره، والمسارعة إلى اتباع أمره، والفرار من القواطع الشاغلة عنه، والاضطراب عن الوسائط المبعدة منه، فهو كَذَّاب في دعواه، متخذ إلهه هواه.



(٢٩)

(شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه
المستدل به: عرف الحقّ لأهله وأثبت الأمر من وجود أصله.
والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه؟ ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه؟)

شتان ـ اسم فعل ماض بمعنى بَعُدَ ـ أي بَعُدَ ما بين مَن يستدل به تعالى

= وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠]، فالتيسير للخير علامة على تقوى في الباطن.

(١) فعن أبان قال: رأى ابن المسيّب رضي الله عنه رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «إنّي لأرى هذا لو خشع قلبه خشعت جوارحه» في مصنف عبد الرزّاق٢: ٢٦٦، ومعرفة السنن٣: ٣٣٦.

على المخلوقات، وهم المرادون أهل الشهود.

«أو» بمعنى الواو: أي وبين مَن يستدل عليه تعالى بالمخلوقات، وهم المريدون أهل السلوك.

فأحوال هذين الفريقين متفاوتة في الرتبة.

فالمستدل به تعالى على غيره عَرَفَ الحقّ، وهو الوجود الذاتي لأهله، وهو الله تعالى، وأثبت الأمر: أي وجود الحوادث من وجود أصله، وهو الله تعالى: أي جُعِل وجودُهم مستفاداً من وجوده؛ إذ لولا إيجاده لهم لما وجدوا، وهؤلاء هم أهل الجذب الذين جذبتهم يد العناية، إما ابتداء أو بعد السلوك وهم العارفون بربهم، فلا يشهدون غيره، ولذلك يستدلون به على الأشياء في حال تَدَلِّيْهم(١).

وأمّا الاستدلال عليه تعالى، فلا يكون إلا من عدم الوصول إليه؛ لأنّ السالك يكون محجوباً بالآثار، فيستدل بها على من كور الليل والنهار، فيكون من الاستدلال بالمجهول على المعلوم، وبالمعدوم على الموجود، وبالأمر الخفي على الظاهر الجلي، وذلك لوجود الحجاب ووقوفه مع الأسباب. وإلا فمتى غاب الحقُّ حتى يُستدل بمخلوقاته عليه؟، ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار الناشئة عن قدرته هي التي توصل إليه؟ وما ألطف قول بعض أهل الشهود في هذا المقام المحمود:

---

(١) ولذلك علمنا النبي ﷺ أن نطلب الهداية من الله، فهو الكفيل بالهداية، والهادي إلى كل مطلوب وحق، قال سبحانه في الحديث القدسي: « فاستهدوني أهدكم » أخرجه مسلم رقم ٢٥٧٧.

عجيب لمن يبغي عليك شهادةً   وأنت الذي أشـهدتَه كلَّ مَشهدِ

قال ابن عبَّاد نقلاً عن «لطائف المنن»(١): واعلم أنّ الأدلة إنما تُنصب لمن يطلب الحقّ لا لمن يَشهده؛ لأنّ الشَّاهد غنيٌّ بوضوح الشُّهود عن أن يحتاج إلى دليل، فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبية، ثم تعود في نهايتها ضرورية.

وإذا كان من الكائنات ما هو غني بوضوحه عن إقامة دليل، فالمكون أولى بغناه عن الدليل منها.

ثم قال: ومن أعجب العجائب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعري هل لها وجود معه حتى توصل إليه؟ أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له؟ وإن الكائنات موصلة إليه، فليس لها ذلك من حيث ذاتها، لكن هو الذي ولاها رتبة التوصيل فوصلت، فما وصل إليه غير إلاهيته، ولكن الحكيم هو واضع الأسباب، وهي لمن وقف عندها ولم تنفذ قدرته عين الحجاب.



---

(١) اشتهر بهذا الاسم: «لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق» لعبد الوهاب الشعراني، وهي «المعروفة بالمنن الكبرى الجالبة للسرور والبشرى»، ألفه في مناقب نفسه، وأورد من أخلاق أشياخه الثلاثة: الشيخ إبراهيم المتبولي وتلميذه الشيخ على الخواص والشيخ أحمد الأفضلي، و«لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن» لتاج الدين أحمد بن عطا الله السكندري، كما في معجم المطبوعات٢: ١١٣٢.

(٣٠)

(﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ الواصلون إليه ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ السائرون إليه)

أي لينفق الفريق صاحب السِّعة في المعرفة وعلوم الأسرار من سعته، وهم الواصلون إليه تعالى(١)، فيفيضون على غيرهم مما آتاهم الله(٢)،

---

(١) استدلال ابن عطاء الله بالآية هو من التفسير الإشاري، وهو هنا قريب من التفسير الظاهر، فالآية تحتمله لغوياً، فإن الإيمان رزق، والتقوى رزق، والولاية رزق، والأخلاق رزق، والكرامة رزق، والقدرة على هداية الناس رزق، فمن أوتي شيئاً من ذلك فهو ينفق منه ويعطي للمستحقين ويوصله للمحتاجين، وانظر خلاصة عن التفسير الإشاري في كتاب: التزكية تصوف أهل السنة، معاذ حوى، صفحة ١١١-١١٣ ط٣.

(٢) وكما أن أهل الضلال يَمدون الراغبين بالضلال، يمدونهم بالإضلال، كما قال تعالى: ﴿ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]؛ كذلك للصالحين والمصلحين إمداد بالإصلاح والهداية والأنوار والعلم، وذلك في عالم الأسباب، ويرجع كله إلى فضل الله ومدده وهدايته، فالله وصف نبيه ﷺ بأنه يهدي، ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال ﷺ للصحابي ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه: « أعني على نفسك بكثرة السجود » رواه مسلم رقم ٤٨٩، فالسالك لا يحمل نفسه بنفسه، بل يعينه شيخه ومربيه على ذلك، وطالبنا النبي ﷺ أن يكون فينا من يحمل الناس، فمدح أصحاب هذه الوصف وبين نُدْرَتَهم، فقال: « الناس كإبل مئة، لا تكاد تجد فيها راحلة » أخرجه البخاري رقم ٦١٣٣ ومسلم نحوه رقم ٢٥٤٧، عن عبد الله بْن عُمَرَ رضى الله عنهما، وبين النبي ﷺ أن مجالسة الصالحين الذاكرين سبب في السعادة، فقالَ: «هُمُ الْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ» أخرجه البخاري رقم ٦٠٤٥ ومسلم ٢٦٨٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه، فذلك ما يعبر عنه الصوفية بالفيض من المشايخ الصالحين على غيرهم.

ويتصرَّفون في العوالم كيف شاءوا[1]، ومن قُدِر ـ بضم القاف وكسر الدال المهملة ـ أي والفريق الذي ضُيِّق عليه رزقه من ذلك؛ فلينفق مما آتاه الله على قدر ما أعطاه وهم السائرون إليه تعالى، فقوله: «الواصلون» خبرُ مبتدأ محذوف: أي هم الواصلون إليه، وكذلك السائرون.

---

(١) التصريف، أو تصريف الأولياء، مصطلح صوفي، لا يعني أنهم أرباب من دون الله، ولا يعني أنهم أرباب مع الله، ولا يعني أنهم يقضون في الخلق بغير إرادة الله أو خلاف إرادة الله، وإنما أكرمهم الله لصلاحهم بأنهم إذا أرادوا أراد، فقلوبهم لا تخالف مراد الله، وقلوبهم تفهم حكمة الله، وقلوبهم في هداية من الله، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، فلا يطلبون ولا يريدون إلا ما يريد ويرضى، ومثلهم في ذلك كمثل شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة فهو لا يشفع إلا بإذن الله وإلا بما يرضي الله، لكن الله جعل له الشفاعة ليرى الناس قدره عند الله عز وجل، فأحوجهم إلى شفاعته ﷺ، وشفاعته ﷺ سبب من الأسباب، والله هو الذي أقام هذا السبب، والأمر كله إلى الله، كذلك جعل الله للأولياء إجابةَ دعاءٍ وتيسيراً لما يجري على قلوبهم وألسنتهم من رغباتٍ مَهْدِيَّةٍ بهداية الله، كما ورد في الحديث القدسي الذي رواه البخاري: «ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه» أخرجه البخاري رقم ٦١٣٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، فوعد الله كل محسن أن يكون له حكم، فهذا الحكم هو الذي يسميه الصوفية تصريفاً، وفي تسميته تصريفاً إشارة إلى أنه لا يخرج عن مراد الله، بل واسطة سببية لمراد الله، والله أعلم.

وقول الإمام الشرنوبي يتصرفون كيف شاؤوا، لا يعني خروجهم عن مشيئة الله، وإنما بيان أن لهم إذن من الله، وكرامة عند الله، وهم لم تكن لهم تلك الكرامة إلا لأنهم من أهل الطاعة لله، ولم تكن لهم تلك الكرامة لو كانوا يخالفون ما يرضي الله، فلا يتصور أن يقصد في كلامه أنهم يتصرفون كيف شاؤوا؛ بالمعنى المطلق، على خلاف مراد الله أو جبراً عن الله، فذلك كفر لا يقول به مؤمن، فكيف يقول به عالم، ومن سوء الظن أن نحمل كلام الأولياء في هذه القضية على هذا المعنى الأخير الباطل، فالمسلم مطالب بحسن الظن بكل مسلم، فكيف بعلماء الأمة وصالحيها.



(٣١)

(اهتدى الرّاحلون إليه بأنوار التوجه، والواصلون لهم أنوار المواجهة، فالأولون للأنوار وهؤلاء الأنوار لهم؛ لأنهم لله تعالى لا لشيء دونه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ [٩١: الأنعام])

أي اهتدى السَّالكون السائرون إلى الله تعالى بأنوار التَّوجه: أي الأنوار النَّاشئة من العبادات والرِّياضات التي توجَّهوا بها إلى حضرة الرَّب، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [٦٩: العنكبوت]، والواصلون إلى الله تعالى لهم أنوار المواجهة: أي التَّقرُّب والتَّحبب[١]، فالأولون عبيد للأنوار لاحتياجهم إليها في الوصول إلى مقصودهم، وهؤلاء أي الواصلون الأنوار لهم؛ لأنهم لله لا لشيء دونه، عملاً بإشارة قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾: أي توجه إليه ولا تمل إلى أنوار ولا غيرها، ﴿ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ ﴾: أي اتركهم ﴿ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾، فإفراد التوحيد بعد فناء الأغيار هو حقُّ اليقين، ورؤية ما سوى الله تعالى خوض ولعب.



---

(١) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم: ٩٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد: ١٧]، فبين أن للصالحين أعمالهم التي يهتدون بها، وهو النوع الأول الذي ذكره الشيخ ابن عطاء، وبين أن الله تعالى يهديهم ويدلهم ويعطيهم التقوى ويتحبب إليهم فذلك النوع الثاني، فالأولون لهم أنوار أعمالهم، والآخِرون لهم أنوار من الله يهديهم بها ويكرمهم.

(٣٢)

(تَشَوُّفُك إلى ما بَطَنَ فيك من العيوب خَيْرٌ من تَشَوُّفِك إلى ما حُجِب عنك من الغيوب)

تَشَوُّفُك بالفاء في الموضعين: أي تَطَلُّعك بعين البصيرة إلى ما بَطَن: أي خَفِي فيك من العيوب والأمراض القلبية كالكبر والحقد والعجب والرياء والسمعة والمداهنة وحب الرياسة والجاه ونحو ذلك حتى تتوجه همتُك إلى زوال ذلك بالرِّياضة والمجاهدة خصوصاً على يد شيخ عارف خَيْرٌ لك من تطلعُك إلى ما حُجب عنك من الغيوب: أي ما غاب عنك كالأسرار الإلهية والكرامات الكونية؛ لأن هذا حظّ نفسك، وذلك واجب عليك لربك.

فإن نفسك تَطْلُبُ الكرامة، ومولاك مُطالبك بالاستقامة، ولأن تكون بحقّ مولاك خيرٌ من أن تكون بحظِّ نفسك وهواك، وهذه الحكمة عمدةٌ في طريق القوم فطَهِّر نفسك من أنواع الرَّذائل قبل أن يتوجَّه إليها اللوم.



(٣٣)

(الحقُّ ليس بمحجوب، وإنما المحجوب أنت عن النظر؛ إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكلُّ حاصر لشيءٍ، فهو له قاهر، ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [١٨ : الأنعام])

يعني أن الحجاب لا يتصف به الحقُّ سبحانه وتعالى؛ لاستحالته في حقِّه، وإنّما المحجوب أنت أيها العبد بصفاتك النَّفسانية عن النظر إليه، فإن رمت

الوصول، فابحث عن عيوب نفسك وعالجها، فإن الحجاب يرتفع عنك، فتصل إلى النظر إليه بعين بصيرتك، وهو مقام الإحسان الذي يعبرون عنه بمقام المشاهدة.

وقد استدل المصنِّف على استحالة الحجاب على رب الأرباب بقوله: إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه: أي عن النظر إليه، ولو كان له ساتراً لكان لوجوده: أي ذاته حاصر: أي محيط به لاستلزام الساتر لانحصار المستور فيه، وكلُّ حاصر لشيء فهو له قاهر؛ لأنه يجعله في أسر قبضته، وتحت حكمه، وذلك لا يصحُّ في حقِّه تعالى؛ لقوله في كتابه: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [١٨: الأنعام] فوقية معنوية لا مكانية[1]، فإنه تعالى مُنزه عن الزَّمان و المكان.



---

(١) وكذلك التعامل مع جميع ظروف الزمان والمكان إذا تعلقت بذات الله يجب فهمها على أنها معنوية لا مكانية ولا زمانية، كحروف: على و الباء و مع و إلى و عند و في؛ في الآيات الآتية: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت: ٥٤]، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٣]، فما كان من النصوص متشابهاً يجب حمله على معنى لغوي مقبول يليق بالله تعالى، وهذا منهج أهل السنة في هذه الظروف، وكذلك فَهْمُ اسم الله الكبير والمتعال والعظيم والعلي، فليس المقصود منها كبر حجم وعلو مكان، بل مكانة، فالله ليس بجسم، ولا بذي أبعاد، سبحانه وتعالى، ولا يجوز فهم هذه الألفاظ على سبيل باطل فذلك من الفتنة التي ذم الله أهلها بقوله: ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧] أي طلباً للتأويل الباطل.

(٣٤)

(أُخْرُجْ من أوصاف بشريَّتك عن كلِّ وَصْفٍ مناف لعبوديتك؛ لتكون لنداء الحقِّ مُجيباً، ومن حضرته قريباً)

أوصاف البشريّة إما ظاهرة: وهي أعمال الجوارح، وإما باطنة: وهي أعمال القلب.

وكلٌّ منهما إمّا طاعةٌ وإمّا معصيةٌ، والنَّظر فيما يتعلّق بالأعمال الظَّاهرة من طاعة أو معصية يُسمى تفقهاً، وفيما يتعلق بالأعمال الباطنة يُسمّى تَصوُّفاً، ومتى صلح الباطن صلح الظاهر، فإن القلب كالمِلك، والجوارح كالجنود التي لا تتخلَّف عن طاعته.

وصلاحه إنّما يكون بالتَّخلي عن كلِّ وصف مُناقض للعبودية: كالكبر والعجب والرياء وغير ذلك[1]، والتحلي بالأوصاف المحمودة التي تقرِّبُه إلى السيد المالك كالتواضع والحِلْم والرضا والإخلاص في العبودية، إلى غير ذلك من أوصاف الإيمان التي يكتسب بها أَبهى مَزية.

فإذا تخلق المريد بذلك ناداه الحقُّ بقوله له: يا عبدي، فيجيبه حينئذٍ

---

(١) ومنها: الغرور، الغضب، متابعة الهوى، واتباع الشهوات، الكسل وحب الراحة والدعة، التسخط وعدم الصبر والرضا والتسليم، الحقد، البغض، الحسد، القلق، وخوف الفقر وهَمُّ الرزق، الحرص، الشرَه، البخل، الأنفة، الرعونة، التسرع والعجلة، حب الاعتماد على الغير والترفع عليهم، حب الرياسة والإمارة، وغير ذلك من أخلاق النفس المذمومة أوطبائعها التي يجب توجيهها إلى الحق.

بقوله: لبيك يا ربي، فيكون صادقاً في إجابته محقِّقاً لنسبته، وهذه هي العبودية الخاصة؛ لأنّ العبودية قسمان:

١. عبودية ملك وقهر، وهي عامة لكل المخلوقات، كما في قوله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ [٩٣: مريم].

٢. وعبودية خاصّة بأحبابه، وهي المرادةُ بقول القاضي عياض[1]:

ومما زادني شرَفاً وتِيهاً ... وكِدْتُ بأخمَصي أطأُ الثُّريا

دخولي تحت قولك: يا عبادي ... وأن صَيَّرْتَ أحمدَ لي نبيّا

ويكون أيضاً من حضرته تعالى قريباً لبعده عن نفسه التي من شأنها النفور عنها والفرار منها، فمرتبة العبودية أنالته هذه الخصوصية.

واعلم أنّ المراد بحضرة الله تعالى ـ حيث أطلقت في لسان القوم ـ شهود العبد أنه بين يدي الله تعالى، فما دام هذا مشهده؛ فهو في حضرة الله تعالى، فإذا حجب عن هذا المشهد فقد خرج منها.

ثم إن هذا السلوك لا يتيسر إلا لمن حاسب نفسه، وأخذ حذره منها، كما قال المصنف:



---

(١) وهو عياض بن موسى بن عياض اليَحْصُبي السَّبتي، أبو الفضل، القاضي، واليَحْصُبي، من مؤلفاته: «الإكمال شرح صحيح مسلم»، و«مشارق الأنوار»، و«التنبيهات»، (٤٧٦-٥٤٤هـ). ينظر: وفيات ٣: ٤٨٣-٤٨٥. العبر ٤: ١٢٢-١٢٣. الكشف ٢: ١٥٠٢.

(٣٥)

(أصل كلِّ معصيةٍ وغفلةٍ وشهوةٍ الرضا عن النفس، وأصلُ كلِّ طاعةٍ ويقظةٍ وعفّةٍ عدم الرِّضا منك عنها، ولأنّ تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خيرٌ لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، فأي علم لعالمٍ يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟)

يعني أنّ النَّظَرَ إلى النَّفس بعين الرضا يوجب تغطية عيوبها، ويصير قبيحها حسناً، والنَّظر إليها بعين السَّخط يكون بضدِّ ذلك على حدِّ قول القائل:

وعين الرِّضا عن كلِّ عيب كليلةٌ كما أنّ عين السُّخْط تُبدي المساويا

فمَن رضي عن نفسه استحسن حالها، فتستولي عليه الغفلة عن الله تعالى، فينصرف قلبه عن مراعاة خواطره، فتثور عليه الشَّهوة، وتغلبُه لعدم وجود المراقبة القلبية التي تدفعها، فيقع في المعاصي لا محالة[1].

---

(١) ويدل على ذلك قول النبي ﷺ في الحديث الحسن: « الكَيِّسُ من دان نفْسَه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » حديث حسن عن شداد بن أوس ﷺ أخرجه أحمد ٤/ ١٢٤، والترمذي رقم ٢٤٥٩ وحسنه، والحاكم رقم ١٩١ وصححه، فالمسلم يبقى متهماً لنفسه يدقق عليها، ولا يرضى عنها ولا يثق بها، ولأجل ذلك نهانا الله عن مدحها ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]، فلا يمدح نفسه إلا من رضي عنها. وأعظم علامات الرضا عن النفس الغفلةُ عن ذكر الله، والانكبابُ على طلب الدنيا مع حبها والتعلق بها، فأمرنا الله أن نهجر من هذا شأنه، فقال سبحانه: ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠].

فعطف الغفلة والشهوة على المعصية من عطف السبب على المسبب.

وكذا عطف اليقظة والعفة على الطاعة، فإن اليَقظة التي هي التَّنبه لما يرضي الله تعالى، والعفة التي هي علو الهمّة عن الشَّهوات يَتسبب عنهما الطَّاعة التي هي اتباع المأمورات واجتناب المنهيات، وإنّما كان الرضا عن النَّفس أصل كل المعصية؛ لأنها أمارةٌ بالسُّوء، فهي العدو الملازم، وفي الحديث: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»[1]، وناهيك قول يوسف الصديق: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [٥٣: يوسف]، ولله دُرّ الإمام البوصيريّ[2] حيث قال:

وخالف النَّفس والشيطان واعصِهما وإن هما مَحَضاكَ النُّصح فاتَّهِمِ
ولا تُطِعْ منهما خَصماً ولا حَكَماً فأنت تعرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ والحَكَمِ

ولما كان الرضا عن النفس من شأن من يتعاطى العلوم الظَّاهرية التي لا تدل على عيوب النفس نهى المصنف عن صحبتهم بقوله: ولأن تصحب ـ بفتح لام الابتداء الداخلة على أن المصدرية ـ أي لَصُحْبَتُكَ جاهلاً لا يرضى عن نفسه خيرٌ لك في تحصيل فائدة الصحبة التي هي الزيادة في حالك من أن تصحب عالماً بالعلوم الظاهرية يرضى عن نفسه.

(١) أخرجه البيهقي في «كتاب الزهد» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين، كما في المغني للعراقي: ٨٧٨.

(٢) وهو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البُوصِيرِيّ المِصْرِيّ، أبو عبد الله، شرف الدين، نسبته إلى بوصير من بني سويف بمصر، أشهر شعره قصيدة البردة والهمزية، (٦٠٨-٦٩٦هـ). ينظر: الأعلام ٧: ١١.

فإنّ المدارَ في الانتفاع بالصحبة، إنما هو على العلم بعظمة الله وجلاله وإحسانه الذي ينشأ عنه معرفة النفس وعيوبها، لا على العلوم العقلية والنقلية.

فأي علم: أي نافع لعالم بالعلوم الظاهرية يرضى عن نفسه.

وأي جهل ضار لجاهل بالعلوم الظاهرية لا يرضى عن نفسه لعلمه بعيوبها، فإنه وإن قَلَّتْ بضاعتُه من الأحكام لا بُدّ أن يحصلها بالوقائع على مدى الأيام، فلا ينبغي للمريد أن يصحب إلا من يكون عارفاً بعيوب نفسه غير راض عنها؛ ليقتدي به في أفعاله، فإن الطبع سراق، كما قال بعضُهم:

عن المرء لا تسأل وسَل عن قرينه ... فكلُّ قرين بالمقارَنِ يقتدي

إذا كنت في قَوْم فصاحبْ خيارَهم ... ولا تصحب الأردى فَتَردى مع الرَّدي



(٣٦)

(شعاعُ البصيرة يُشْهدك قربه منك، وعين البَصيرة يُشهدك عدمك لوجوده، وحقُّ البصيرة يُشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك)

يشير إلى ثلاث مراتب:

١. فشعاع البصيرة، ويُعبَّر عنه بنور العقل وبعلم اليقين، يُشهدك قربه تعالى منك قرب علم وإحاطة، فتستحي منه أن يراك حيث نهاك أو يَفقدك حيث أمرك.

٢. وعين البَصيرة، ويُعبَّر عنه بنور العلم وبعين اليقين يُشهدك عدمك لوجوده الذي تضمحل الموجودات معه، فإنّ وجودها عارية منه، وعند ذلك

لا يبقى في نظرك ما تستندُ إليه سواه، فإنَّك إذ ذاك لا تشهد إلا إيّاه.

٣.وحقُّ البَصيرة، ويُعبَّرُ عنه بنور الحق وبحقِّ اليقين، يُشْهدك وجوده لا عدمَك ولا وجودَك، فتكون في مشاهدة الحقِّ حال كونك في مقام الفَناء الكامل الذي تَفنى فيه، حتى عن فنائك استهلاكاً في وجود سيدك(١).

وبعد الفنا في الله كُنْ ما تَشا فعلمُك لا جهلٌ وفِعلُك لا وِزرُ



(٣٧)

(كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان)

أي كينونة لا يصحبها زمانٌ ولا مكانٌ، فإنهما من مخلوقاته، والمراد بهذه الحكمة أنّه لا شيء معه في أبده، كما لم يكن معه شيءٌ في أزله؛ لثبوت أحَديَّتِهِ، يوضح ذلك قوله فيما سيأتي: «الأكوان ثابتةٌ بإثباتِهِ ممحوةٌ بأَحَديّةِ ذاته»(٢).



---

(١) وقد أخذ الصوفية هذه المصطلحات: علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين؛ من كتاب الله، قال سبحانه: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥-٧]، ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٨٨-٩٥].

(٢) وقول ابن عطاء الله مستنبط من حديثه ﷺ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ» أخرجه البخاري رقم ٧٤١٨، عن عمران بن الحصين، أما بقية العبارة فهي من كلام العلماء، وهي صحيحة على معنى أن الله لم يتغير بعد خلق الخلق، فلا يحتاج في وجوده إلى مكان، ولا يمضي عليه زمان، وإلا لكان كالمخلوق محدثاً، ومَن يُغَيِّره الخلقُ لا يكون خالقاً.

(٣٨)

(لا تتعدَّ نيّةُ هِمَّتك إلى غيره، فالكريمُ لا تتخطّاه الآمال)

أي لا تجعل قصدك مُتعدِّياً إلى غيره تعالى، فالكريمُ لا تتخطّاه آمال المؤملين، فإنّ ذا الهِمّة العليّة يأنف من رفع حوائجه إلى غير كريم، ولا كريم على الحقيقة إلا رب العالمين، وأجمع العبارات في معنى وصف الكريم ما قيل:

الكريم هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وَعَدَ وَفَى، وإذا أَعْطَى زَاد على منتهى الرجاء، ولا يُبالي كم أَعطى، ولا لمن أَعطى، وإن رَفَعْتَ حاجةً إلى غيره لا يَرْضى، وإذا جَفَي عاتَب وما استقصى، ولا يضيع مَن لاذ به والتجا، ويُغنيه عن الوسائل والشُّفعاء.

فإذا كانت هذه الصفات لا يَستَّحقُها أحدٌ سوى الله تعالى، فيَنْبَغي أن لا تتخطَّاه آمال المؤملين، كما قال بعضُ العارفين:

حرام على مَن وَحَّدَ اللهَ رَبَّه ... وأفرَدَه أن يَجْتدِي أحداً رِفْدا
ويا صاحبي قِفْ بي مع الحقِّ وِقْفَةً ... أموتُ بها وَجْداً وأحيا بها وَجْدا
وقُلْ لملوك الأرض تَجْهد جَهْدَها ... فذا المُلْكُ مُلْكٌ لا يُباع ولا يُهْدى



(٣٩)

(لا ترفعنَّ إلى غيره حاجةً هو مورِدُها عليك، فكيف يَرفعُ غيره ما كان هو له واضعاً؟ مَن لا يستطيع أن يَرفع حاجةً عن نفسه، فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعاً ؟)

أي لا ترفعنَّ إلى غيره تعالى حاجةً كفقر أو نازلة هو مورِدُها عليك اختباراً لك، بل ارفع إليه ذلك، فإنّه سبحانه يحبُّ أن يُسأل، وفي الحديث: «مَن لم يسأل الله تعالى يغضب عليه»(١)، وما ألطف قول بعضِهم:

لا تَسألنَّ ابْنَ آدمَ حاجةً وسَلِ الذي أَبوابه لا تُحْجَبُ
فاللهُ يَغْضَبُ إن تركت سؤاله وابنُ آدمَ حين يُسأَلُ يَغْضَبُ

ومن المحال أن يَرفع غيرُه سبحانه ما كان هو له واضعاً، فإن الله تعالى غالب على أمره، والعبد شأنه العَجْزُ عن رفع النَّازلة عن نفسه، فكيف يستطيع أن يرفعها عن غيره؟

فالطلب من الخلق غرورٌ وباطلٌ، وليس تحتَه عند أَرباب البَصيرة طائل، وهذا إذا كان على وجهِ الاعتمادِ عليهم، والاستنادِ إليهم مع الغفلةِ في حال الطَّلب عن الله تعالى، وأمَّا إذا كان من باب الأَخذ بالأَسباب مع النَّظر إلى أن المعطي في الحقيقة، الملك الوهاب، فهو من هذا الباب، والله أعلم بالصواب.



(٤٠)

(إن لم تحسن ظنَّك به لأجل وصفه حسن ظنِّك به لأجل معاملته معك، فهل عودُك إلا حُسناً؟ وهل أَسْدَى إليك إلا مِنناً)

اعلم أنّ تحسين الظَّنِّ بالله تعالى أحدُ مقامات اليقين، والناس فيه على قسمين:

---

(١) فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «إنه من لم يسأل الله يغضب عليه» في سنن الترمذي٥: ٤٥٦، والأدب المفرد١: ٢٢٩.

١. فالخاصة يحسنون الظَّنَّ به لاتصافه بالصفات العلية، والنعوت السنية.

٢. والعامة لما عوَّدهم به من الإحسان، وأوصله إليهم من النِّعم الحسان، فإن لم تصل ـ أيها المريد ـ إلى مقام الخاصّة، فحسن ظَنِّك به لحسن معاملته معك، فإنّه ما عَوَّدك إلا عطاءً حسناً، ولا أَسْدَى: أي أَوْصَلَ إليك إلا مناً.

والله عوَّدك الجميل فقِسْ على ما قد مَضَى

وينبغي للعبد أن يُحْسن الظَّنَّ بربِّه في أمر دنياه، وأمر آخرته، أما أمر دنياه، فإن يكون واثقاً بالله تعالى في إيصال المنافع إليه من غير كدٍّ ولا سعيٍّ، أو بسعي خفيف مأذون فيه، مأجور عليه بحيث لا يَفوته شيئاً من فرض ولا نفل، فيُوجب له ذلك سكوناً وراحةً في قلبه، فلا يَستفزُّه طلبٌ ولا يُزْعِجُه سبب.

وأمّا أمر آخرته، فأن يكون قويّ الرَّجاء في قبول أعماله الصَّالحة، فيوجب له ذلك المبادرة لامتثال الأوامر، والتَّكثير من أعمال البر.

ومن أعظم مواطن حسن الظَّنِّ بالله تعالى حالة الموت لما في الحديث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»(١)، وورد: «أنا عند ظنِّ عبدي بي فليظن بي ما شاء»(٢).

---

(١) فعن جابر ﵁، قال ﷺ قبل وفاته بثلاث، يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن» في صحيح مسلم٤: ٢٢٠٥.

(٢) فعن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» في صحيح البخاري٩: ١٢١، وصحيح مسلم٤: ٢٠٦١.



(٤١)

(العجبُ كلُّ العجب ممن يَهرب مما لا انفكاك عنه، ويَطْلب ما لا بقاء له معه: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦])

أي العجب الكامل من العبد الذي يهرُب ـ بضم الراء من باب نصر ـ أي يتباعد من ربِّه الذي لا انفكاك له عنه بأن لا يفعل ما يقرِّبه إليه مع توارد إحسانه عليه، ويطلب ما لا بقاء له معه، وهو الدنيا، وكلُّ شيءٍ سوى الله تعالى، بأن يُقبل على شهواتِه ويَتْبع شيطانَه وهواه، وما ألطف ما قيل لمن هو من هذا القبيل:

تَفْنى اللَّذائذُ يا مَن نالَ شَهْوتَه ... مِن المعاصي ويَبقى الإثمُ والعارُ
تبقى عَواقبَ سوءٍ لا انْفكاكَ لها ... لا خير في لذّةٍ من بعدها النَّارُ

وهذا إنما يكون من عمى البَصيرة التي هي عين القلب، حيث استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وآثر الفاني على الباقي، فإنّها: أي القصة والشَّأن، وجملة لا تعمى الأبصار خبرٌ مُفسَّر لها.

وفي الآية إشارةٌ إلى أنّ عمى الأبصار بالنسبة لعمى البصائر: كالأعمى فإن عمى الأبصار إنّما يحجب عن المحسوسات الخارجية، وأمَّا عمى البَصائر: أي عيون القلوب، فإنّه يُحجب عن المعاني القلبية والعلوم الرُّبانية.



(٤٢)

(لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرَّحى يسير والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [٤٢: النجم] وانظر إلى قوله ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومَن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأةٌ يَتزوجُها فهجرتُه إلى ما هاجر إليه»[1]، فافهم قوله ﷺ وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم، والسلام)

أي لا تطلب بأَعمالك الصالحة عوضاً ولو في الآخرة، فإن الآخرة كون كالدنيا، والأكوان متساوية في أنها أغيار وإن وجد في بعضها أنوار، بل اطلب وجه الكريم المنان الذي كون الأكوان وفاءً بمقتضى العبودية، وقياماً بحقوق الربوبية لتحقق بمقام: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [٤٢: النجم].

وهذا مقام العافين الذين رغبوا عن طلب الثواب، ومحضوا النظر إلى الكريم الوهاب، فتحققوا بمقام الإخلاص النّاشئ عن التَّوحيد الخاص.

وأما مَن فَرّ من الرِّياء في عباداته وطلب بها الثواب، فقد فَرَّ من كون إلى كون بلا ارتياب، فهو كحمار الرِّحى: أي الطاحون يسير، ولا ينتقل عما سار منه لرجوعه إليه.

وفي هذا التشبيه التنفير عن هذا الأمر بما لا مزيد عليه، وانظر إلى قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكل امرئ ما نوى، فمن

(١) فعن عمر رضي الله عنه في صحيح البخاري١: ٦، وصحيح مسلم٣: ١٥١٥.

كانت هجرته إلى الله ورسوله»: أي نية وقصداً، «فهجرته إلى الله ورسوله»: أي وصولاً، فلم يتحد الشرط والجزاء في المعنى.

فقوله: «فهجرته إلى الله ورسوله»، هو معنى الارتحال من الأكوان إلى المكون، وهو المطلوب من العبد .

وقوله: «فهجرته إلى ما هاجر إليه» هو البقاء مع الأكوان، وهو المنهي عنه.



(٤٣)

(لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله)

أي لا تصحب مَن لا يَرقيك حاله الذي هو عليه؛ لعدم علو همَّته، فإن الطَّبع سَرَّاق، كما قال بعضُهم:

بُنَيَّ اجتنب كلّ ذي بدعة ... ولا تصحبنْ مَن بها يُوصفُ
فَيَسْرِقَ طبعُك من طبعِه ... وأنت بذلك لا تَعْرِفُ

بل اصحبْ شيخاً عارفاً ينهضك حالُه بأن تكون همَّتُه متعلِّقةً بالله تعالى، فلا يلجأ إلا إليه، ولا يتوكَّل في جميع أموره إلا عليه، ويدلُّك على الله مقالُه لمعرفته بالله تعالى، فصحبة الأخيار أصلٌ كبيرٌ في طريق القوم[1]، وأمّا صحبة

---

(١) والله تعالى أمرنا في كتابه بذلك، فقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان: ١٥]، ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩]، ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧].

الأشرار ففيها كبير اللوم لما فيها من عظيم الآفات الموجبة إلى رجوع القهقرى والانحطاط عن علي الدرجات، كما قال المصنف:



(٤٤)

(ربما كنت مسيئاً فأراك الإحسان منك صحبتك إلى مَن هو أسوأ حالاً منك)

فإن صحبتك: أي انضمامك إلى مَن هو أسوأ حالاً منك سبب لتغطية عيوب نفسك، ورؤية كمالها بالنسبة لغيرك، فتقع في مهاوي الإعجاب والزهو بالأعمال التي رُبَّما كانت في الحقيقة كسراب.



(٤٥)

(ما قلّ عملٌ بَرَزَ مِن قلبِ زاهد، ولا كَثُرَ عمل برز من قلب راغب)

يعني: أنّ العملَ الصَّادر من الزَّاهد في الدُّنيا كثير في المعنى، وإن كان قليلاً في الصورة؛ لسلامته من الآفات القادحة في قبوله من الرِّياء والتَّصنع للناس، وطلب الأعراض الدنيوية، بخلاف الصادر من الرَّاغب فيها، فإنّه على العكس من ذلك، وقد شكا بعضُ النَّاس لرجل من الصَّالحين أنه يعمل أعمال البر، ولا يجد لها حلاوة في قلبه، فقال: لأن عندك بنتَ إبليس، وهي الدُّنيا، ولا بُدَّ للأب أن يزورَ ابنته في بيتها، وهو قلبك، ولا يُؤَثِّرُ دخوله

إلا فساداً[(١)].

---

(١) والزهد من أصول التصوف، وأعظمِ أبواب التزكية للنفس، فمن لم يزهد فيما سوى الله ففي قلبه إله يحركه، وينافس أمر الله في قلبه، فإذا أخرج كل ما يُشتَهى من الدنيا فلم يعد يتعلق بشيء منها بقلبه؛ فذلك علامةُ أنه لا يريد إلا الله، وذلك الذي يجعله يؤثر الآخرة على الدنيا، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[آل عمران: ١٤]،وقال ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» أخرجه ابن ماجه رقم ٤١٠٢ والحاكم رقم ٧٨٧٣ عن سهل بن سعد ﵁، وحسنه المنذري والنووي.

ومن بقي في قلبه شيء يشتهيه ويتعلق به؛ فإنه يشوش عليه صلاته وخشوعه وتدبره للقرآن وذكرَه، ويشغله عن دعوته وجهاده.

وهذا الزهد فريضة من فرائض القلوب، يَنتُج عنه الالتزامُ بأحكام الله في المال، فيؤدي الزكاة والنفقة، ويترك السرقة والرشوة، ويؤدي من ماله حق الأمة وحق الدعوة وحق الجار وحق الفقير وحق طالب العلم وحق المريض المحتاج وحق الملهوف المهاجر، بقدر استطاعته، فلا يبخل، فالزهد لا يعني الفقر، لكن يعني أداء حق الله إذا أغناك، مع فراغ قلبك من التعلق بما آتاك، والزاهد لا يحرم ما أباح الله، فإن ترك الطيبات فلزهد وتورع، وإن أخذ منها فيشكر ولا يتعلق بها، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٢]، وقال ﷺ: « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٨١٩ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسنه، وأخرجه أحمد رقم ٨٠٩٢ عن أبي هريرة ﵁، وأحمد ٤/ ٤٣٨ والبيهقي في سننه الكبرى رقم ٥٨٨٨ عن عمران بن حصين ﵁.

والذي يوجب زهد القلب وزهد اليد، والعفة عما ليس لك: أن تعلم حقيقة الدنيا والآخرة، =

ثم أشار إلى ما هو كالدليل لذلك بقوله:



= وخلاصة ذلك:

١. الدنيا **ممر ووسيلة**، والآخرة مستقر وهدف، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨]، وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: « واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ذكره ابن حجر في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية رقم ٣١٨١، وروى البخاري قبل حديث ٢٠٦٤: « قال قَتادة: كان القوم يَتَّجِرون، ولكنهم كانوا إذا نابهم حق من حقوق الله ؛ لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، حتى يؤدوه إلى الله ».

٢. والدنيا **اختبار**، فقد جعل الله كل ما فيها من خير أو شر ابتلاءً وفتنةً وامتحاناً، فلا تركن إليها، بل اعمل فيها ما يُسعِدُك في الآخرة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢]، ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

٣. والدنيا **ستنتهي وتفنى**، فاجتهد أن تعمر الآخرة الباقية، ولا تحرص على شيء مما يفنى، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِىَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وخذ من الدنيا قدر الضرورة، قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [القصص: ٧٧].

٤. والدنيا **هينة حقيرة**، فلا تغتر ولا تنخدع بشيء منها، وقد شبهها النبي ﷺ ـ كما رواه مسلم ـ بسخلة ميتة مقطوعة الأذنين وبين أنها أهون عند الله من هوان هذه السخلة علينا، وبين أنه «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شَرْبة ماء»، أخرجه الترمذي رقم ٢٣٢٠ وابن ماجه والحاكم، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث صحيح غريب من هذا الوجه، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [فاطر: ٥].

(٤٦)

(حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال، وحُسن الأحوال من التَّحقُّق في مقامات الإنزال)

يعني أنّ الأعمال الحسنة إنّما هي نتائج الأحوال الحسنة القائمة بالقلب من الزُّهد في الدُّنيا والإخلاص لله تعالى، لا لطلب حظٍّ عاجل، ولا ثواب آجل[١].

وحسن الأحوال ناشئٌ من التَّحقق: أي التَّمكن في مقامات الإنزال: أي في المقامات التي تنزل في قلوب العارفين، وهو كنايةٌ عن المعارف الإلهية التي يوردها الله تعالى على قلوبهم، فتكون سبباً في رفع الدعوى وعدم التَّعلُّق بغير المولى[٢].

---

(١) صلاحُ القلبِ ونورُه يزيد الأعمال الصالحة عند السالك، والأعمال الصالحة تصنع أنواراً في القلب فتزيده نوراً، فلا يزال العبد في ترقٍّ وازدياد. قال ﷺ: « ألا وإن في الجسد مضغةً **إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه**، وإذا فسدتْ فسدَ الجسد كله، ألا **وهي القلب**» أخرجه البخاري رقم ٥٢ ومسلم رقم ١٥٩٩ عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨]، وقال ﷺ: «والصلاة نور» أخرجه مسلم رقم ٢٢٣ عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) كل معرفة لها أثرها على قلب المؤمن، ومعرفة السالك معظمها مرتبط بمعرفة أسماء الله، فبقدر معرفة أسماء الله وصفاته، وبقدر ذكر المؤمن لها بقدر ما يجد أثر ذلك في قلبه أحوالاً إيمانية:

فإذا آمنت بأن الله هو **الإله**؛ فإن ذلك يقتضي في قلبك **توحيدَ الاعتقادِ والعبادةِ والإخلاصَ وتركَ الرياء** والشركِ الظاهر والخفي، وأن لا تجعل هواكَ إلهاً، ويقتضي أن تحتكم إلى حكمه، فلا تخالف ولا تقدم عليه حكم أحد سواه. =

وهذه الثلاثة المذكورة مرتبٌ بعضُها على بعض، وبهذا اتضح قول

= وإذا آمنت بأن الله هو **الغفور العفو التواب،** فإن ذلك يقتضي منك أن تلازم **التوبة** والاستغفار والرجوع إلى الله تعالى على الدوام.

وإذا آمنت بأن الله هو **السميع البصير،** فإن ذلك يقتضي منك أن **تراقب** الله تعالى على الدوام، وأن تكون **أديباً** بين يديه ومعه، وأن **لا تعصيه.**

وإذا آمنت بأن الله هو **الرحمن الرحيم الودود العفو،** فإن ذلك يقتضي منك أن تكون من أهل **الرجاء** لفضله ورحمته وكرمه وإحسانه وعفوه وعطائه.

وإذا آمنت بأن الله هو **الكبير المتعال العظيم المنتقم الجبار،** فإن ذلك يقتضي منك أن تكون من أهل **الخوف** من غضبه وعقابه ونقمته وجبروته ومعصيته.

وإذا آمنت بأن الله هو **الوكيل النافع المعطي المانع الهادي،** فإن ذلك يقتضي منك أن تكون من أهل **التوكل** والاعتماد على الله، من غير أن تقصر في الأسباب، فتعلم أن هو صاحب الأمر وهو مسبب الأسباب، فلتلجأ إليه وتعتمد عليه .

وإذا آمنت بأن الله هو **الباقي،** فإن ذلك يقتضي منك أن تكون من أهل **الزهد** في سواه.

وإذا آمنت بأن الله هو **الحكيم القادر** الذي **لا مشيئة غير مشيئته،** فإن ذلك يقتضي منك أن تكون من أهل **الصبر** على كل بلاء، **والشكر** لله على كل حال، **والرضا** بما يقضي.

وإذا آمنت بأن الله هو **الودود البَرُّ؛** فإن ذلك يقتضي منك أن تكون من أهل المحبة له.

وإذا آمنت بأن الله هو **القوي الحفيظ؛** فإن ذلك يقتضي منك أن تكون من أهل **الخشية** منه، ولا تخشى أحداً سواه.

وإذا آمنت بأن الله هو **العدل ذو الفضل؛** فإن ذلك يقتضي منك أن **تحسن الظن** بالله.

وإذا آمنت بأن الله هو **المحصي؛** فإن ذلك يقتضي منك أن تكون من أهل الورع.

وهكذا فكل اسم من أسماء الله نعتقده ونذكره، يصنع حالاً في القلب، ثم يكون له أثر في السلوك والعمل.

الإمام الغزالي[١]: «لا بُدّ في كلِّ مقام من مقامات اليقين من علم وحال وعمل، فالعلم ينتج الحال، والحال ينتج العمل».



(٤٧)

(لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله تعالى فيه؛ لأنّ غفلتَك عن وجود ذكره أَشدُّ من غفلتِك في وجود ذكره، فعسى أن يرفَعَك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجودِ يقظةٍ، ومن ذكر مع وجودِ يقظةٍ إلى ذكر مع وجودِ حضور، ومن ذكر مع وُجود حضور إلى ذكر مع غيبةٍ عما سوى المذكور: ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [٢٠: إبراهيم])

أي لا تترك ـ أيها المريد ـ الذكر الذي هو منشور الولاية[٢]؛ لعدم حضور

(١) وهو محمد بن محمد بن محمد الطُّوسيّ الغَزالي، أبو حامد، زين الدين، هذه النسبة إلى الغَزَّال، على عادة أهل خوارزم وجرجان، فإنهم ينسبون إلى القصار القصاري، وإلى العطار العطاري، وقيل: إن الزاي مخففة نسبة إلى غَزَالة وهي قرية من قرى طُوس، وهو خلاف مشهور. من مؤلفاته: «الإحياء»، و«كيمياء السعادة»، و«بداية الهداية»، و«منهاج العابدين المنقذ من الضلال»، و«القسطاس»، (٤٥٠-٥٠٥هـ). ينظر: وفيات ٤: ٢١٦-٢١٩، ١: ٩٨. طبقات الأسنوي ٢: ١١١-١١٣. طبقات ابن هداية الله ص١٩٢-١٩٥، الكشف ١: ٢٣. التعليقات السنية ص ٢٤٣. الأعلام ٧: ٢٤٧.

(٢) من أعظم أصول التزكية والتصوف، ومن أفضل ما يترقى به السالك: ذكر الله، فالله أمر بالإكثار منه، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: =

قلبك مع الله تعالى فيه لاشتغاله بالأعراض الدنيوية، بل اذكره على كلِّ حال؛ لأن غفلتك عن وجود ذكره بأن تتركه بالكلية أشدُّ من غفلتك في وجود ذكره؛ لأنك في هذه الحالة حركت به لسانك، وإن كان قلبك غافلاً عن المذكور(١).

= ٤١]، وجعله النبي ﷺ علامة حياة القلب، فقال ﷺ: « مَثَلُ الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مَثَلُ الحيِّ والميت»، أخرجه البخاري رقم ٦٠٤٤ عن أبي موسى الأشعري ﷺ، وأخرجه مسلم رقم ٧٧٩ بلفظ: «مثل البيت ...»، وذِكْرُ الله وتعظيمُه هو مقصود جميع العبادات، لذلك سمى الله أحكامه ذكراً، فقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، وبين سبحانه أن الذكر يحميك من الشيطان، فقال عز وجل: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، والذكر هو سبيل السبق والمراتب العالية، قال ﷺ: « سبق المفردون، قيل: وما المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» أخرجه مسلم رقم ٢٦٧٦، عن أبي هريرة ﷺ.

(١) وحينما يحاول الذاكر بلسانه أن يحضر مع الله؛ فهو في مجاهدة لنفسه، فيؤجر بمجاهدته ورغبته في الحضور، ويحصل له بعض الحضور شيئاً فشيئاً، كالمتمضمض بالعسل، فيكون كالمتدرب الذي يقوى شيئاً فشيئاً.

وليس مقصود الحكمة أن يرضى المؤمن بالغفلة في الذكر، فشأن المؤمن الخوف والتعظيم مع الذكر، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢].

وقد استشهد بعض الصوفية على صعوبة الذكر على الغافل قاسي القلب، وأنه كالويل، ثم يؤثر الذكر ويصنع الخشية، ثم يصير الذكر سَجِيَّة لَيِّناً على نفس الذاكر، بقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٢-٢٣]. ولا يجوز للمسلم أن يرضى بالغفلة في الذكر، =

فعسى أن يرفعَك أي يُرقيك بفضلِه من ذكر مع وجود غفلة عنه إلى ذكر مع وجود يقظة: أي تيقظ قلب لما يُناسب حضرته من الآداب، ومن ذكر مع وجودِ يقظةٍ إلى ذكر مع وجودِ حضور في حضرة الاقتراب(١)، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع وجود غيبةٍ عما سوى المذكور، فتفنى حتى عن الذكر.

وفي هذا المقام يَنقطع ذكر اللسان، ويكون العبد محواً في وجود العِيان، كما قال بعض أهل هذا المقام:

ما أَنْ ذكرتُك إلا هَمَّ يَقْتُلني سِرِّي وقلبي وروحي عند ذِكراكا
حتى كأنَّ رقيباً منك يَهتِفُ بي إيّاك وَيْحَك والتّذكارَ إيَّاكا
أمّا ترى الحقَّ قد لاحَتْ شواهدُه وواصلَ الكلَّ مِن مَعْناهُ مَعناكا

وإذا صَدَر ذكر اللِّسان في هذا المقام، فإنّه يخرج من غير قصدٍ ولا تَدبُّرٍ(٢)، بل يكون الحقُّ المبين لسانَه الذي يَنطق به؛ لأنّ صاحبَه في مقام الحبُّ

= فقد نهى الله عن الغفلة في الذكر فقال: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، والآية تبين أن اللجوء والتضرع والخوف من أسباب زوال الغفلة في الذكر.

(١) ذكر اليقظة فيه انتباه إلى معنى الذكر، وخروج عن حالةِ الإعراضِ والغفلة عن الله، أما ذكر الحضور ففيه انتباه إلى معية الله، مع دوام الذكر والحضور بالقلب.

(٢) هذه الأبيات فيها مجاز وبلاغة، وليست على ظاهرها، فالذاكر بلسانه محمود وليس بملعون، وإنما هو تنبيه على أنه في حالة الاستغراق في الذكرِ والحضورِ مع الله لو أراد الذاكر أن يذكر بلسانه وينتبه إلى ذلك لشغله ذلك عن حضوره، فينشغل باللفظ عن المعنى، فيكون كالتشويش، بينما كان الغافل يذكر نفسه بذكر اللسان، صار هنا ذكر اللسان على حساب القلب.

المشارُ إليه بالحديث: «لا يَزال عبدي يتقرَّب إلي بالنَّوافل حتى أُحبه، فإذا أَحببته كنتُ سمعه الذي يَسمعُ به، وبَصره الذي يُبصر به، ولسانه الذي يَنطقُ به»[١] إلى آخر الحديث.

وهذه المراقي لا يَعرف حقيقتها إلا السالكون، فقابِلْها بالتسليم إن لم تكن من أهلها: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [١٨: الجاثية] وخذ في الأسباب يُرتَفَع عنك الحجاب: ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [٢٠: إبراهيم].



(٤٨)

(من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات، وترك النَّدم على ما فعلته من وجود الزَّلات)

أي إن عدمَ حزنك ـ أيها المريد ـ على ما فاتك من الموافِقات ـ بكسر الفاء ـ أي الطَّاعات الموافقة للشرع، وترك ندمك على ما فعلته من وجود الزَّلات: أي المعاصي التي توجد منك؛ علامةُ موت قلبك، ويُفهم منه أن سرورك بالطَّاعة وحزنك على المعصية علامة حياته؛ لما في الحديث: «من سرّته

(١) فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إن الله قال: مَن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إلي عبدي بشيءٍ أحبُّ إلي مما افترضت عليه، وما يَزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتى أُحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يَسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يَبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يَكره الموت وأنا أكره مساءته» في صحيح البخاري٨: ١٠٥.

حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»[١]، فإن الأعمال الحسنة علامة على رضا الحق، ورضاه يقتضي السرور.

والأعمال السيئة علامة على غضبِه، وغضبُه يقتضي الحزن، فمن رضي الله عنه وفقه لصالح الأعمال، ومَن غضب عليه تركه في زوايا الإهمال، أسأل الله التوفيق لأقوم طريق[٢].



(٤٩)

(لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى، فإن مَن عرف ربَّه استصغر في جنب كرمه ذنبه)

لّما أَفْهَمَ كلامُه أنّ النَّدم على المعصية حياة القلب أشار بهذا إلى أنّ المرادَ النَّدم الذي لا يؤدي لليأس من رحمة الله تعالى، فالمطلوب أن تكون خائفاً راجياً، فالخوفُ يحملك على التوبة من الذنب، والرجاء يُطْمِعُك في القبول[٣].

(١) فعن عمر ﷺ، في سنن الترمذي٤: ٤٦٥، وقال: حسن صحيح، وسنن النسائي الكبرى٨: ٢٤٨، وصحيح ابن حبان١٥: ١٢٢.

(٢) روي أن أحد الخلفاء العباسيين شكا إلى أحد كبار الصالحين في زمانه، أنه كان يفعل الذنب فيحزن ويخاف، أما اليوم فيذنب، وكأنه لم يفعل شيئاً، ولا يحزن، فقال له: قد استكمل الموت. أي موت قلبك.

(٣) مما يدل على وجوب الجمع بين الرجاء والخوف: قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وفي المقابل قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ =

فإن مَن عرف رَبَّه باللطف والفضل والامتنان استصغر في جنب كرمه ذنبه أياً كان(١)، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [٤٨: النساء] (٢)، ولله درُّ القائل:

ذنوبي إن فكرتُ بها كثيرةٌ ورحمةٌ ربي من ذنوبي أَوسعُ
هو الله مولاي الذي هو خالقي وإنني له عبدٌ أذِلُّ وأخضعُ
وما طمعي في صالحِ قد عملتُه ولكنني في رحمة الله أطمعُ



= إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة؛ ما قنِطَ من جنته أحد» أخرجه مسلم رقم ٢٧٥٥ ، عن أبي هريرة ﷺ.

(١) نبه الصالحون إلى أن العبد يستصغر الذنب في جنب رحمة الله، ويستعظم الذنب من جهة أنه تجرؤ من العبد على حرمات الله، وهو ما يأتي التنبيه إليه في الحكمة الآتية، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: « الذنب الذي تستصغره فهو عند الله كبير أو عظيم، والذي تستعظمه فهو عند الله صغير».

(٢) وقد فتح الله لنا باب الرجاء والتوبة، وطَمَّعَنا بفضله وعفوه وواسع مغفرته، في كثير من النصوص، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣٢]، ومنها قوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذنِبُوا، لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِقوم يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ تعالى، فيَغْفرُ لَهُمْ» أخرجه مسلم رقم ٢٧٤٩ عن أبي هريرة ﷺ، ونحوه رقم ٢٧٤٨ عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ.

(٥٠)

(لا صغيرة إذا قابلك عدله، ولا كبيرة إذا واجهك فضله)

أي لا صغيرة من ذنوبك، بل كلها كبائر إذا قابلك عدله تعالى، فإن صفة العدل إذا ظهرت على من أبغضه الله؛ تلاشت حسناته وعادت صغائره كبائر، لأنه يُعذِّبه على أصغر ذنب.

ولا كبيرة إذا واجهك فضلُه[1]، وهو إعطاء الشيء بغير عوض، فإن صفة الفضل إذا ظهرت لمن أحبه اضمحلت سيئاته، وبدلت حسنات، وأنا أقول كما قال الإمام الشاذليّ: اللهم اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت، فالإحسان لا يَنفع مع البغض منك، والإساءة لا تضرُّ مع الحُبِّ منك.



---

(١) والله أخبرنا أنه يعاملنا بفضله ما دمنا نعود إليه، ولا نستهين بجلاله، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَحكِي عَن ربِّهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالى، قال: « أَذنَب عبْدٌ ذَنباً، فقالَ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ذَنبي، فقال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعالى: أَذنَبَ عبدِي ذنباً، فَعلِم أَنَّ لَهُ ربًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيأْخُذُ بِالذَّنبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذنَبَ، فقال: أَيْ ربِّ اغفِرْ لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أَذنبَ عبدِي ذَنباً، فَعَلَمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيَأخُذُ بِالذنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذنَبَ، فقال: أَي رَبِّ اغفِرْ لي ذَنبي، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالى: أَذنَبَ عَبدِي ذَنباً، فعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنبَ، ويأْخُذُ بِالذَّنبِ، قدَ غَفَرْتُ لِعبدي، فَلْيَفعَلْ ما شَاءَ » أخرجه البخاري رقم ٧٠٦٨ عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم نحوه رقم ٢٧٥٨، قال النووي في رياض الصالحين: «وقوله تعالى: (فَلْيَفْعلْ ما شَاءَ) أي: مَا دَامَ يَفْعَلُ هَكَذا، يُذْنِبُ وَيتُوبُ أَغْفِرُ لَهُ، فإِنَّ التَّوبَةَ تَهدِمُ ما قَبْلَهَا».

(٥١)

(لا عمل أرجى للقبول من عمل يَغيب عنك شهوده ويحتقر عندك وجوده)

أي لا عمل من أعمال البرّ أكثر رجاءً للقبول: أي لقبول الله تعالى له، وفي نسخة للقلوب: أي لإصلاحها من عمل يغيب عنك شهوده؛ لأنك إن غبت عن شهود عملك فقد بقيت حينئذٍ بربك، وصار وجود العمل مُحتقراً عندك لاتهامك لنفسك في القيام بحقه(١).

ولذا قال بعض العارفين: كلُّ شيءٍ من أفعالك إذا اتصلت به رؤيتك فذلك دليل على أنه لا يقبل منك؛ لأنّ المقبولَ مرفوعٌ مغيبٌ عنك، وما انقطعت عنه رؤيتك، فذلك دليل على القبول، يُشير إلى قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [١٠: فاطر].

---

(١) وهذا ما فسر به النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١]، فقد روي أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: « لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يُقْبَلَ منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات » رواه الترمذي رقم ٣١٧٥، وهذا لفظه، ورواه ابن ماجة والحاكم. فالمسلم يعمل الأعمال الصالحة، ولا يلتفت إليها ولا يعظمها، ويخاف أنه لم يؤدها حقها، ويخاف أنه لم يخلص فيها، وعلى الرغم من ذلك يرجو أنها حُفِظَتْ في خزائن الله، ويرجو أن يعطيه الله عليها كثيراً من فضله وإحسانه.



(٥٢)

(إنما أورد عليك الوارد؛ لتكون به عليه وراداً)

أي إنما أورد الله عليك ـ أيها المريد ـ الوارد، وهو ما يرد على قلبك من المعارف الرَّبانية واللطائف الرحمانية؛ لتكون به ـ أي بذلك الوارد المطهِّر لقلبك ـ عليه سبحانه وارداً، فإنّ الحضرةَ منزهةٌ عن كلِّ قلب متكدِّرٍ بالآثار مُتلوِّثٍ بأقذار الأغيار، ولذا قال المصنف:



(٥٣)

(أورد عليك الوارد ليستلمك من يدِ الأغيار ويحرِّرك من رقِّ الآثار)

فالأغيارُ والآثارُ التي هي من أعراض الدُّنيا وشهوات النَّفس غاصِبة لك لحبك لها وسكونك إليها، فأورد عليك الوارد ليستلمك قهراً مِن يدِ مَن غَصَبَكَ ويحرِّرك مِن مِلْكِيَّة مَن استرقَّك، فتكون حينئذٍ صالحاً لعبوديته ومشاهداً لعظمة ربوبيته[1]، كما قال المصنف:

---

(١) ومعنى هذه الحكمة والتي سبقتها والتي تليها؛ أن الواردات والعطايا القلبية الربانية، كالعلم والفهم والتوفيق والرؤى الصالحة والإلهامات والمشاهدات والتثبيت على الطاعات، إنما يعطيك الله إياها لتزداد بها إقبالاً على الله، وتذللاً بين يديه، وطاعة له، وعمقاً في العبودية، ومعرفةً لعظمة الله، لا لترى نفسك، أو تفتخرَ أو تُعظِّمَ نفسَك، أو تُعجَبَ بها وتغترَّ وتستكبر، فمن جاءته واردات ثم ازداد رؤيةً لنفسه؛ فقد فشل في الاختبار، ولم تكن الواردات عطاءً في حقه، وإنما استدراج.



(٥٤)

(أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودِك)

فإنّ وجودَك الشَّبيهَ بالسِّجن، هو شهودُك لنفسِك ومراعاتك لحظِّك، وشهودُك الشَّبيه بالفضاء في السِّعة هو أن تغيبَ عن ذلك بمشاهدتك عظمة ربّك، ولذا قال بعضُهم: سجنُك نفسُك إذا خرجت منها وقعت في راحة الأبد.



(٥٥)

(الأنوارُ مَطايا القلوب والأَسرار)

أي أن الأنوارَ الإلهيةَ التي ترد على قلب المريد، وتحصل غالباً من الأذكار والرِّياضات هي مطايا القلوبِ والأسرارِ، جَمْعُ سِرٍّ، وهو باطنُ القلب: أي توصلُها إلى مطلوبها الذي هو متوجهةٌ إليه، وهو دخولها حضرة القرب من الله تعالى، كما أنّ المطيّة تُوصل راكبها إلى مطلوبه.



(٥٦)

(النُّورُ جندُ القلب كما أنّ الظُّلمة جندُ النَّفس، فإذا أرادَ الله تعالى أن ينصرَ عبده أَمَدَه بجنود الأنوار، وقطع عنه مدد الظُّلم والأَغيار)

يعني أن النُّور للقلب في كونه يتوصل به إلى مقصده، وهو حضرة

الرَّبِّ بمنزلة الجند للأمير في كونه يتوصل به إلى مقصوده من قهر أعدائه، كما أنّ الظُّلمة التي هي من وساوس الشَّيطان جندُ النَّفس الأمارة بالسوء ـ دون المطمئنة، فإنها توافق العقل أبداً ـ.

ومقصد النفس الأمارة الشهوات والأغراض العاجلة، فلا يزال الحرب بينهما وبين العقل، فإذا أراد الله تعالى أن ينصر عبدَه: أي يعينه على قمع شهواته أمَّده: أي أمدّ قلبه الذي فيه العقل بجنود الأنوار: أي بالأنوار الشَّبيهة بالجنود أو بجنود هي الأنوار، وقطع عنه مدد الظُّلَم ـ بفتح اللام جمع ظلمة ـ أي مدداً هو الظلم .

وعطف الأغيار عليه من عطف المرادف، يعني وإذا أراد خذلانه، فعلى العكس من ذلك.

فعلى العبد أن يفزعَ إلى ربِّه عند التقاء الصَّفين، ويسأله الإعانة على النفس الأمارة بالسوء متوَّسلاً بسيد الكونين، قال ابن عبَّاد: وهذه العبارات الخمس من قوله: إنّما أورد عليك الوارد إلى هنا تفنن فيها صاحب الكتاب وكرَّرها بألفاظ مختلفة والمعاني فيها متقاربة، وهذه عادتُه في مواضع كثيرة من هذا الكتاب.



(٥٧)

(النُّور له الكشف، والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإقبال والإدبار)

يعني أنّ النَّور الذي يقذفه الله تعالى في قلب المريد، وهو العلم اللَّدني له

الكشف أي كشف المعاني كحسن الطاعة وقبح المعصية .

والبصيرة التي هي عين القلب لها الحكم: أي إدراك الأمر الذي شاهدته وكشف لها عنه بالنور، فإنّه كما لا يمكن إدراك البصر للمحسوسات إلا بالأنوار الظاهرة كالشمس والسراج لا يمكن إدراك البصيرة لشيء من المعاني إلا بالأنوار الباطنية.

والقلب له الإقبال على ما كُشِف للبصيرة، وحَكَمَت بحسنه كالطّاعة والإدبار عما كُشف لها، وحكمت بقبحه كالمعصية، وحينئذٍ تتبعه الجوارح؛ لما في الحديث: «ألا وإن في الجسد مُضْغَة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1]، كما تقدَّم.



(٥٨)

(لا تُفْرِحْك الطاعةُ؛ لأنها برزت منك، وافرح بها؛ لأنها برزت من الله إليك: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [٥٨: يونس])

أي لا يكون فرحك بالطاعة لأجل كونها برزت منك، فإنَّك إذا فرحت بها من هذه الحيثية أورثتك العجب المحبط لها؛ لأنك شاهدت أنها بحولك وقوَّتك، وإنّما يكون فرحُك بها لأجل كونها برزت من الله تعالى إليك، وتفضل

(١) فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه في صحيح البخاري١: ٢٠.

بها عليك، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٩٦: الصافات]، ولذا استدل بآية: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [٥٨: يونس].



(٥٩)

(قطعُ السَّائرين له والواصلين إليه عن رؤية أعمالهم، وشهود أحوالهم، أما السائرون؛ فلأنهم لم يتحقَّقوا الصِّدق مع الله تعالى فيها، وأمَّا الواصلون؛ فلأنه غيبَهم بشهوده عنها)

يعني أنَّ اللهَ تعالى حجبَ السَّائرين له عن رؤيةِ أعمالهم، ومنع الواصلين إليه عن شهودِ أَحوالهم[١]، فهو لفٌّ ونشرٌ مرتَّب، وخصَّ الواصلين بالأحوال وإن كانت لهم أعمال؛ لأنَّ تلك الأحوال التي هي الأعمال الباطنة الصالحة أفضل من الأعمال الظاهرة، فعبَّر في جانبهم بالأفضل، كما أنّه عبر في جانب السَّائرين بالأَعمال وإن كانت لهم أحوال أيضاً؛ لمناسبة ذلك لهم، فالسائر إلى الله تعالى لا يَرَى شيئاً من أعماله اتهاماً لنفسه بعدم كماله، والواصلُ غائبٌ في شهودِه حتى عن نفسه، فإنّه محالٌ أن يراه ويشهد معه سواه، فقد أسبغ الله نعمته على الفريقين، وأعطى الفريق الثَّاني أفضل المنزلتين.



---

(١) أي وبهذا تسلمهم من يد الأغيار.

(٦٠)

(ما بَسَقَتْ أغصانُ ذُلٍّ إلا على بِذْرِ الطَّمع)

يقال: بسقت النخلة إذا طالت، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾ [١٠: ق]، والأغصان جمع غصن، وهو ما تشعب عن سوق الشجر، وقد شبَّه هنا الذُّلّ بشجرة على طريق الاستعارة المكنية، وأثبت لها الأغصان تخييلاً وبَسَقَت ترشيح.

وإضافةُ بذر إلى طمع من إضافة الُمشبَّه به للمُشبَّه: أي طمعٌ شَبيه بالبذر: أي المبذور الذي تَنشأ عنه الشجرة.

والمراد لا تُغرس بذر الطَّمع في قلبك، فتخرج شجرةٌ من الذُّلّ وتتشعب أغصانها، فإنّ الطَّمعَ أصلُ جميع الآفات؛ لأنه موجبٌ للوقوع في عظيم المهلكات، فلا يَزال صاحبُه يتملَّق إلى النَّاس حتى يحصل له من نور يقينه الإفلاس، مع أن المؤمن ينبغي أن يحرص على عزّة إيمانه المتين، ويردد قوله سبحانه ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٨:المنافقون]، ولا يكون ذلك إلا باعتماده على مولاه، وقطع طماعيته فيما سواه، فإن مَن طَمِع في شيء ذَلَّ له وانقاد لحكمه حتى يقال: قاده وذلّله، وما ألطف قول بعضهم:

أَتَطْمَعُ في ليلى وتَعْلَمُ أنَّما تَقْطَعُ أَعناقَ الرجالِ المَطامعُ



(٦١)

(ما قادك شيءٌ مِثْلُ الوهم)

يعني أنّ انقيادَ النَّفس إلى الأمور الوهمية الباطلة أشدُّ من انقيادها إلى

الحقائق الثابتة، فتوهم النَّفع من المخلوقين هو السبب في الطَّمع في النَّاس، وهو في الحقيقةِ مبنيٌّ على غير أساس؛ لأنّ الطَّمعَ تصديقُ الظَّنِّ الكاذب، والطَّمع فيهم طمع في غير مطمع.

ولذلك كانت أربابُ الحقائق بمعزل عنه، فلا تتعلق همتهم إلا بالله تعالى، ولا يتوكَّلون إلا على الله تعالى، قد ترقَّت عن ملاحظة الأغيار قلوبُهم، فلم يحُلَّ فيها الطَّمع واتصفوا بصفات الكمال التي من أجلها الزَّهادة والورع، فأحياهم الله تعالى حياةً طيبة بالقناعة، ولم يكشف أحدٌ منها لمخلوق قناعه تخلصاً من رقِّ الأغيار وتطلباً لأن يكون من الأحرار، كما قال المصنف:



(٦٣)

(أنت حُرٌّ مما أنت عنه آيِسٌ، وعبدٌ لما أنت له طامعٌ)

أي أنت حُرٌّ من كلِّ شيء أنت عنه: أي منه آيس؛ لأنّ اليأسَ من الشيء دليل على فراغ القلب منه، وذلك عينُ الحرية منه، كما أنّ الطَّمع في الشَّيء دليل على الحبِّ له، وفرط الاحتياج إليه، وذلك عين العبودية له، وقوله لما أنت له: أي فيه طامع، فالطَّامعُ عبدٌ واليائسُ حرٌّ، كما قيل:

العبدُ حُرٌّ أن قَنِعْ   والحرُّ عبد أن قَنَعْ
فاقنَع ولا تَطْمَعْ فَمَا   شيءٌ يَشِينُ سوى الطَّمع

وقوله: «إن قنِع» في آخر المصراع الأول ـ بكسر النون ـ بمعنى رضي، والثاني ـ بفتحها ـ بمعنى سأل.

وقوله: «فاقنَع» ـ بفتح النون ـ أمر من القناعة، وما ألطف قول بعضهم:

اضْرَعْ إلى الله لا تَضْرَعْ إلى الناس   واقْنَعَ بعزٍّ فإنَّ العِزَّ في الياس
واستغنِ عن كلِّ ذي قُربى وذي رَحم   إن الغني مَن استغنى عن النّاس



(٦٣)

(مَن لم يقبل على الله تعالى بملاطفات الإحسان قُيِّد إليه بسلاسل الامتحان)

أي مَن لم يقبل على الله تعالى بسبب ملاطفاته هي الإحسان قُيِّد ـ بالبناء للمفعول ـ أي قاده الله إليه بالامتحانات الشَّبيهة بالسلاسل.

فالنُّفوس الكريمة تُقبل على الله تعالى لإحسانه، والنُّفوس اللئيمة لا ترجع إليه إلا ببلائه وامتحانه، ومرادُ الرَّبِّ من العبد رجوعُه إليه طوعاً أو كرهاً.



(٦٤)

(مَن لم يشكر النِّعم فقد تعرَّض لزوالها، ومَن شكرها فقد قَيّدها بعِقالها)

فيه تشبيهُ النِّعم بالإبل التي شأنها النِّفار إن لم تُقَيَّد بالعِقال على سبيل المكنية، وإثبات العِقال تخييل، والتَّقييد ترشيح.

ومن كلامهم: الشُّكر قَيدٌ للموجود وصيدٌ للمفقود، وناهيك قوله

تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [٧: إبراهيم]، وهو لغة: فعل يُنبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعماً على الشاكر أو غيره سواء كان ذكراً باللسان، أو عملاً بالأركان، أو اعتقاداً بالجَنان، كما قال الشَّاعر:

وما كان شكري وافياً بنوالكم ... ولكنني حاولت في الجَهْدِ مذهباً
أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً ... يدي ولساني والضَّميرَ المحجبا

وفي الاصطلاح: صرفُ العبدِ جميعَ ما أَنعم الله به عليه فيما خُلِقَ لأجله، وقد قيل للجُنيد[1] ـ وهو ابن سبع سنين ـ يا غلام ما الشُّكر؟ فقال: أن لا يُعصَى اللهُ تعالى بنعمه.



(٦٥)

(خف من وجود إحسانه إليك، ودوام إساءتك معه؛ أن يكون ذلك استدراجاً لك: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [١٨٢: الأعراف])

أي خف ـ أيها المؤمن ـ من وجود إحسانه سبحانه عليك مع دوام إساءتك معه بترك أوامره أن يكون ذلك استدراجاً: أي تدريجاً لك شيئاً فشيئاً، حتى يأخذك بغتة، فإن الخوف من الاستدراج بالنِّعم من صفات المؤمنين، كما

(١) وهو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي، قال ابن الأثير: إمام الدنيا في زمانه، من كلامه: طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به، من مؤلفاته: دواء الأرواح، (ت٢٩٧هـ). ينظر: الأعلام٢: ١٤٠.

أن عدم الخوف منه مع الدوام على الإساءة من صفات الكافرين.

قال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [١٨٢: الأعراف] أي لا يشعرون بذلك، وهو أن يلقي في أوهامهم أنهم على شيء، وليسوا كذلك يستدرجهم بذلك حتى يأخذهم بغتة، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ إشارة إلى مخالفتهم وعصيانهم ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾: أي فتحنا عليهم أبواب الرفاهية: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ ﴾ من الحظوظ الدنيوية ولم يشكروا عليها ﴿ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾: أي فجأة ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [٤٤: الأنعام]: أي آيسون قانطون من الرحمة .

وقيل في قوله تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [١٨٢: الأعراف]، نمدهم بالنعم، وننسيهم الشكر عليها، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا، ومن أنواع الاستدراج ما ذكره المصنف بقوله:



(٦٦)

(من جهل المريد أن يُسيء الأدب، فتؤخر العقوبة عنه، فيقول: لو كان هذا سوء أدب لقطع الإمداد وأوجب الإبعاد، فقد يَقطع المدد عنه من حيث لا يشعر ولو لو يكن إلا منعَ المزيد، وقد يُقام مَقام البُعدِ وهو لا يدري، ولو لم يكن إلا أن يُخلِّيَك وما تُريد)

يعني أنّ مِن جَهْل المريدِ بحقائق الأشياء أن يُسيء الأدب إمّا مع الله تعالى بنحو الاعتراض عليه في أفعاله كأن يقول: ليت هذا الأمر لم يكن، وإما

مع المشايخ بنحو الاعتراض عليهم، وعدم قبول إشارتهم فيما يشيرون به عليه، وإما مع بعض الناس بنحو الازدراء بهم.

فتؤخر العقوبة عنه: أي عن ذلك المريد بأن لا يُعاقب في ظاهره بالأسقام والبلايا[1]، ولا في باطنه بحسب زعمه، فيقول: لو كان الذي وقع منه سوء أدب لقطع الإمداد ـ بكسر الهمزة مصدر أمده، أو بفتحها جمع مدد ـ أي ما يَرِد من بحر إفضال الواحد الصمد.

وأوجب الإبعاد أي بعدي عنه، وإنّما كان ذلك جَهلاً من المريد؛ لأنه قد يَقطع المدد عنه من حيث لا يشعر، ولو لم يكن من قطع المدد عنه إلا منع المزيد: أي الزيادة من المدد لكان كافياً في قطعه، فجواب لو محذوف.

وقد يقام ـ أي ذلك المريد ـ مقام أي في مقام البعد، وهو لا يدري، ولو لم يكن من إقامته في مقام البعد إلا أن يخليك ـ أيها العبد المسيء ـ وما تريد بأن يسلط نفسك عليك، ويَمنع نصرتك عليها لكان ذلك كافياً في البعد.

وفي هذا التفات من الغيبة إلى الحضور، فإنّه التفت إلى مخاطبةِ المريد كأنه حاضر بين يديه، ولَعَمْرِي إنّه يَستحقُّ هذا التَّصنيف، فإن قوله: «لو كان هذا سوء أدب» يشعر برضاه عن نفسه الذي يُوجب الملام عليه، فإن الرضا عن

---

(١) بين النبي ﷺ أن تأخير العقوبة قد يكون علامة غضب، ليعاقب بالذنب في الآخرة، قال ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عَجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشرَّ أَمْسَكَ عنه بذنْبِه، حتى يوافيَ به يوم القيامة» حديث صحيح، أخرجه الترمذي رقم ٢٣٩٦، والحاكم رقم ١٢٩١، عن أنس رضي الله عنه، ونحوه ابن حبان رقم ٢٩١١.

النفس لا ينشأ عنه إلا كلُّ ضَيْر، كما أنّ اتهامها وعدم الرضا عنها أَصل كلِّ خير، ومن إساءة الأدب مع بعض الناس ما ذكره المصنف بقوله:



(٦٧)

(إذا رأيت عبداً أقامه الله تعالى بوجود الأوراد، وأدامه عليها مع طول الإمداد، فلا تستحقرن ما منحه مولاك؛ لأنك لم تر عليه سيما العارفين، ولا بهجة المحبين، فلولا وارد ما كان ورد)

اعلم أنّ عباد الله تعالى المخصوصين على قسمين:

منهم: مَن أقامه الحقّ بوجود الأوراد، بأن أظهرها منه، والمراد بها ما يقع بكسب العبد من أنواع العبادات الموظفة على الأوقات كصلاة وصيام وذكر ونحو ذلك، وهؤلاء هم العباد والزهاد الذين عملوا لرفع الدرجات في أعلي الجنات، فعملوا لحظوظهم ولمن يمحضوا النظر إلى وجه ربهم.

ومنهم: مَن أخذوا عن حظوظهم، ولم يطلبوا إلا وجه ربهم، وهم العارفون والمحبون.

فإذا رأيت عبداً من الفريق الأول أقامه الله تعالى بوجود الأوراد وأدامه عليها: أي جعله مداوماً عليها مع طول الإمداد[١]: أي إدامة المعونة والتيسير فلا تستحقرن ما منحه: أي أعطاه مولاه، وعلَّل الاستحقار بقوله: لأنك أي

---

(١) ويجوز أن يكون بفتح الهمزة، الأمداد، أي الأزمنة، ويكون المعنى أن استمرار المسلم على أوراده وثباته على أعماله هو علامةٌ على التوفيق والإمداد من الله، ولو لم يرد علامة أخرى.

لكونك لم تر عليه سيما العارفين: أي علامتهم من ترك الحظوظ والإرادات، ولا بهجة المحبين من الشَّغف بمرضاة محبو بهم من غير نظر إلى عليّ الجنات.

ثمَّ علَّل عدم الاستحقار بقوله: فلولا وارد أي تجل إلهي أورده الله تعالى على قلبه ما كان ورد: أي عبادة فهو لم يخرج عن دائرة العناية ولم يبعد عن الملاحظة والرعاية، فلا تستقل ما منحه مولاه، فإن كلَّ فريق قام بحقِّ المقام الذي أقامه الحقُّ فيه وتولاه، كما قال المصنف:



(٦٨)

(قومٌ أقامهم الحقّ لخدمته، وقوم اختصهم بمحبته: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ [٢٠: الإسراء])

أي قوم اختارهم الحقُّ تعالى لخدمته حتى صلحوا لجنته، وهم العابدون، وقوم اختصَّهم بمحبَّته حتى صلحوا لدخول حضرته، وهم العارفون والمحبون، والكلُّ منتسبون إلى خدمته لكن خدمة الأولين أكثرها بالجوارح، والآخرين أكثرها بالقلوب على حسب ما ييق بكلِّ من القسمة الأزلية التي منحها لهم علام الغيوب، كما قال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ [٢٠: الإسراء] أي ممنوعاً، فإذا شهد العبد انفراد الله تعالى بهذه الإقامة رجع عن الاحتقار، فإن ذلك من الجهل بحكمة العزيز الغفار.



(٦٩)

(قلما تكون الواردات الإلهية إلا بغتةً؛ لئلا يدعيها العُبَّاد بوجود الاستعداد)

أي أن الواردات الإلهية التي هي الأسرار العرفانية يَقِل حصولها غير بغتة: أي فجأة من غير استعداد لها بعبادة؛ لئلا يدعيها العُبَّاد ـ بضم العين المهملة وشد الموحدة جمع عابد ـ بوجود الاستعداد لها، فإن تحف الله تعالى وهداياه مقدسة عن أن تعلَّل بالأعمال؛ لأنها من مواهب الغَنيّ المِفْضال، فحصولها بغير استعداد كثير، وأمّا حصولها بالاستعداد فنزرٌ يسيرٌ.



(٧٠)

(من رأيته مجيباً عن كلِّ ما سُئل ومُعبراً عن كلِّ ما شَهد وذاكراً كلَّ ما علم فاستدل بذلك على وجود جهله)

يعني أنك إذا رأيت إنساناً مجيباً عن كلِّ ما سُئل فيه من المسائل، ومُعبراً عن كلِّ ما شهده: أي ذاقه بباطنه من العلوم والمعارف، وذاكراً كلّ ما علم فاستدل بذلك على وجود جهله.

أما الإجابة عن كلِّ سؤال فلاقتضائها منه الإحاطة بجميع المعلومات وذلك محالٌ في حقِّه، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [٨٥:

الإسراء]، وما ألطف قول بعضهم:

ومَن كان يَهوى أن يُرى مُتصَدِّراً ويَكره لا أَدري أُصيبت مقاتِلُه

وأمَّا التعبير عن كلِّ مشهود؛ فلأن فيه نوعاً من إفشاء السِّرِّ الذي أمروا بكتمه، فإنهم قالوا: قلوبُ الأحرار قبورُ الأسرار، ولأنّ مداركَ الشُّهود يَضيق عنها نطاق التعبير بالعبارة، ولذلك اكتفى العارفون فيما بينهم بالإشارة كما قال بعضُهم: علمنا إشارة فإذا صار عبارة خفي.

وأمّا الذكر لكلِّ معلوم فلعدم تفرقته بين المعلومات، وقد يكون له علم يختصُّ به، فإذا ذاكره لغيره استغربه، كما قال بعضُ العارفين:

إني لأكتمُ من عِلْمي جواهرَه كي لا يَرى الحقَّ ذو جهل فَيَفْتَتِنا



(٧١)

(إنما جَعل الدَّارَ الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين؛ لأنّ هذه الدَّار لا تسع ما يُريد أن يُعطيَهم، ولأنه أَجَلَّ أقْدارَهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاءَ لها)

أي إنما جعل الله تعالى الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين دون الدنيا لوجهين:

الأول: أنّ هذه الدّار لا تسع ما يريد أن يعطيهم من صنوف النِّعم؛ لما في عدة أخبار من أن الله تعالى يُعطي لبعض أهل الجنة أضعاف أمثال الدنيا .

والثاني: أنه أجل أي أعظم أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها، فإن كلَّ ما يَفنى وإن طالت مدته كلا شيء[١]، بل أعطاهم في الجنة النعيم المقيم، ومتعهم بالنظر إلى وجهه الكريم، أسأل الله بجاه نبيه العظيم أن يجعلنا منهم، إنه رؤوف رحيم.



(٧٢)

(من وجد ثمرة عمله عاجلاً، فهو دليلُ على وجود القبول آجلاً)

يعني أنّ مَن وَجَدَ ثمرةَ عمله الصَّالح عاجلاً من استئناس مكاشفات، وحلاوة مناجاة، كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ: «وجعلت قرّة عيني في الصَّلاة»[٢]، فهو دليلٌ على وجود القبول آجلاً، قال بعضُ المحققين في قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [٤٦: الرحمن] جنة معجلة، وهي حلاوة الطاعات ولذاذة المناجاة والاستئناس بفنون المكاشفات[٣]، وجنة مؤجلة، وهو فنون المثوبات وعلو الدرجات، اهـ.

---

(١) قال تعالى: ﴿ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

(٢) فعن أنس رضي الله عنه في سنن النسائي ٧: ٦١، ومسند أحمد ٢١: ٤٣٣، والمستدرك ٢: ١٧٤، وصححه.

(٣) ومن أدلة تعجيل الجزاء في الدنيا قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ [الزمر: ١٠]، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ الله ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»، أخرجه مسلم رقم ٢٦٤٢، ويروى عن ابن المبارك أنه قال: « إن في الدنيا جنة لو دخلتها لم تَشْتَقْ إلى جنة الآخرة، ألا وهي معرفة الله »، والمعنى أن الجنة مخلوق ومعرفة الله الخالق نعيمٌ أعظم من نعيم المخلوق.

ولا ينبغي للعامل إذا وجد الحلاوة أن يفرح بها أو يقف معها؛ لأنه في الظاهر يكون قائماً لله تعالى، وفي الباطن إنما قام لحظّ نفسه، بل لا ينبغي أن يكون عمله لنيلها؛ لما فيها من اللذة والحظ، وذلك يقدح في إخلاص عبادته وصدق إرادته، وليكن اعتناؤه بحصولها لتكون ميزاناً لأعماله ومحكاً لأحواله.



(٧٣)

(إذا أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر فيما ذا يقيمك)

هذه الحكمة تشير إلى قوله ﷺ: «مَن أراد أن يعلم منزلته عند الله تعالى فلينظر كيف منزلة الله تعالى من قلبه»(١)، ومما يدور على ألسنة العوام: إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر في أي شيء أقامك، وفي الحديث: «اعملوا فكلٌّ ميسرٌ لما خُلِق له»، فإذا رضيك الله تعالى ـ أيها المريد ـ لحسن طاعته، فاعرف قدرها، واشكره على عظيم نعمته(٢).



(١) فعن جابر ﷺ، قال ﷺ: «يا أيها الناس، إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر في الأرض، فارتعوا في رياض الجنة، قالوا: وأين رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر، فاغدوا وروحوا في ذكر الله تعالى، وذكروه أنفسكم من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله تعالى فلينظر كيف منزلة الله تعالى عنده، فإن الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه» في المستدرك١: ٦٧١، وصححه.

(٢) ومن كان في كَسَلٍ أو غفلة أو لهو أو معصية أو فساد أو إفساد أو تعلق بدنيا أو انشغال بها عن الآخرة؛ فذلك دليل على أنه مقام البعد عن الله.

(٧٤)

(متى رزقك الله تعالى الطاعة والغنى به عنها فاعلم أن قد أسبغ عليك نعمة ظاهرة وباطنة)

أي متى رزقك الله تعالى الطاعة التي هي امتثال المأمورات واجتناب المنهيات في ظاهرك، والغنى به عنها بأن لا تركن إليها بباطنك، فاعلم أنّه قد أسبغ: أي أتمّ عليك نعمه: ظاهرةً وهي تلك الطاعات، وباطنة وهي معرفتُك التي باعدتك عنها، وأوجبت لك رفيع الدرجات.

فإنّ المطلوب من العبد شيئان: إقامة الأمر في الظاهر، والتَّعلُّق بالله تعالى لا غيره في الباطن، فمَن رزقه الله تعالى هذين الأمرين فقد أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وأوصله إلى غاية أمله في الدارين.

وقد كان أبو بكر الوراق رضي الله عنه يقول: إني لأصلي الرَّكعتين، وأنصرف عنهما كأني أنصرف عن السرقة استحياء منه.



(٧٥)

(خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك)

أي خيرُ شيءٍ تطلبُه من الله تعالى ما هو طالبه منك، من الاستقامة على سبيل العبودية له، فإن هذا خيرٌ لك من طلبك لحظوظك، ومراداتِك دنيويةً

كانت أو أُخروية[١]، ومن دعاء أبي القاسم الجُنيدِ: «اللهم اجعل غاية قصدي إليك ما هو لك، ولا تجعل قصدي إليك ما أطلبه منك».



(٧٦)

(الحزنُ على فقدان الطَّاعة مع عدم النهوض إليها من علامات الاغترار)

يعني أنّ الحزنَ الكاذب على فُقدان الطاعة ـ بكسر الفاء وضمها ـ أي عدم وجودها في الحال، مع عدم النهوض إليها في المستقبل؛ من علامات الاغترار، وهو التَّعلق بما لا حقيقة له، فليس بمقام السالكين الأبرار.

وإنما مقامُهم الحزنُ الصَّادق مع النهوض إليها والبكاء عليها، فإن صاحب هذا الحزن يقطع من طريق الله تعالى في كل شهر ما لا يقطعه غيره في سنين، وفي الحديث: «إن الله تعالى يحبُّ كلَّ قلبٍ حَزين»[٢]، وقد كان ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكر.



---

(١) لأن الله تكفل بالدنيا، ووعد بالآخرة إن أحسنت وعملت، وطالبك بالأعمال، فاطلب منه ما طالبك بك من استقامة وعمل أن يوفقك إليه، قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقال: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

(٢) فعن أبي الدرداء ﵁، قال ﷺ: «إن الله يحب كل قلب حزين» في المستدرك٤: ٣٥١، وصححه.

(٧٧)

(ما العارف مَن إذا أَشار وجد الحقّ أقرب إليه من إشارته، بل العارف مَن لا إشارة له لفنائه في وجودِه وانطوائه في شهودِه)

يعني ليس العارف الكامل في المعرفة مَن إذا أَشار إلى شيءٍ من أَسرار التَّوحيد وَجَدَ الحقَّ تعالى وشَهده قبل تلك الإشارة؛ لأنه حينئذٍ يكون باقياً مع نفسه، وملاحظاً أنّ هناك إشارةً ومشيراً، فهو مع الأغيار.

بل العارف الكامل مَن لا إشارة له أَصلاً مشهودةً لفنائه عنها في وجوده تعالى، فلا يشهد إلا إياه.

وقوله: «وانطوائه في شهوده» عطفُ تفسير.

والإشارةُ عند الصوفية هي: إفادة أسرار التوحيد بالكناية والتلويح، قال الشِّبليّ[١]: وكلُّ إشارةٍ أَشار بها الخلق إلى الحق، فهي مردودةٌ عليهم حتى يشيروا إلى الحقِّ بالحقِّ، وليس لهم إلى ذلك طريق، اهـ، ولذا قال الشيخ

---

(١) وهو دلف بن جحدر الشبلي، أبو بكر، اشتهر بكنيته، نسبته الى قرية شبلة من قرى ما وراء النهر، كان في مبدإ أمره والياً في دنباوند من نواحي رستاق الريّ، وولي الحجابة للموفق العباسيّ، وكان أبوه حاجب الحجاب، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، فاشتهر بالصلاح، له شعر جيد، سلك به مسالك المتصوفة، وللدكتور كامل مصطفى الشيبي «ديوان أبي بكر الشبلي» جمع فيه ما وجد من شعره، ومجاهداته في أول أمره فوق الحد، ويُقال: إنه اكتحل بكذا وكذا من الملح ليعتاد السهر ولا يأخذه نوم، وكان يبالغ في تعظيم الشرع المطهر، وكان إذا دخل شهر رمضان المبارك جد في الطاعات ويقول: هذا شهر عظمه ربي فأنا أولى بتعظيمه، (٢٤٧ – ٣٣٤ هـ، ينظر: وفيات الأعيان٢: ٢٧٣، والأعلام٢: ٣٤١.

يوسف العَجمي[١]: مَن تكلَّم في مقام الجمع، فليس بمتكلِّم، وإنّما المتكلِّم الحقُّ سبحانه وتعالى على لسان عبده، وهو قوله في الخبر القدسي: «فبي يَسمع وبي يُبصر وبي يَنطق».

وسئل بعضُهم عن الفناء فقال: هو تبدو العظمة على العبد، فتنسيه الدنيا والآخرة والدرجات والأحوال والمقامات والأذكار، وتُفنيه عن كلِّ شيء حتى عن نفسه، وعن فنائه عن الأشياء، وعن فنائه عن الفناء، فيَسْتغرق في التَّعظيم، اهـ.



(٧٨)

(الرَّجاء ما قارنه عملٌ، وإلا فهو أمنيةٌ)

يعني أنّ الرَّجاء الصَّادق الذي هو مقام شريف من مقامات اليقين، هو ما قارنه عمل؛ لأنّ الرَّجاءَ الحقيقي ما كان باعثاً على الاجتهاد في الأعمال؛ لأنّ من رجا شيئاً طلبه، وإلا فهو أمنية: أي مجرد أُمنية لا طائل تحتها.

وفي الحديث: «الكيس ـ أي العاقل ـ من دان نفسه ـ أي حاسبها ـ وعمل لما بعد الموت، والعاجزُ مَن أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله تعالى الأماني»[٢].

---

(١) وهو يوسف بن عبد الله بن العجمي الكوراني، جمال الوقت، كان ذا طريقة في الانقطاع والتسليك، وله التلامذة الكثيرة، وعدة زوايا، ت٧٦٨هـ، ينظر: طبقات الأولياء١: ٤٩٢.

(٢) فعن شداد بن أوس رضي الله عنه، قال ﷺ: «الكيس مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجزُ مَن أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله» في سنن الترمذي٤: ٦٣٨، وحسنه، وسنن ابن ماجة٢: ١٤٢٣.

وقال الحسن رضي الله عنه (١): إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدُّنيا، وليس لهم حسنةٌ يقول أحدُهم: أحسن الظنّ بربي، وهو يكذب لو أحسن الظَّنَّ بربه لأحسن العمل، وتلا قوله تعالى: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [٢٣: فصلت].

ويرحم الله تعالى القائل:

يا مَن يريدُ منازلَ الأبدالِ ... من غير قصدٍ منه للأعمالِ
لا تطمعَنْ فيها فلست من أهلها ... إن لم تزاحِمْهُم على الأحوالِ



(٧٩)

(مطلب العارفين من الله تعالى الصِّدق في العبودية والقيام بحقوق الربُّوبية)

يعني أن مطلبَ العارفين من ربِّهم أعلى من مطلب غيرهم، سواء كانوا عُبّاداً أو زُهّاداً، فإن مطلبَ العارفين إنّما هو الصِّدق: أي الإخلاص في العبودية(٢)، والقيام بحقوق الربوبية فقط، من غير مراعاة حظّ ولا بقاءِ مع نفس.

---

(١) وهو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فنّ من علم وزهد وورع وعبادة، (٢١-١١٠هـ). ينظر: وفيات ٢: ٦٩-٧٢، الأعلام ١: ٢٤٢.

(٢) ولا يكون صدق العبودية إلا إذا شملت كمال الطاعة لله، مع الذلة والتواضع والخضوع له، مع الحب والرغبة والإقبال، بلا نفور ولا استثقال.

وأمّا مَن عداهم، فلم يفارقوا الحظوظ والأغراض في مطالبهم، وشتان بين مَن همّتُه الحورُ والقصور(١)، وبين مَن هِمّتُه رفعُ السِّتور ودوام الحضور.



(٨٠)

(بسطك كي لا يُبقيك مع القبض، وقبضك كي لا يتركك مع البَسط، وأخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه)

أي بسطك مولاك ـ أيها العارف ـ كي لا يُبقيك مع القبض الذي فيه قهر لنفسك، وإن كان فيه نفع لك، وقبضك كي لا يتركك مع البسط الذي فيه حظٌّ لها، وأخرجك عنهما بفنائك عن نفسك وبقائك به، كي لا تكون لشيء دونه.

فالقبض والبسط من الأحوال التي يتلون بها العارفون، وهما بمنزلة الخوف والرجاء للمريدين المبتدئين(٢).

---

(١) فلا يلتفتون في عملهم إلى الأجر والثواب والنعيم والجنة والحسنات، بل يلتفتون إلى رب الحسنات، إذ يعلم العارفون أن الأعمال لا تنفع بنفسها، بل الله هو النافع فيها، فيرون الغنى بالله لا بالطاعة.

(٢) يَعُدُّ علماءُ التزكية الخوف والرجاء من أحوال المبتدئين، والقبضَ والبسطَ من أحوال المتوسطين، والهيبة والأُنْس من مقامات المتحققين العارفين، والبسط انشراح، والقبض ضيق، قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وسببهما الواردات التي تَرِدُ على باطن العبد، فإذا تجلى للقلب وارد الجلال حصل فيه القبض، وإذا تجلى له وارد الجمال حصل فيه البَسط.

والمقصود هاهنا أنهما وصفان ناقصان بالنسبة إلى ما فوقهما، وهو فناؤه عن نفسه وبقاؤه بالله تعالى، فإن بقاءَ العارفِ مع شيءٍ من أوصافِه المؤنِسَةِ أو المؤلِمَةِ؛ حِجابٌ عن مولاه.



(٨١)

(العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا، ولا يقف على حدود الأدب في البسط إلا قليل)

يعني أنّ العارفين في مقام البسط أكثر خوفاً من أنفسهم في مقام القبض؛ لأنّ البسطَ فيه مناسبة لهوى أنفسهم، فيخافون حينئذٍ من الوقوع فيما تدعو إليه من التَّحدث بالأحوال والكرامات، ورُبَّما كان في ذلك الطَّرْدُ عن علي الدرجات، ولهذا تأكد عليهم مراعاة الأدب في هذا المقام الذي زلت فيه أقدام كثير من السادة الفخام، وأمّا القبض فهو أقربُ إلى وجودِ السَّلامة كما بين ذلك المصنِّف بقوله:



(٨٢)

(البسطُ تأخذ النفس منه حظَّها بوجودِ الفرح، والقبض لا حَظَّ للنَّفس فيه)

فإن النَّفس متى أخذت حظَّها من البسط لا تتمالك حتى تقع في سوء الأدب من التحدث بإدراك المقامات والحصول على خوارق العادات وغير ذلك مما هو مناف للعبودية، بخلاف القبض فإنه لا حظّ للنَّفس فيه بالكلية، ولذا آثره العارفون على البسط، كما قال بعضُهم: القبضُ حقُّ الحقّ منك، والبسط حظُّك منه، ولَأَنْ تكونَ بحقِّ ربِّكِ خيرٌ مِن أن تكون بحظِّ نفسك.



(٨٣)

(رُبَّما أَعطاك فمنعك ورُبَّما منعك فأعطاك)

أي ربما أَعطاك مولاك ما تميل إليه من الشَّهوات، فمنعك التوفيق لعظيم القُرَبِ والطاعات، ورُبَّما منعك من شهواتك فأعطاك التوفيق الذي هو بُغية السالك، وحينئذٍ فيجب على المريدِ ترك التَّدبير وتفويض الأمر إلى العليم الخبير، ولا يَنظر لظاهر العطاء قبل أن يَنكشف عنه الغطاء.



(٨٤)

(متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء)

أي متى فتح لك مولاك باب الفهم عنه في المنع، بأن فهمت أنّه بمنعه أشهدك قهره، وعرفت حكمتَه فيه عاد المنع: أي صار عين العطاء، كما سيقول المصنف: متى أعطاك أشهدك بِرَّه، ومتى منعك أشهدك قهره.



(٨٥)

(الأكوانُ ظاهرُها غِرَّةٌ وباطنُها عبرةٌ، فالنَّفس تنظرُ إلى ظاهر غرَّتها، والقلبُ يَنظر إلى باطن عبرتها)

يعني أنّ الأكوانَ بمعنى المكوِّنات التي فيها حظٌّ للنَّفس من متاع الدنيا وزهرتها، ظاهرها غِرَّةٌ ـ بكسر الغين المعجمة ـ أي سبب في الاغترار بها لحسنها وبهجتها وباطنها عبرة أي سبب في الاعتبار بها لقبحها وخستها.

فالنَّفس تنظرُ إلى ظاهر غِرّتها: أي إلى غِرَّتها الظاهرة، فتغترُّ بها حتى تهلك صاحبها، والقلب: أي العقل ينظر إلى باطن عبرتها: أي إلى عبرتها الباطنة، فيعتبر بها ويَسلم من شرِّها، فمَن نظر إلى ظاهرها قال: حلوةٌ خضرةٌ، ومَن نظر إلى باطنها قال: جيفةٌ قذرةٌ.



(٨٦)

(إن أَردت أن يكون لك عِزٌّ لا يَفنى، فلا تَسْتَعِزَّنَ بعزٍّ يَفنى)

العِزُّ الذي لا يَفنى هو الغِنى عن الأسباب كلِّها بوجودِ مسببها، فالتَّعلُّق به سبحانه عِزٌّ لا يَفنى، وأمَّا التَّعلُّق بالأسباب مع الغيبة عن مسببها فهو العِزُّ الذي يَفنى.

وليس لك ـ أيها المريد ـ إلا أحدهما؛ لأنهما ضدّان لا يجتمعان، فإن

اخترت التَّعلُّق بمسبب الأسباب، فنعمت الحالة التي تكون عليها، وإن اخترت التَّعلُّق بالأسباب خذلتك وأسلمتك أحوج ما تكون إليها، وما ألطف قول بعض العارفين:

اجعلْ بربِّك شأن عِزْ زِكَ يَستَقِرُّ ويَثْبُتُ
فإن اعتزَزْتَ بمَن يمو تُ فإن عِزَّك مَيِّتُ



(٨٧)

(الطَّي الحقيقي أن تطوي مسافة الدُّنيا عنك، حتى ترى الآخرة أَقرب إليك منك)

يعني أنّ الطَّيَّ الحقيقي ليس هو أن تَطوي مسافة الأرض، حتى تكون من أهل الحظوة، فإن ذلك رُبما كان استدراجاً، وإنّما هو أن تطوي ـ أيها المريد ـ مسافة الدنيا عنك بأن لا تركن إليها، بل تغيب عنها، حتى تَرَى الآخرة أقرب إليك منك، فإنّه متى أشرق نور اليقين في قلبك تنعدم الدنيا في نظرك، وترى الآخرة حاضرة لديك، ومتى شاهدت أن ذاتك فانيةٌ، فإنَّك ترى الآخرة أَقرب إليك منك بهذا الاعتبار.

ومن كانت هذه مشاهدتُه، فلا يُتَصوَّر منه حُبّ الغائب الفاني، وهو الدنيا، واستبداله بالحاضر الباقي، وهو الآخرة، ولذلك كان أصل الرغبة في الدنيا وإيثارها على الآخرة ضعفُ اليقين.



(٨٨)

(العطاءُ من الخلق حرمان، والمنعُ من الله تعالى إحسانٌ)

يعني أنّ العطاءَ من الخلق مع الغفلةِ عن الحقِّ حرمانٌ في نفس الأمر؛ لأنه يوجب حبَّهم والتَّعلُّق بهم، وصرفُ الوقت في مكافأتهم، وذلك يُوجب ذهول القلب عن الحقِّ، فيفوته من المعارف ما لا يحصى، وأي حرمان أعظم من ذلك، وما ألطف قول بعضهم:

فلا ألبِسُ النَّعما وغيرُك مُلْبِسي ولا أقبلُ الدُّنيا وغيرُك واهبي

والمنع من الله تعالى إحسانٌ في الحقيقة لاقتضائه الالتجاء إليه، ودوام وقوف السائل بين يديه، وذلك عبودية، وأي إحسان أعظمُ من التَّوفيق لها.



(٨٩)

(جَلَّ رَبُّنا أن يُعامله العبدُ نقداً فيُجازيه نَسيئة)

أي تعالى رَبُّنا عن أن يُعامله العبدُ بالعمل الصَّالح نَقداً: أي معاملة ناجزةً، فيجازيه نسيئةً: أي مجازاةً مؤجلةً، فإن جزاء المعاملة لا يختصُّ بالدَّار الآخرة.

بل رُبَّما أظهر الحقُّ تعالى منه لبعض أوليائه أُنموذجاً يحملهم على الاجتهاد في الأعمال.

ومن أعظم المعجَّل مجازاته على الحسنة بالتوفيق لحسنة أُخرى(١)، وبالحفظ من معصية يكون العبد بصددها، ومن ذلك الحفظُ من الآفات والمكاره، ومنه ما أشار المصنِّفُ بقوله:

(٩٠)

(كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلاً)

أي كفى من مجازاته سبحانه لك على الطَّاعة أن رضيك ـ أيها العبد ـ الضَّعيف أهلاً لها، فإنّ خدمةَ ملك الملوك مما تتطاول إليها الأعناق، فكونه رضيك لها من أعظم النِّعم التي امتنَّ بها عليك الكريم الخلاق، ومن ذلك ما أشار له المصنِّف أيضاً بقوله:

(٩١)

(كفى العاملين جزاءً ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته، وما هو مورده عليهم من وجودِ مؤانستِه)

أي كفاهم في المجازاة ما هو فاتحُه على قلوبهم في حال طاعته من الإلهامات السَّنية والمواهب اللدنية، حتى يجدوا حلاوةَ المناجاة مع الملك الخلاّق التي يُعبِّرُ عنها أهل الطريقة: بالأحوال والمواجيد والأذواق.

وكفاهم أيضاً ما هو مورده عليهم: أي على قلوبهم من وجودِ مؤانسته

(١) قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ [الزمر: ١٠].

البهية، وسرور القلب بشهود صفاته الجمالية، فإن هذا من علامةِ الرِّضوان الأكبر الذي يتلاشى عنده كلّ شيء ويحقر.

ﮓﮓﮓ

(٩٢)

(من عبده لشيء يرجوه منه، أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه؛ فما قام بحقِّ أوصافه)

يعني أنّ مَن عبده تعالى لشيءٍ يَرجوه منه: كالثواب أو ليدفع عن نفسه بطاعته وردّ عقوبته يوم الحساب(١)، فما قام بحقِّ أوصافه سبحانه؛ لأنّ حقَّ أوصافه أن يعبد لذاته لا طلباً لثوابه، ولا خوفاً من عقابه، فإن العبد يستحقُّ عليه مولاه كلّ شيء، ولا يستحقُّ هو شيئاً على مولاه، وكان أبو حازم المدني(٢)

---

(١) أو طلباً لفتح أو كشفٍ، أو لدنيا أو جاه، فكل ذلك مخلوق، ولا يجوز أن يكون المقصودُ إلا الربّ الخالق المعبود، فكل ما سواه مخلوق، ولا يكون المخلوقُ مقصوداً، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ١١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥]، والجنة مرغوب مطلوبٌ، لا معبودٌ مقصودٌ.

(٢) وهو محمد ظافِر بن محمد حسن ابن حمزة ظافر الطرابلسي المغربي المدني المالكي، واستقر شيخا لزاوية الشاذلية بالآستانة، وكان وثيق الاتصال بسلطانها العثماني (عبد الحميد الثاني) يلقنه الذكر، ويُعد من حملة عرشه، ومن مؤلفاته: «الأنوار القدسية» في طرق القوم، و«الرحلة الظافرية» و«أقرب الوسائل في شرح منتخبات الرسائل للدرقاوي» في التصوف، و«النور الساطع والبرهان القاطع» في الطريقة الشاذلية، (١٢٤٤ - ١٣٢١هـ، ينظر: الأعلام٧: ٧٦.

يقول: إنّي لأستحيي من ربِّي أن أعبده خوفاً من العذاب، فأكون مثل عبد السوء إن لم يَخَفْ لم يعملْ، وأستحيي أن أعبده لأجل الثواب، فأكون كالأجير السوء إن لم يُعطَ أجرَ عمله لم يعمل، ولكن أَعْبُدُه محبةً له، اهـ.

فإذا عَمِل المريدُ على ذلك كان عبداً لله تعالى حقّاً، فإنْ طلبَ منه الثواب أو استعاذ به من العقاب؛ فإنّما يكون ذلك انتجازاً لوعد ربه، واتباعاً لما أَذِنَ له فيه مِن طَلَبِه؛ لفضله وإحسانه وكرمه وامتنانه، لا أن رجاءَه لحصول ذلك هو الباعث له على القيام بطاعته وملازمته لعبادته، وهذا مذهب العارفين الواصلين إلى ربِّ العالمين[1].



(٩٣)

(متى أعطاك أشهدك برَّه، ومتى منعك أشهدك قهرَه، فهو في كلِّ ذلك متعرِّف عليك ومقبلٌ بوجود لطفه عليك)

أي متى أعطاك مولاك ـ أيها المريد ـ ما تريد أشهدك برَّه أي صفاته البرِّية التي تقتضي البرَّ من الجود والكرم واللطف والعطف ونحو ذلك.

ومتى منعك أشهدك قهره: أي صفاته القهرية التي تقتضي القهر: كالكبرياء والعِزّة والاستغناء، فهو في كلِّ ذلك أي في كلتا الحالتين متعرِّفٌ إليك: أي مريد منك أن تعرفَه بأوصافه الجمالية والجلالية، ومقبل بوجود لطفه

---

(١) وقد ألف الشيخ عبد الفتاح بن صالح قديش اليافعي كتاباً باسم: «**ما عبدتك طمعاً في جنتك، ولا خوفاً من نارك**»، وبين أن هذه المقولة صحيحة، وأنها منقولة عن عدد من السلف والصالحين.

عليك؛ لأنّ مشاهدتك لصفات بره وقهره لطف عظيم منه سبحانه بك ونعمة منه عليك.

فإنّه لا سبيل إلى معرفته إلا بتعرُّفه لعباده، ولا يكون ذلك إلا بمقتضى صفاته سواء كان ذلك موافقاً لطبعهم، وهو الإعطاء أو مخالفاً له، وهو المنع.

فمن كان عارفاً بربِّه لم يفرق بين المنع والعطاء؛ لأنّ كلاً منهما له طريق توصله إلى معرفة مولاه، وهذا من جملة فتح باب الفهم في المنع كما مَرّ فافهم.



(٩٤)

(إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله تعالى فيه)

أي إنّما يؤلمك ـ أيها المريد ـ المنع الذي هو في الحقيقة مثل العطاء؛ لعدم فهمك عن الله تعالى فيه؛ إذ لو فهمت عن الله تعالى أنه إنّما منعك ليصيرك من أحبابه الذين حماهم من الدنيا لما تألمت منه، بل تلذذت به، فإن الفقيرَ لا يَكمل حتى يجد للمنع حلاوةً لا يجدُها في العطاء.



(٩٥)

(رُبَّما فتح لك باب الطَّاعة؛ وما فتح لك باب القبول، ورُبَّما قضى عليك بالذنب؛ فكان سبباً في الوصول)

يعني أنّ الطاعة رُبَّما قارنها آفات قادحة في الإخلاص فيها: كالإعجاب

بها واحتقار من لم يفعلها، فلا يفتح لها باب القبول، ورُبَّما قارن الذنب شدّةَ النَّدم واستصغار النَّفس وحسن الاعتذار إلى الله تعالى، فيكون سبباً في الوصول، كما بين ذلك المصنف بقوله:



(٩٦)

(معصية أورثت ذلاً وافتقاراً؛ خيرٌ من طاعة أورثت عِزّاً واستكباراً)

فإن الذُّل والافتقار من أوصاف العبودية، والتَّحقُّقُ بهما موجبٌ للقرب من ربِّ البرية.

وأمّا العزُّ والاستكبار، فإنّهما من أوصاف الرُّبوبية، والتَّعلقُ بهما مقتضٍ للخذلان والتباعد عن المراتب العلية(١).

---

(١) وقد نبهنا الله إلى ذلك بإنكاره على من يتعالى بإسلامه، فقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقد جعل الشعور بالتفضل بالصدقة على الفقير سبباً في إبطال أجر صدقته؛ فكيف بمن يمن على الله المعطي الممد الخالق، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وسمى الله من يزكي نفسه بعمله مفترياً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤٩-٥٠]، ومن شأن المؤمن يعمل الطاعة ويُتبعها بالخوف من عدم القبول ويشكر الله على التوفيق إليها وقبولها إن قُبلَتْ، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

ولذا قال أبو مدين(١): انكسار العاصي خير من صَوْلَةِ المُطِيع.

وكان أبو العبَّاس المرسي(٢) رُبَّما دخل عليه المطيع فلا يَعبأ به، ورُبَّما دخل عليه العاصي فيكرمه، لمشاهدته أن الطَّائع أتى وهو متكبر بعمله، ناظرٌ لفعله، والعاصي دخل عليه بذِلَّةِ مخالفتِه ومشاهدةِ معصيته.

فينبغي أن لا ينظر العبد إلى صور الأشياء بل إلى حقائقها، فإن أعمال البرّ والطاعة ليست مشروعة لذاتها ولا مطلوبة لصورها، بل لما احتوت عليه من التذلل والخشوع، فإذا خَلَتْ من ذلك فخيرٌ منها المعصية التي تورث الخضوع.

(٩٧)

(نعمتان ما خرج موجود عنهما، ولا بُدّ لكلِّ مكوَّن منهما: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد)

يعني أنه لا بدّ لك مكوَّن ـ بفتح الواو المشددة ـ أي موجود من نعمتين لا يخرج عنهما:

---

(١) وهو شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني، أبو مدين، من مشاهير الصوفية، وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور، من مؤلفاته: «مفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب»، ت٥٩٤هـ، ينظر: الأعلام٣: ١١٦.

(٢) وهو أحمد بن عمر المرسيّ الأنصاريّ الإسكندريّ المالكيّ، شهاب الدين، أبو العبّاس، الصالح المشهور، الشيخ الإمام العارف بالله تعالى قطب زمانه، كان علّامة زمانه فى العلوم الإسلاميّة، وله القدم الراسخة فى علم التحقيق، وله الكرامات الباهرة، وكان يقول: شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه، وقال الشيخ أبو الحسن الشاذليّ: أبو العبّاس بطرق السماء أعلم منه بطرق الأرض، ت٦٨٦هـ، ينظر: النجوم الزاهرة٧: ٣٧١، والأعلام١: ١٨٦.

الأولى: نعمةُ الإيجاد: أي نعمة هي إيجادُ الله تعالى إياه بعد العدم السابق.

والثانية: نعمةٌ هي إمدادٌ بالمنافع التي تقتضي بقاء صورته وهيكله[1] إلى أجل مسمًّى، فهو المنعم ابتداءً ودواماً، كما قال المصنف:



(٩٨)

(أنعم عليك أولاً بالإيجاد وثانياً بتوالي الإمداد)

وقد وجه الكلام في هذه الحكمة على طريق الخطاب ليستحضرهما الإنسان في نفسه، ويعلم أنّ الإمدادَ متواصلٌ لا يتخلَّلُه انقطاع، فيعرف من نفسه الفاقة الذاتية، وهي النتيجة التي قصدها المصنِّف من هذه المقدمات بقوله:



(٩٩)

(فاقتك لك ذاتية، وورود الأسباب مُذَكِّراتٌ لك بما خَفِيَ عليك منها، والفاقة الذاتية لا ترفعُها العَوارِض)

أي إذا علمت أن العدمَ سابق على وجودك، وأن وجودك مفتقرٌ إلى المدد في كلِّ وقت، وإلا تلاشى وانعدم علمت أن فاقتك ذاتية لك، وأن الاضطرار

(١) الإمداد: إرسال المدد، انظر: لسان العرب (مدد)، والمقصود هنا بمدد الله دوامُ عطائه واستمرارُ إبقائه للمخلوق، قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، ويأتي المدد بمعنى العَونِ والنُّصْرة والتأييد: ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤].

لازم لوجودك، وأن ورود الأسباب كالفقر والمرض مذكرات لك بما خَفِي عليك من الفاقة الذاتية.

فإن غالب النَّاس يغفلون عن الفاقة الذاتية إذا دامت عليهم صحّة أبدانهم وكثرة أموالهم، بل قال بعضُهم: إنما حمل فرعون على قوله: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [٢٤: النازعات] طول العافية والغنى، فإنه لبث أربعمائة سنة لم يتصدع رأسه ولم يضرب عليه عرق، ولو أخذته الشقيقة ساعةً واحدةً لشغله ذلك عن دعوى الربوبية.

والفاقة الذاتية اللازمة للعبد لا ترفعها العوارض كالصِّحّة والغنى، فإنه يجوز في حقِّه تعالى أن يُزيل ذلك، ويُبدله بضدِّه المقتضي للافتقار والاضطرار، ولا يُزايل العبد هذا الاضطرار لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ولو دخل الجنة فهو محتاجٌ إلى الله تعالى دائماً وأبداً، وإذا لاحظ العبد ذلك وقف عند حدِّه وقام بعبودية ربِّه وخاف من تهديد قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ ﴾ [١٢: يونس].



(١٠٠)

(خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك، وتُرَدُّ فيه إلى وجود ذِلَّتِك)

أي خير أوقاتك ـ أيها المريد ـ وقت تشهد فيه وجود فقرك إلى مولاك،

وترد فيه إلى وجود ذِلتك ـ بكسر الذال المعجمة ـ أي: تذللك بين يدي الملك المجيد، كما سيقول المصنف: أوقات الفاقات أعياد المريدين، بخلاف الوقت الذي يشهد فيه غناه وعزّه، فإنه شرّ الأوقات لوجود الحجب المانعة من الوصول إلى ربِّ البريات، وما ألطف قول بعضهم:

بنى الله للأحباب بيتاً سماؤه همومٌ وأحزان وحِيطانُه الضُّرُّ
وأدخلهم فيه وأغلق بابه وقال لهم: مفتاح بابكم الصَّبرُ



(١٠١)

(متى أوحشك من خَلْقِهِ فاعلم أنه يريد أن يَفتح لك باب الأُنس به)

أي متى أوحشك الله تعالى من خلقه بأن نفّر قلبك من الاستئناس بهم، فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأُنس به لتصير له وحده، ومتى فتح لك هذا الباب صيّرك من الأحباب وآنسك بالخطاب، فاترك الأغيار في مرضاةً العزيز الوهاب.



(١٠٢)

(متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك)

أي متى حلّ مولاك عقدة لسانك التي أَوجبها الاستغناء بالأغيار، وعدم رؤية الفاقة والافتقار بأن أَشهدك فقرك وفاقتك، حتى دعوتَه بلسان

الاضطرار، فاعلم أنّه يريد أن يُعطيك لصدق الوعد بإجابةِ دعاءِ المُضطر لا سيما في الأسحار، وما ألطف قول بعض العارفين:

لو لم تُرِد نيلَ ما أَرجوه من طَلَبٍ من فيض جُودك ما أَلهمْتَني الطَّلبا

وفي الحديث: «من أُعطي الدُّعاء لم يحرم الإجابة»[١]، واعلم أن الإجابة: تارة تكون بعين المطلوب، وتارة تكون بغيره عاجلاً أو آجلاً ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ [٦٨: القصص].



(١٠٣)

(العارف لا يزول اضطراره ولا يكون مع غير الله قراره)

يعني أنّ العارفَ بالله تعالى لا يزول اضطراره وافتقاره إلى مولاه، فإنّه يُقَدِّرُ معرفته لنفسه بالذُّلّ والافتقار، يعرف ربَّه بالعزَّ والعظمة والاقتدار.

وأمّا غيرُ العارف من العامّة، فإن اضطرارهم إنّما يكون عند مثيرات الأسباب من الفقر والمرض ونحو ذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم،

(١) فعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَن أعطي أربعاً لم يحرم أربعاً، مَن أُعطي الدعاء لم يحرم الإجابة؛ لأنّ الله عز وجل يقول ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]، ومَن أُعطي الشكر لم يحرم الزيادة؛ لأن الله يقول: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧]، ومن أعطي الاستغفار لا يحرم المغفرة؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: ١٠]، ومَن أعطي التوبة لم يحرم التقبل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى: ٢٥]» في شعب الإيمان٦: ٢٩٤، والأحاديث المختارة٥: ١٩٢.

ومتى زالت زال اضطرارهم، فلو شهدوا قبضة الله تعالى الشَّاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله تعالى دائم[١].

ومن أوصاف العارف أيضاً أنه لا يكون مع غير الله تعالى قراره؛ لوجود وحشته من المخلوقات، فلا يأنس إلا بارئ الأرض والسماوات.



(١٠٤)

(أثار الظَّواهر بأنوار آثاره، وأنار السَّرائر بأَنوار أَوصافه لأجل ذلك أَفلت أنوار الظواهر، ولم تَأفل أَنوار القلوب والسرائر، ولذلك قيل:

إن شمس النَّهار تغربُ بالليل وشمس القُلوب ليست تَغيب)

يعني أنّه سبحانه أنار الظواهر: أي المكونات بأنوار الكواكب والشمس والقمر التي هي آثار قدرته، فنرى المكونات بذلك النور، ونأخذ منها ما ينفع ونحترز عما يضر، وأنار السرائر: أي بواطن قلوب العارفين بأنوار أوصافه: أي بالعلوم العرفانية والأسرار الربانية لأجل ذلك أَفَلت: أي غابت أنوار الظواهر، فيَذهب نور الشمس في الليل ونور القمر في النهار لكونها ناشئة عن

---

(١) قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، والآية تشعر أن من أسباب إجابة الدعاء الشعور بالاضطرار، والعارف بالله يعلم أنه مضطر في كل لحظة، مضطر إلى الله لأجل الإبصار بعينه، مضطر إليه لتحريك يده، مضطر في نَفَسِه ودقاتِ قلبِه وهضْمِ طعامِه وسائر أموره.

الحادث. ولم تأفُل ـ بضم الفاء ـ أي لم تغب أنوار القلوب والسرائر لكونها ناشئة عن الصفات القديمة.

وقد استشهد بالبيت على ما ذكره، ومعناه واضحٌ، وفي هذا تنبيهٌ على أنّ الأمور الباقية هي التي ينبغي أن يعتني بها، بخلاف الأمور الفانية الآفلة، فلا يعتني بالعلوم الظّاهرية مثل ما يعتني بالعلوم الباطنية، فإنّ الثّانية لبقائها أولى بالاعتناء بها.

وحينئذٍ يكون العبد على ملّة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأَفِلِينَ ﴾ [٧٦: الأنعام]، ومن اللطائف أنّ رجلاً سأل سهل بن عبد الله رضي الله عنه عن القوت، فقال: هو الحي الذي لا يموت، فقال: إنما سألتك عن القوام، فقال: القوام هو العلم، فقال: سألتك عن الغذاء، فقال: الغذاء هو الذكر، فقال: إنما سألتك عن طعم الجسد، فقال: ما لك وللجسد دع مَن تولاه أوَّلاً يتولاه آخراً. وما ألطف قول بعضهم:

يا خادمَ الجسم كم تشقى بخدمتِهِ ... وتَطْلُبُ الرِّبح مما فيه خُسران
عليك بالرُّوح فاستكمل فضائلها ... فأنت بالرُّوح لا بالجِسم إنسانُ



(١٠٥)

(ليخفف ألم البلاء عنك علمك بأنّه سبحانه هو المبلي لك، فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عوَّدك حُسن الاختيار)

هذه الحكمة تسلية للسَّالكين حتى يذوقوا منها مذاق العارفين، فإنّه مَن عرف أنّ البلايا من مولاه وسيده الذي هو أَرحم به من والدته ووالده كيف يبقى له بالألم إحساس؟ أم كيف لا يتلذَّذ به؟ كما يتلذَّذ بالنِّعمة سائر النَّاس، كما قال في «التنوير»:

وخفَّفَ عنِّي ما ألاقي مِن العَنا بأنك أنت المُبْتلي والمقدِّرُ
وما لامرئٍ عما قضى اللهُ مَعْدِلٌ وليس له منه الذي يَتَخَيَّرُ

يعني أن علمك ـ أيها المريد ـ بأنه سبحانه هو المبلي لك يُخفِّف ألم البلاء عنك، فإن الذي واجهتك منه الأقدار أي الأمور المقدرة عليك من مرض ونحوه هو الذي عوَّدك حسن الاختيار: أي اختيار الأمر الحسن الذي يلائمك، فاتهم نفسك إذا ظننت خلاف ذلك وسَلِّم الأمر تسلم، فإن مولاك الحكيم بمصالحك منك أعلم، قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٢١٦: البقرة].



(١٠٦)

(مَن ظَنَّ انفكاك لطفه عن قدرِه فذلك لقصور نَظَره)

أي مَن ظَنَّ انفكاك لُطفه تعالى وتخلُّفه عن قَدَره الذي قَدَّره عليه وأنزله به من البلايا والمحن، فذلك الظَّنُ إنّما حصل له لقصور نَظَره النَّاشئ عن ضعف اليقين، فإن العارفين يشهدون المنن في المحن والعَطايا في البَلايا، بل

كثيراً ما يتلذَّذون بها لما يَعْقِبها من المَزايا، فإنّها توجب شدّة قُرْب العبد من مولاه؛ لأنّه يُكثر التَّضرُّع عند نزولها به، والالتجاء إلى من يعلم سره ونجواه، ويستعمل حسن الصَّبر والرِّضا والتَّوكل على مَن أراد له هذا القضا إلى غير ذلك من طهارة القلوب.

وفي هذا من أنواع اللُّطف ما لا يُنكره إلا كلُّ محجوب، فإن ذرةٌ من أعمال القلوب خيرٌ من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، وفي الحديث: «إذا أحبَّ اللهُ تعالى عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رَضِي اصطفاه»(١).



(١٠٧)

(لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك)

أي لا يخاف عليك ـ أيها المريد ـ أن تَلْتَبس أي تشتبه الطُّرق الموصلة إلى الله تعالى عليك؛ لأنه سبحانه بيَّنها بإنزال الكتب، وإرسال الرُّسل، وإنّما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك، حتى يَعميك عن رؤيتها، كما قال البلخي(٢):

---

(١) فعن أنس ﵁، قال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» في سنن الترمذي٤: ٦٠١، وحسنه، وسنن ابن ماجة٢: ١٣٣٨.

(٢) وهو شقيق بن إبراهيم البَلْخي، أبو علي، صحب أبا يوسف القاضي، وقرأ عليه كتاب الصلاة، وهو أستاذ حاتم الأصم، قال السُّلمي: كان حسن الكلام، وصحب أيضاً إبراهيم =

الطَّريق واضحٌ، والحقُّ لائحٌ، والداعي قد أسمع، فما التَّحير بعد هذا إلا من العمى». وما أَلطف قول بعضهم:

وآفة العقل الهوى فمَن عَلا على هَواه عَقْلُهُ فقد نَجا

وقال آخر:

إذا أنت لم تَعْصِ الهوى قادَكَا إلى كلِّ ما فيه عليك مَقالُ



(١٠٨)

(سبحان مَن ستر سر الخصوصية بظهور البشرية، وظهر بعظمة الرُّبوبية في إظهار العبودية)

أي تنزَّه عمَّا لا يَليق به مولانا الحكيم الذي ستر بحكمتِهِ سرَّ الخصوصية: أي سرّاً هو الخصوصية التي خَصَّ بها أولياءه من المعارف والأسرار بظهور البشرية: أي الأحوال التي تعرض للبشر، فقد يكون بعض الأولياء خوَّاصاً مثلاً ليستر خصوصيَّته بهذه الصِّفة التي يتعاطاها، فلا يَعرفه كثيرٌ من النَّاس ولولا هذا السِّتر لكان سرَّ الله تعالى مبتذلاً غير مصون.

وقد قالوا: لا بُدَّ للشَّمس من سحاب وللحَّسناء من نقاب.

وقوله: وظهر بعظمة الرُّبوبية: أي بربوبيته العظيمة في إظهار العبودية: أي

= ابن أدهم. مات قتيلاً شهيداً في غَزْوة كولان من بلاد الترك سنة ١٩٤هـ). ينظر: الجواهر المضية ٢: ٢٥٤-٢٥٥، وغيره.

في إظهار آثار العبودية على عباده، وهي الأحوال التي تطرأ عليهم، فتقتضي افتقارهم إلى ربهم، فبعجزك تتحقُّق قدرة مولاك، وبفقرك تحقَّق غناه وبذلك تتحقَّق عِزّه، وهكذا فعظمةُ الرُّبوبية إنما ظَهَرَت للعباد من وراء حجاب العبودية.



(١٠٩)

(لا تطالب ربَّك بتأخر مطلبك، ولكن طالبْ نفسَك بتأخُّرِ أَدبِك)

أي إذا دعوت ربَّك وطَلَبْتَ منه شيئاً من الأشياء، ولم تَظهر لك الإجابة، فلا تطالبه: أي لا تعترض عليه، وتسيء الظَّنَّ به بسبب تأخر مطلبك: أي ما طلبته منه، فإنه لا يَسأل عما يفعل، ولكن طالب نفسك واعترض عليها بسبب تأخر أدبك، فلو تقدَّم الأدب لما تأخر المطلب.

ومن أدبك في الطَّلب عدم طلب الإجابة، فإنَّ الطَّالب إنّما يقصد بدعائه إظهار العبودية فقط، ومنه عدم رؤية الاستحقاق لما تطلب، فإن رؤية الاستحقاق توجب إدلالك عليه، والواجب إنما هو إذلالك بين يديه، ثم أشار المصنف إلى كمال الأدب الذي يكون به العبد في غاية الاستقامة بقوله:



(١١٠)

(متى جعلك في الظَّاهر ممتثلاً لأَمره ورَزقك في الباطن الاستسلام لقَهْره فقد أَعظم المِنّة عليك)

أي متى زَيَّن الله تعالى ظاهرك بالتَّقوى، وهي امتثالُ المأمورات واجتناب المنهيات، وباطنك بالاستسلام: أي بالانقياد لقهره مع الرِّضا والصَّبر على المصيبات، فقد أعظم المِنَّة: أي النعمة عليك، فإنّه لا درجة أعلى من التَّقلُّب في عبودية الظَّاهر والباطن.



(١١١)

(ليس كل من ثبت تخصيصه كَمُلَ تخليصُه)

أي ليس كلُّ مَن ثبت تخصيصه بإظهار أَمر خارق للعادة على يده كطي الأرض والطيران في الهواء والمشي على الماء وغير ذلك من الكرامات كُمْلُ تخليصُه من رؤية الأغيار وآفات النفس وما تدعو إليه من الشَّهوات، فإنّه كثيراً ما تظهر الكرامة على أيدي المبتدئين، ولا تظهر على أيدي الواصلين من أهل التمكين(١).

ولذا قيل لبعضهم: إن فلاناً جاع في البادية، فرأى البادية كلَّها طعاماً، فقال: عبدٌ رَفِق به ولو بلغ إلى محلِّ التحقيق لكان كمَن قال: أبيت عند ربي يُطعمني ويَسقيني(٢)، وسيقول المصنف: رُبَّما رزق الكرامة مَن لم تَكْمُلْ له

(١) وكذلك قرر علماء العقيدة أن الكرامة قد يختص بها من هو دون غيره، ولا تكون عند من هو أعلى منه، كما أن النبي ﷺ وصف عمر ﵁ بأنه مُحَدَّثٌ ولم يصف أبا بكر ﵁ بذلك، فكانت خصوصية لعمر، والخصوصية لا تقتضي الأفضلية.

(٢) هذا قول النبي ﷺ حينما نهى عن وِصال الصيام، فقالوا: إنك تواصل، فقال: «أَبِيْتُ عند ربي يُطعمني ويَسقينِ» أخرجه البخاري ١٩٦٥ ومسلم ١١٠٣ عن أبي هريرة ﵁.

الاستقامة، فالاستقامة هي أعظم الكرامات التي أكرم بها العبد من رَبِّ البريات.



(١١٢)

(لا يستحقر الورد إلا جهول، الوارد يوجد في الدار الآخرة، والورد يَنطوي بانطواء هذه الدّار، وأولى ما يُعتنَى به ما لا يخلف وجوده، الورد هو طالبُه منك، والواردُ أنت تَطْلُبُه منه، وأين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه ؟)

يعني لا يستحقر الورد الذي هو الأعمال الصالحة التي تقرِّبُه إلى العزيز الغَفَّار، ويتشوف إلى الوارد، وهو ما يَردُ على الباطن من المعارف والأسرار، إلا جهول: أي كثير الجهل، فإنّ الوارد إنما يَنشأ عن الورد بعد تَصفية الباطن بصالح الأعمال التي تجلب الأنوار من حضرة الغني المفضال.

فالوِردُ ما كان من الخَلْق للحَقِّ، والوارد ما كان من الحقِّ للخَلْق.

ثمّ ذكر أنّ الورد له مزيةٌ على الوارد من وجهين: أشار إلى الأول بقوله: الواردُ يوجدُ في الدَّار الآخرة؛ لأنه ما يَرِدُ على باطن العبد من المعارف الربانية واللطائف الرحمانية.

وأمّا الوِرْدُ: فإنّه يَنطوي بانطواء هذه الدَّار؛ لأنّ الآخرة ليست دار تكليف، وأولى ما يُعتني به ما لا يخلف وجودُه بفواتِه.

وأشار إلى الوجه الثاني بقوله: الوردُ هو تعالى طالبه منك، فهو حقُّه عليك، والوارد أنت تطلُبُه منه، فهو حظُّك منه، وأين ما هو طالبُه منك مما هو مطلبك منه؟

أي بعيد ما بينهما فقيامك بحقوقه علي أَليق بالعبودية من طلبك لحظوظك المحبوبة لديك، ومتى تطهرت من العيب فتح لك باب الغيب، وأتى المصنِّف بذلك إرشاداً للمريدين الذين يتشوَّفون إلى الواردات، ويتركون الأوراد مع أنّها لها من المقدمات، كما قال المصنف:



(١١٣)

(ورود الإمداد بحسب الاستعداد، وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار)

يعني أنّ ورود الإمداد من حضرة الملك الجواد إنّما يكون للعبد بحسب استعداده لذلك؛ بتطهير فؤاده وملازمته لأوراده.

وشروق الأنوار في قلب العارف، والمرادُ بها العلوم والمعارف، إنّما يكون على حسب صفاء الأسرار من كدر التَّعلق بالأغيار والآثار.

وهذه الحكمةُ إثبات للشَّريعة من حيث الأخذ بالأسباب، وأمّا قوله: قلّما تكون الواردات الإلهية إلا بغتةً، فتحقيق للحقيقة، فلا تَنافي بلا ارتياب.



(١١٤)

(الغافلُ إذا أَصبح يُنظر ماذا يَفعل؟ والعاقلُ يَنظر ماذا يَفعل الله تعالى به)

يعني أنّ الغافلَ عن الله تعالى إذا أَصبح، فأَوَّل خاطر يَرِدُ عليه نسبة الفعل إلى نفسه فيقول: ماذا أفعل اليوم؟ فهو جديرٌ بأن يكله الله تعالى إلى نفسه.

وأمّا العاقل فأَوَّل خاطر يَرِدُ عليه نسبة الفعل إلى الله تعالى، فيقول: ماذا يفعل الله تعالى بي؟ وذلك لدوام يقظته، فهو جديرٌ بأن يوفقه الله تعالى لأحسن الأعمال، ويُرشده لأصلح الأحوال، فأَوَّل خاطر يَرد على العبد هو ميزان توحيده، ولذا قال بعضهم: مَن اهتدى إلى الحقِّ لم يهتدِ إلى نفسه، ومن اهتدى إلى نفسِه لم يهتد إلى الله تعالى.

فانظر إذا استقبلك شغل، فإن عاد قلبك في أوَّل وهلةٍ إلى حولك وقوَّتك، فأنت المنقطع عن الله تعالى، وإن عادَ قلبك في إلى الله سبحانه، فأنت الواصل إليه.

وقد كان سيدي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه[1] يقول: أَصبحت وما لي سرورٌ إلا في مواقع القدر، وليكن من دعاء صاحب هذا المقام: اللَّهمَّ إني أَصبحت

---

(١) وهو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص، أمير المؤمنين، أمه أم عاصم بن عاصم بن عمر بن الخطاب، وعدَّ مع الخلفاء الراشدين، مات سنة إحدى ومئة. وله أربعون سنة، ومدَّة خلافته سنتان ونصف. ينظر: التقريب ص٣٥٣.

لا أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني، ولا أتقي إلا ما وقيتني، الله وفقني لما تحبُّه وتَرضاه من القول والعمل في طاعتك، إنك ذو الفضل العظيم.



(١١٥)

(إنّما يَستوحش العباد والزُّهاد من كلِّ شيءٍ لغيبتهم عن الله تعالى في كلِّ شيءٍ، فلو شهدوه في كلِّ شيءٍ لم يستوحشوا من شيءٍ)

أي إنّما يَستوحش العباد ـ بضم العين جمع عابد ـ والزُّهاد ـ جمع زاهد ـ أي يَنفرون من كلِّ شيءٍ يقطعُهم عن الله تعالى بغيبتهم عن الله تعالى في كلِّ شيء؛ لكونهم محجوبين عنه تعالى برؤية أنفسهم، ومراعاة حظوظهم، فإن الزُّهد في المزهود شاهد له بالوجود.

ولذا فروا من الأشياء واستوحشوا منها مخافة أن تفوت عليهم مقاصدهم؛ لميلهم إليها، وافتتانهم بها، فلو شهدوه في كلِّ شيء، كما شهده العارفون والمحبون لم يستوحشوا من شيءٍ؛ لرؤيتهم له حينئذٍ ظاهراً في الأشياء كلِّها؛ لأنهم يستدلون به عليها، فيكون في ذلك من قرّة أعينهم ما يُشغلهم عن رؤيتهم لنفوسهم، فلا يكون لهم من الأشياء وحشةٌ، ولا يخشون منها فتنة؛ لأنها فانيةٌ متلاشيةٌ بهذا الاعتبار، جعلنا الله من أهل محبَّته، إنه كريم غفَّار.



(١١٦)

(أمرك في هذا الدَّار بالنَّظر في مُكوَّناته، وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته)

يعني أمرك مولاك ـ أيها المريد ـ في هذه الدَّار الدُّنيا بالنَّظر في مكوناته ـ بتشديد الواو المفتوحة ـ أي أكوانه؛ لتراه بنور بصيرتك ظاهراً فيها من وراء حجاب،هو هي، وسيكشف لك مع عامة المؤمنين في تلك الدَّار الآخرة عن كمال ذاته، فتراه بعين البصر، فإن رؤيته تعالى من الأمر الجائز، كما قال اللَّقانيّ[1]:

ومِنه أن يُنْظَرَ بالأَبْصارِ   لكن بلا كَيْفٍ ولا انْحِصارِ
للمؤمنين إذ بجائز عُلِّقَتْ   هذا وللمختار دُنيا ثَبَتَتْ



(١١٧)

(عَلِمَ منك أنك لا تصبر عنه فأشهدك ما برز منه)

أي علم منك ـ أيها المحبُّ ـ أنك لا تصبرُ عن مشاهدتِه، كما هو شأن

---

(١) وهو إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللَّقَانيّ المصري المالكي، أبو الإمداد، برهان الدين، نسبته إلى لقانة من البحيرة بمصر، قال المحبي: أحد الأعلام المشار غليهم بسعة الاطلاع في علم الحديث والدراية والتبحر في الكلام، وكان إليه المرجع في المشكلات والفتاوى في وقته بالقاهرة. من مؤلفاته: «جوهرة التوحيد»، و«بهجة المحافل»، و«حاشية على مختصر خليل»، و«قضاء الوطر» في المصطلح، (ت١٠٤١هـ). ينظر: خلاصة الأثر ١: ٦-٩. الأعلام ١: ٢١. إيضاح المكنون ٣: ٢٤٧.

المحبِّ مع محبوبه، فأشهدك ما برز منه من الأكوان رحمةً بك لتراه فيها بعين بصيرتك؛ لكون رؤيتك له في هذه الدَّار من غير حجاب لا تتصوَّر.



(١١٨)

(لما عِلِم الحقُّ منك وجود المَلَلِ لَوَّنَ لك الطَّاعات، وعَلِم ما فيك من وجود الشَّرَه فحَجَرها عليك في بعض الأوقات؛ ليكون همُّك إقامةَ الصَّلاة لا وجودَ الصلاة، فما كلُّ مُصَلٍّ مُقيمٌ)

أي لما عَلِمَ الحقُّ سبحانه منك ـ أيها المريد ـ وجود الملل: أي السَّآمة المؤدية إلى ترك العمل لون ـ بتشديد الواو ـ أي نوَّع لك الطاعات: من صلاة وصيام وتسبيح وتهليل ونحو ذلك(١)، رحمةً بك، وتسهيلاً عليك، فإنّك إذا

(١) ومن ذلك لَوَّنَ الأذكار ونوَّعها، فجعل الذكر بألفاظ كثيرة، مختلفة المعاني، متحدة المقصود، متنوعة التأثير على القلب، وأهم الأذكار التي ندبنا إليها الشرع هي:

١. الاستغفار: قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]، ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢]، وقال ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هَمٍّ فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب» حديث ضعيف الإسناد فيما أعلم رواه أبو داود: رواه أبو داود رقم ١٥١٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن ماجه والبيهقي، ويشهد لمعناه الآيات السابقة.

٢. الصلاة على النبي ﷺ : قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] وقال ﷺ: «من صلى علي صلاة =

= صلى الله عليه بها عشراً » أخرجه مسلم رقم ٣٨٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وصلاتنا عليه مع النقص والغفلة، وصلاة الله مع الكمال والفضل والنور ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال ﷺ: « أقربكم منى في الجنة أكثركم علي صلاة فأكثروا الصلاة علي في الليلة الغراء واليوم الأزهر » رواه الشافعي في الأم ١ / ٢٠٨ وفسره بأنه يوم الجمعة.

٣. التهليل: لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥]، وقال ﷺ: « أفضل الذكر لا إله إلا الله »، حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٣٣٨٣ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه وأخرجه ابن حبان رقم ٨٤٦، والحاكم رقم ١٨٣٤.

٤-٦. التسبيح والتحميد والتكبير: قال تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمان، والحمدُ للهِ تَمْلأُ المِيزانَ، وسُبْحانَ الله والحمْدُ للهِ تَمْلآنِ أو تَمْلأُ ما بَيْنَ السَّمواتِ والأرْضِ» أخرجه مسلم رقم ٢٢٣، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، وهذه التسبيحات هي غراس الجنة، وتسن بعد الصلوات الخمس الفرائض.

٧. لا حول ولا قوة إلا بالله: قال ﷺ لعبد الله بن قيس أبي موسى الأشعري: « ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة » قال: بلى يا رسول الله فداك أبي وأمي، قال: « لا حول ولا قوة إلا بالله » أخرجه البخاري رقم ٣٩٦٨ ومسلم رقم ٢٧٠٤.

٨. حسبي الله ونعم الوكيل: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤]، وروى البخاري رقم ٤٢٨٧ « عن ابن عباس: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم =

سئمت من نوع منها انتقلت إلى غيره.

وعَلِم ما فيك من وجود الشَّرَه ـ بتشديد الشين المعجمة المفتوحة وفتح الراء ـ أي مجاوزة الحدِّ في التَّسارع إلى العمل المؤدي ذلك إلى وقوع النقص والتقصير فيها، فحجرها ـ بتخفيف الجيم ـ أي منعها عليك في بعض الأوقات، فإن الفرائض يَمتنع فعلها في غير أوقاتها، والنوافل لا ينبغي فعلها في وقت الكراهة.

وإنّما فعل ذلك ليكون همُّك إقامة الصلاة: أي تعديل أركانها وتوفير شروطها وتكميل آدابها ظاهرة وباطنة بقدر الطَّاقة لا وجود صورة الصلاة فقط، فما كلُّ مصل مقيم؛ لأنك قد عَلِمت أنّ المقيم للشَّيء هو القائم به على وجه الكمال من غير نقص ولا إخلال.

فتلوين العبادة وتحجيرها نعمتان على المريد يَزول بهما الملل والشَّره القاطعان عن حسن طاعة العزيز الحميد.

وإنما مثل المصنف بالصَّلاة دون سائر العبادات؛ لكثرة وقوع ذلك فيها، أو لكونه أراد أن يذكر شيئاً من فوائدها بقوله:



= عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل »، وقال ﷺ: « فإذا غلبك امرؤ، فقل: حسبي الله ونعم الوكيل » رواه أبو داود رقم ٣٦٢٧ وأحمد عن عوف بن مالك رضي الله عنه.

(١١٩)

(الصَّلاة طُهْرَةٌ للقلوب من أَدْناسِ الذنوب، واسْتِفْتاحٌ لِبابِ الغُيوب)

يعني أنَّ الصَّلاة التامة المستوفية للشروط والآداب المشتملة على الخشوع والخضوع للعزيز الوهاب طهرة أي مطهرة للقلوب من الذنوب الشبيهة بالأدناس.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [٤٥: العنكبوت]، وفي الحديث: «إنما مثل الصلاة كمثل نهر عذب يمرُّ بباب أحدكم يقتحم فيه كلَّ يوم خمس مرَّات أترون ذلك يبقي من درنه شيئاً»[(١)(٢)].

---

(١) فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ: «كان رجلان أخوان، فهلك أحدهما قبل صاحبه بأربعين ليلة، فذكرت فضيلة الأول عند رسول الله ﷺ،فقال: ألم يكن الآخر مسلما؟ قالوا: بلى يا رسول الله، وكان لا بأس به، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريكم ما بلغت به صلاته؟ إنما مثل الصلاة كمثل نهر غمر بباب أحدكم، يقتحم فيه كلّ يوم خمس مرات، فما ترون ذلك يبقي من درنه؟ فإنكم لا تدرون ما بلغت به صلاته» في الموطأ٢: ٢٤٣.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «الصَّلواتُ الخَمْسُ، والجُمُعةُ إِلى الجُمُعَةِ، كفَّارةٌ لما بَيْنهُنَّ، ما لم تُغش الكبَائِرُ» أخرجه مسلم رقم ٢٣٣، عن أبي هريرة ﷺ، وبين النبي ﷺ أن الصلوات المفروضة إذا كانت خاشعة فهي سبب في مغفرة الذنوب، فقال ﷺ: «ما مِن امْرِيءٍ مُسْلِمٍ تحضُرُهُ صلاةٌ مَكتُوبةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا، وَخُشوعَهَا، وَرُكُوعَها، إِلاَّ كانت كَفَّارةً لما قَبْلَهَا مِنْ الذنُوبِ ما لم تُؤْتَ كَبيرةٌ، وَذلكَ الدَّهْرَ كلَّهُ»، أخرجه مسلم رقم ٢٢٨، عن عثمانَ بنِ عفان ﷺ. وقال ﷺ للذي أذنب: أصليت معنا، قال نعم، قال: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤].

وقوله: واستفتاح أي طلب فتح لِبابِ الغُيوب[١]، عطفُ مُسبَّب على سبب؛ لأن القلوبَ إذا طهرت وتزكت رفعت عنها الحجب والأستار، فترى ما كان غائباً عنها من المعارف والأسرار.



(١٢٠)

(الصَّلاةُ محلُّ المناجاة، ومعدنُ المصافاة، تتسع فيها مَيادين الأسرار، وتشرق فيها شوارق الأنوار، علم وجود الضَّعف منك فقلَّل أعدادها، وعلم احتياجك إلى فضلِه فكثر أمدادِها)

يعني أنّ الصَّلاة هي محلُّ مُناجاة[٢] العبد لربِّه بتلاوة كلامه والثناء عليه،

(١) فإن الصلاة مقابلة لله وتوجه إليه، قال تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال رسول الله ﷺ: «فإن الله قِبَل وجهه إذا صلى» أخرجه البخاري رقم ٣٩٨، عن ابن عمر رضي الله عنه، وقد بين النبي أن الصلاة تفتح لك باب خطاب الله، فأخبرك من شأن الغيب أن الله يجيب خطابك بالفاتحة في الصلاة، قال ﷺ: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدَّني عبدي، وقال مرة: فوَّض إلي عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل» أخرجه مسلم رقم ٣٩٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه» أخرجه البخاري رقم ٣٩٧، عن أنس رضي الله عنه، وأخرج أحمد رقم ٥٣٤٩ «إن المصلي يناجي ربه عز وجل فلينظر أحدكم بما يناجي ربه» وبمعناه عند ابن خزيمة ٤٧٤.

ومعدن المصافاة معه بتوجهه بكليته إليه[١]، وبقدر إقبال العبد يكون إقبال الربّ، وثمرتُها إذا كانت على الوجه الأكمل أنّها تتسع فيها ميادين الأسرار: أي تتسع فيها القلوب الشبيهة بالميادين للفرسان، بمعنى أنّها تنشرح بتوارد الأسرار: أي العلوم والمعارف التي تَتسابق إليها كتَسابق الفرسان، وهذا يتسبب عن كونها تشرق: أي تطلع فيها شوراق الأنوار: أي الأنوار الشبيهة بالكواكب الشارقة[٢].

فإنّ الأنوار إذا أَشرقت في القلوب انشرحت لما يَرِدُ عليها من العلوم والمعارف، وهذه العباراتُ السِّت التي هي من فوائد الصَّلاة معانيها متقاربة، أتى بها؛ لتكون كالدَّليل لما قاله: من أن المأمور به إنما هو إقامة الصلاة لا وجودها، فإن الصلاة المعتبرة هي صلاة الخاشعين لا صلاة الغافلين، فإن الله تعالى يقول في كتابه المكنون: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾ [٥:الماعون] .

ثمّ قال: عَلِم وجود الضَّعف منك ـ أيها العبد ـ فقلَّل أعدادها بجعل

(١) لذلك نبهنا النبي ﷺ إلى أن نفرغ قلوبنا لله في الصلاة ونقبل بقلوبنا عليه، ليكون القلب صافياً خالياً لله وحده، قال ﷺ: «فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لله، إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» أخرجه مسلم رقم ٨٣٢، عن أَبِي أُمَامَةَ ﷺ عن عَمْرو بن عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ ﷺ، وقال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِم يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ؛ إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» أخرجه مسلم رقم ٢٣٤ عن عقبة بن عامر ﷺ.

(٢) قال ﷺ: «والصلاة نور» أخرجه مسلم رقم ٢٢٣، عن أبي مالك الأشعري ﷺ.

الخمسين خمسة، وعلم احتياجك إلى فضله وكرمه فكثر أمدادها ـ بفتح الهمزة جمع مدد ـ أي ثوابها وأسرارها، فجعلها خمساً في الفعل وخمسين في الأجر، فاحمده على ما أنعم واشكره على ما تفضل وتكرم.



(١٢١)

(متى طلبت عوضاً على عمل طولبت بوجود الصدق فيه، ويكفي المُرِيبَ وُجْدانُ السلامة)

أي متى طلبت ـ أيها المريد ـ من مولاك عوضاً: أي ثواباً على عمل عملته، كما هو شأن التُّجار طُولبت منه بوجود الصِّدق: أي الإخلاص فيه من شهود الأغيار، فإنّ الجزاء إنما يكون على كامل ولا كمال عندك؛ إذ ذاك فإنك إنّما عملت لحظِّ نفسك لا لوجه مولاك فصرت كأجير السُّوء إن لم يأخذ الأجرة لم يعمل.

ويَكفي المريب أي المرتاب في كون مولاه يُعطيه الأجر وإن لم يقصده بعمله وجدان السلامة من العقاب: أي يكفيه أن الله تعالى لم يُعاقبه على هذا القصد القبيح، وقد كرَّر المصنِّف هذا المعنى اهتماماً بشأنه فقال:



(١٢٢)

(لا تطلُبُ عوضاً على عمل لست له فاعلاً، يكفي من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلاً)

أي لا تطلُبُ ـ أيها المريد ـ جزاءً على عمل لست له فاعلاً في الحقيقة، فإن الله تعالى يقول في كتابه المكنون: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٩٦: الصافات]، وإذا كان مولاك هو الفاعلُ في الحقيقة، وجعلك محلاً لظهور فعله تفضلاً منه، فكيف تطلبُ جزاء على غير فعلك.

يكفي من الجزاء لك على العمل الذي هو لك بطريق المجاز أن كان ـ بفتح الهمزة ـ أي كونه له قابلاً ولم يؤاخذك بعدم الصِّدق فيه من حيث إنّه من كسبك.



(١٢٣)

(إذا أراد أن يُظهِرَ فضلَه عليك خَلَقَ ونَسَبَ إليك)

أي إذا أراد الله سبحانه أن يظهر فضله وإحسانه عليك ـ أيها المريد ـ خلق العمل الصَّالح فيك، ونسبه إليك على ألسنة العبيد بأن يُطلق ألسنتهم بأنك مطيع، فينبغي لك أن تشهد هذا الفضل العظيم، وتستحي من مولاك الكريم؛ لتتأدب بقول سهل بن عبد الله ﷺ: إذا عمل العبد حسنةً، وقال: يا رب أنت بفضلك استعملت، وأنت أعنت، وأنت سهلت، شكر الله تعالى له ذلك، وقال له: يا عبدي بل أنت أطعتَ، وأنت تقربتَ.

وإذا نظر إلى نفسه وقال: أنا عملت وأنا أطعت وأنا تقربت، أعرض الله تعالى عنه، وقال: يا عبدي أنا وفَّقت وأنا أَعنت وأنا سهلت، وإذا عمل سيئة، وقال: يا رب أنت قدرت وأنت قضيت وأنت حكمت، غضب المولى عليه،

وقال له: يا عبدي بل أنت أسأت وأنت جهلت وأنت عصيت، وإذا قال: يا رب أنا ظلمت وأنا أسأت وأنا جهلت، أقبل المولى عليه، وقال: يا عبدي أنا قضيت وأنا قدرت وقد غفرت وحلمت وسترت.



(١٢٤)

(لا نهاية لمذامك أن أرجعك إليك، ولا تفرغ مدائحك أن أظهر جوده عليك)

أي لا نهاية لما تُذَمُّ به ـ أيها المريد ـ من القبائح أن أَرجعك مولاك إلى نفسك، وخلَّى بينك وبينها، فإنّ النَّفسَ أمارةٌ بالسُّوء، وذلك من علامات الطَّرد والإبعاد، ولا تفرغ: أي لا تنتهي مدائحك: أي محاسنُك التي تُمدح بها أن أظهر جوده عليك، ونصرك على نفسك، فتكون ممن رَحِمَه واجتباه، ووفَّقه لما يحبُّه ويَرضاه.



(١٢٥)

(كن بأوصاف ربوبيته متعلِّقاً وبأَوصاف عبوديتك متحقِّقاً)

أي كن ـ أيها المريد ـ متعلِّقاً بأَوصاف ربوبيتِه تعالى من غنى وعزٍّ وقوَّةٍ وعلم ونحو ذلك بأن تشاهد أن هذه الأوصاف إنّما هي لمولاك فقط، وإذا وُجدت في غيره، فهي عاريةٌ منه تعالى، ولا تشهد هذا المشهد إلا إذا تحقَّقت

بأوصاف عبوديتك من الفقر والذل والعجز والجهل ونحو ذلك.

فإذا تحقَّقت بما هو لك وتعلَّقت آمالك بما هو له، أمدك بأوصافه، فتكون غنياً بالله، عزيزاً بالله، قادراً بالله، عالماً بالله، إلى غير ذلك، كما سيقول المصنف: تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، ثمّ ذكر ما هو كالدَّليل لهذه الحكمة بقوله:

(١٢٦)

(منعك أن تَدَّعِي ما ليس لك مما للمخلوقين، أفيبيح لك أن تدعي وصفه، وهو ربُّ العالمين ؟)

أي حرم عليك مولاك أن تدعي شيئاً ليس لك مما هو للمخلوقين من الأموال، أفيبيح لك أن تدعي وصفه، وهو ربُّ العالمين، ذو العِزّة والجلال، فإذا ادعيت أنَّك غنيٌّ أو عزيزٌ أو قوي أو عظيم أو عالم، كان ذلك من أكبر معاصي القلب؛ لما في ذلك من مشاركة المربوب للرب، ولا شيء عند العارفين أقبح من وجوب الشَّركة في قلب العبد بادِّعاء شيءٍ من أوصاف رب العالمين.

وفي الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدة منهما ألقيته في النار»[١].

وفي الحديث النبوي: «لا أحدَ أَغْيَرُ مِن الله تعالى»[٢].

(١) فعن أبي هريرة رضي الله عنه في سنن أبي داود٤: ٥٩، وسنن ابن ماجة٢: ١٣٩٧، وصحيح ابن حبان٢: ٣٥.

(٢) فعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال ﷺ: «لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله» في صحيح مسلم٤: ٢١١٤، وصحيح البخاري٦: ٥٧.

ومعنى الغيرة في حقِّه سبحانه أن لا يَرضى بمشاركةِ غيره له فيما اختصَّ به من صفات الرُّبوبية، وفيما هو حقٌّ له من الأعمال الدِّينية، وهذا المعنى الذي ضمَّنه المؤلف هذه الحكمة، هو الغرض الأقصى للسَّادة الصُّوفية، فإن كل ما صنَّفوه وسيلةٌ لهذا المقصد الشريف الذي هو موت النَّفس، وإسقاط حظوظها بالكلية، وحينئذٍ يتصف العبد بصدق العبودية والإخلاص للربوبية.



(١٢٧)

(كيف تخرق لك العوائد؟ وأنت لم تخرق من نفسك العوائد)

أي لا تطمع ـ أيها المريد ـ في خرق العوائد لك بأن تظهر على يدك الكرامات، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد التي اعتدها من سيء الأحوال والاسترسال مع الشهوات[1]، فإنّه قد جرت عادة الله تعالى بأن لا تخرق

---

(١) ومن قواعد أهل التربية في مجاهدة النفس للتخلص من المعاصي: **أولاً**: سياسة النفس بالتدرج، فإن عجز عن ترك المعصية عاد تائباً مستغفراً بعدها، والنفس إذا تشربت حب المعصية ولَذَّتَها؛ صارت كما وصف الله: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣]. **ثانياً**: الإكثار من الحسنات حتى تغلب أنوارُها السيئاتِ، وتَرْجَحَ كَفَّتُها، ثم تذهبَ بها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]. **ثالثاً**: المجاهدة تصعب في البدايات ثم تلين، وذلك أن المعصية لا تنتهي إلا بقطع أسبابها وتجفيف منابعها، كالشجرة يُترَك سقايتُها وسَمادُها ورِعايتُها، حتى تجف، وإذا استطاع أن يقلع جذور الشجرة من تربتها فعند ذلك خلاصه من ذنبه، ودواعي المعصية مع قرب العهد تكون قوية، فإذا استطاع أن يتركها فترة أطول ضعفت مع بُعدِ العهدِ، فصار تركها هيناً سهلاً. **رابعاً**: للزواج وللصيام أثرهما المميز في ترك الشهوات، =

العوائد إلا لمن فَنِي عن حظوظه، ولم يكن لها بقاصد.

فإن لم تصل إلى هذا المقام لم تكن من أهلها والسلام، فإن ظهر على يدك صورة كرامة فربما كان ذلك استدراجاً، فخَف من ظهورها على يدك، واتخذ التَّباعد عن الرُّكون إليها منهاجاً.



(١٢٨)

(ما الشأن وجود الطلب إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب)

أي ليس الشَّأن المعتبر عند المُحقِّقين وجود الطَّلب لحوائجك من مولاك، وإنّما الشَّأن المعتبر أن ترزقَ حُسْن الأدب مع مَن خلقك وسَوَّاك، بتفويض الأمر إليه، والرِّضا بما قسم، والاشتغال بذكره والاعتماد عليه؛ لما في الحديث: « مَن شغله ذكري عن مسألتي أَعطيته أَفضل ما أَعطي السَّائلين»(١).



= قال ﷺ: «من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» أخرجه البخاري رقم ١٨٠٦، ومسلم رقم ١٤٠٠ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. **خامساً**: الإكثار من ذكر الموت، فإنه يقضي على تعظيم الشهوات، ويوجه القلب إلى الله والآخرة، قال ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات؛ الموت» حديث صحيح، أخرجه أحمد رقم ٧٩١٢ والترمذي رقم ٢٣٠٧ وابن حبان رقم ٢٩٩٢ والحاكم رقم ٧٩٠٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ يرويه عن ربه، تبارك وتعالى قال: «قال جل وعز: مَن شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» في مسند القضاعي١: ٣٤٠، وشعب الإيمان٢: ٩٥.

(١٢٩)

(ما طَلَبَ لك شيءٌ مثل الاضطرار، ولا أَسرعَ بالمواهب إليك مثل الذلّة والافتقار)

أي ما طلب لك ـ أيها المريد ـ الحوائج من الله تعالى شيءٌ مثل الاضطرار إليه؛ إذ به تقع الإجابة؛ لقوله سبحانه: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [٦٢: النمل].

فقوله: طُلِب مبنيٌّ للفاعل الذي هو شيء، فيكون شبه الاضطرار بشخص طالب، ويحتمل بناؤه للمفعول، وشيء نائبُ فاعل على معنى أن أحسن مطلوب يَطلبه العبدُ الاضطرار، وهو أن لا يتوهم من نفسه حولاً ولا قوّة، ولا يَرَى لنفسه سبباً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه، بل يكون بمنزلة الغريق في البحر، أو التائه في التيه القفر لا يرى لغياثه، إلا مولاه ولا يرجو لنجاته من هلكته أحداً سواه.

والذلّة والافتقار أمران موجبان لإسراع مواهب الحقّ تعالى إلى العبد المتصف بهما، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [١٢٣: آل عمران]، فذلتهم أوجبت عزّتهم ونصرتهم، كما قيل في هذا المعنى:

وإذا تذلَّلتِ الرِّقابُ تقرُّباً ... منها إليك فعِزُّها في ذُلِّها

وما ألطف قول بعضهم:

حيث أَسْلَمْتَني إلى الذَّال واللا ... مِ تَلَقَّيْتَني بعَيْنٍ وزاي

وافهم هاهنا قوله ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله كنزٌ من كنوز الجنة»[١].


(١٣٠)

(لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فَناء مَساوِيك ومَحْوِ دَعاوِيك، لم تصل إليه أبداً، ولكن إذا أراد أن يُوصِلَك إليه غَطَّى وَصْفَك بوصفه، ونَعتَك بنعتِه، فوصلك إليه بما منه إليك، لا بما منك إليه)

أي لو أنك لا تصل إلى الله تعالى ـ أيها المريد ـ إلا بعد فناء مساويك: أي عيوبك ومحو دعاويك التي تدعيها من نسبة الأعمال إلى نفسك لم تصل إليه أبداً؛ لأنّ المساوئ والدعاوي طبعك، ولو لم يكن إلا إرادتك تحصيل هذا الغرض بنفسك لكان كافياً، فلو تأملت وجدت محاسنك كلُّها مساوي، ولو كنت رأس المخلصين وأحوالك كلُّها دعاوي، ولو كنت أصدق الصادقين، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [٢١: النور].

ولذا قال أبو العباس المرسي: لن يصل الولي إلى الله تعالى حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله تعالى، يعني انقطاعَ أدبٍ لا انقطاعَ مَلَلٍ.

وقوله: غطَّى وصفك بوصفه: أي أظهر لك من صفاته السَّنية ما تغيب به عن صفاتك البشرية، فتكون في مقام الحبِّ الذي قال في صاحبه: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش

---

(١) فعن أبي ذر رضي الله عنه في سنن أبي داود٩: ٢٣، وقريب منه في صحيح مسلم٤: ٢٠٧٧.

به، ورجله التي يمشي بها»(١)، وصاحب هذا المقام لا تكون له إرادة مع مولاه؛ لأنه ما وَصَل إلى الله تعالى إلا بها من الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٥٤: المائدة].



(١٣١)

(لولا جميل ستره لم يكن عَمَلٌ أهلاً للقبول)

أي لولا ستره تعالى الجميل لم يكن عمل من الأعمال أهلاً للقبول لفقد شرطه من الإخلاص، فإن العبد مبتلى بنظره إلى نفسِهِ، وفرحه بعملِهِ من حيث نسبته إليه، وشهوده حوله، وقوته عليه، وهذا من الشِّرك الخفي القادح في الإخلاص(٢).

فينبغي للمريد أن يعتمدَ على فضل الله تعالى وكرمه لا على اجتهاده وعمله(٣).



---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ في صحيح البخاري٨: ١٠٥.

(٢) قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ٤٩-٥٠]، فمن ينسب أعماله الصالحة وصفاته الطيبة إلى نفسه فهو كاذب آثم، إذ الفضل فيها لله، فهو خالقها والموفق والهادي إليها.

(٣) ولو تركنا الله إلى أنفسنا لما صدر عنها إلا الشر، ولسيطر عليها الشيطان، قال سبحانه: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣].

(١٣٢)

(أنت إلى حلمه إذا أَطعتَه أحوجُ منك إلى حِلْمِه إذا عصيتَه)

أي أنت ـ أيها العبد ـ إلى حلمِهِ تعالى في حال عملك بطاعتِه أَحوج منك إلى حلمِه في حال تَلَبُّسِك بمعصيته؛ لأنّ طاعتَك رُبَّما تكون مصحوبةً بنظرك إلى نفسك، واستعظام عملك، وذلك يُوجب الخِسّة، وسقوط المنزلة عند ربك(١)، وأمّا معصيتُك فقد تكون مصحوبة باضطرار وافتقار مقرونة بذلة واحتقار، وذلك يوجب الشَّرف والرِّفعة عنده سبحانه، وفي هذا زيادةٌ تحذير من رؤية استحقاق الوصول بالأعمال، فإنّه جهلٌ مركب لا يَسلم منه إلا كُمَّلُ الرجال.



(١٣٣)

(السِّتر على قسمين: سترٌ عن المعصية وسترٌ فيها، فالعامّة يَطلبون من الله تعالى السِّتر فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق، والخاصّة يطلبون من الله السِّتر عنها خشية سقوطهم من نظر الملك الحقّ)

يعني أنّ العامّة يطلبون السِّتر في المعصية خوفَ اطلاع النَّاس عليهم، فهم ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [١٠٨: النساء]، قال ابنُ عبَّاس في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [١٩: غافر]: هو الرجل يكون في القوم، فتمر به المرأة، فيريهم أنه يغض بصره عنها،

---

(١) لذلك كان العبد محتاجاً إلى المغفرة مع صلاحه ورجوعه إلى الله، قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥].

فإذا رأى من القوم غفلةً لحظ إليها، وهذا شأن المُرائين الذين يَستخفون بنظر الجبّار، ويهابون النَّاس أن يَطلعوا عليهم فيما يرتكبونه من الأوزار.

وأمَّا الخاصة: فهم يطلبون من الله تعالى السِّتر عنها بأن يجعل بينهم وبينها حاجباً، حتى لا تخطر بقلوبهم خشيةَ سقوطهم من نظر الملك الحقّ(١)،

---

(١) الخوف من الله درجات، وقد ذكر الله تعالى ثلاثاً منها في سياق واحد في سورة المؤمنون، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١]، **"فالخوف"** يطلق على من يتوقع أذىً ويخاف من عقاب ومَخُوفٍ يَنْزِلُ به، دون النظر إلى عظمة من يُنْزِلُه، وهو حال العصاة، **"والخشية"**: خوف يغلب عليه التعظيم والإجلال، فيتأدب ويطيع ويخضع دون الْتِفاتٍ إلى العقاب، فحتى لو أمن العقاب لا يترك التعظيم والاحترام، وهو حال الطائعين، ووصف به الملائكة وهم لا يعصون، وهو يقود إلى **"الإشفاق"**: وهو خوف يغلب عليه جانب الرحمة، فيلتزم بالأدب والطاعة خشية أن ينزل به ضر أو يفوته نعيم، والإشفاق يحمل على الوقاية مما تخاف، فتجتهد في الطاعة وتنقطع عن المعصية، قال الرازي في تفسيره٢٣: ٩٣: «والإشفاق يتضمن الخشية مع زيادة رِقَّة وضَعْف»، والعامة يشفقون من النارِ وفواتِ الجنة، والخاصة والأولياء يشفقون من البُعد عن الله وفوات قربه، **"والوَجَل"**: خوف يغلب عليه جانب التربُّص والانتظار، فمهما أحسن لا يطمئن إلى النتيجة فهو ينتظر لقاء الله، حتى يطمئن عندئذ أنه نجى، ويخاف أن ينقلب ويتغير ويتراجع، وهذا يحمله على الثبات، وعدم الرضا عن النفس مهما تَزَكَّتْ وتَرَقَّت، ومن مقامات الخوف: **"الخضوع"**: وهو خوف يغلب فيه جانب الذلة الجسدية الظاهرة، **"والخشوع"**: خوف يغلب فيه جانب الذلة القلبية، **"والهيبة"**: خوف إجلال وتوقير يجتمع معه الأنس بالله، **"والرهبة"**: خوف يغلب فيه جانب المفاجأة، فهو خوف تعظيم يتجدد وينمو ساعة بعد ساعة، لتجدد المعارف بالله واتساعها.

وإلى هذا المعنى أشار أبو الحسن الشاذلي في دعائه بقوله: اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها، ونعوذ بك من المعصية، وأسبابها وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها، واحملنا على النجاة منها، ومن التفكر في طرائقها.



(١٣٤)

(مَن أكرمك فإنّما أَكرم فيك جميل ستره، فالحمد لمن سترك، ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك)

أي مَن أكرمك من العباد بعطاءٍ أو محبةٍ، فإنما أكرم فيك جميل ستره تعالى: أي ستره الجميل عليك، فإنه لولا جميل ستره ما نظروا بعين الرضا إليك.

بل لو نظروا إلى ما فيك من العيوب لاستقذروك، ونفروا منك وطرحوك.

فلا تعبثك رؤية إكرام الخلق لك لجهلهم بعيبك على حمدهم على ذلك دون حمد ربك، فتضع الحمد في غير موضعه، فإن الحمد لا ينبغي أن يكون إلا لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك، وإنما تحمده من حيث إجراء الخير على يديه فقط لا من حيث إنه المكرم الحقيقي؛ إذ ليس ذلك إلا الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [٥٣: النحل].



(١٣٥)

(ما صحبك إلا من صحبك، وهو بعيبك عليم، وليس ذلك إلا مولاك الكريم، خيرٌ من تصحب مَن يَطلبك لا لشيءٍ يَعود منك إليه)

يعني ليس الصاحب الحقيقي إلا من صحبك وأقبل عليك بإحسانه العميم مع علمه بعيبك، وليس ذلك إلا مولاك الكريم[1]، وخير صاحب لك مَن يطلبك ويعتني بك لا لشيء يعود منك إليه، وليس ذلك إلا مولاك الحليم، فاجعل توكلك عليه، ومقصوده الحثُّ على مجانبة الخلائق، والرِّضا بصحبة المحسن الخالق، كما قال بعضُهم:

خُذ عن النَّاس جانبا ... وارضَ بالله صاحبا
قَلِّبِ النَّاس كيف شِئْـ ... ـتَ تجدهم عقاربا

نعم صحبةُ مَن يدلُّ على الله تعالى أمرٌ محمودٌ من حيث كونه يقرِّب العبد إلى مولاه.



---

(١) فالله يبقينا ويعطينا فرصة التوبة والاستقامة على الرغم من ذنوبنا، ولو عامَلَنا بما يَستحِقُّ من الخضوع له والطاعة لأمره لأهلكنا وعذبنا، قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ [الكهف: ٥٨]، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر: ٤٥].

(١٣٦)

(لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أَقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدُّنيا قد ظَهَرت كسفة الفناء عليها)

أي لو أشرق لك ـ أيها المريد ـ نور اليقين الذي به تُحِقُّ الحَقّ وتُبطلُ الباطل لرأيت الآخرة حاضرةً لديك؛ لأنها حقٌّ، فتكون أقرب إليك من أن ترحل إليها.

ولرأيت أي أبصرت محاسن الدُّنيا الحاضرة لديك قد ظهرت كِسْفَة الفناء عليها: أي الفناء الشَّبيه بالكسفة ـ بكسر الكاف ـ، وهي القِطعةُ التي تُغَطِّي الشَّيءَ أو بفتحها: أي الكُسوف والتغيير؛ لأنها باطلةٌ، فيوجب لك هذا النظر اليقيني الزُّهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة(١).



(١٣٧)

(ما حجبك عن الله وجود موجود معه، ولكن حجبك عنه توهم موجود معه)

---

(١) فحينما تقارن الدنيا بالآخرة ترى الدنيا صِفْراً، قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، ومن تذكر الدار الآخرة عند كل عمل لم يعمل شيئاً إلا أن ينفعه في الآخرة، وذلك بأن يكون خالصاً لله، وعلى وفق أمر الله، فما تعمله لغير الله فهو ضرر في الآخرة، وما تعمله مما نهى الله عنه فهو عذاب في الآخرة، وهذا معنى وصف الله للأنبياء بأن تذكر الدار الآخرة يجعلهم مخلصين: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص: ٤٦].

أي ما حجبك ـ أيها المريد ـ المحجوب عن الله تعالى وجود موجود من الأكوان الدنيوية أو الأُخروية معه؛ إذ لا وجود في الحقيقة لما سواه[1]، كما قال بعض العارفين:

اللهَ قُلْ وذَرِ الوجودَ وما حوى إن كنت مُرتاداً بلوغَ كمال
فالكلُّ دون الله إن حقَّقتَه عدمٌ على التَّفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالمَ كلَّها لولاه في مَحْوٍ وفي اضْمِحْلال
مَن لا وجود لِذاته مِن ذاته فوجودُهُ لولاه عينُ مُحال
والعارفون بربِّهم لم يشهدوا شيئاً سوى المُتكبِّر المُتَعال
ورَأَوا سِواهُ على الحقيقة هالكاً في الحالِ والماضي والاسْتِقبال

---

(١) بعض عبارات الصوفية تُوهِم أنهم ينكرون وجود المخلوقات، أو أن الوجود كلَّه هو ذات وجود الله، فلا موجود سواه، وقد يُفهَم من ذلك أن المخلوقَ حالٌّ في الخالق، أو مُتَّحِدُ معه، أو هو نفسُه، ومن اعتقد ذلك فلا شَكَّ في كفره، ولكن الصوفية لا يعتقدون ذلك، فهم يتحدثون عن الخلق وعن أحكام الخلق، ولا ينكرون ذلك، وإنما يقصدون أن وجود المخلوق ليس كوجود الخالق، فالخالق وجوده ذاتي، والمخلوق وجوده إضافي، مفتقر إلى إيجاد الله تعالى، ولولا مدد الله للمخلوق لكان المخلوق عدماً، فهو بهذا الاعتبار ليس موجوداً، أي ليس موجوداً بذاته وجوداً ذاتياً، وإنما بالله، وكثير من عبارات الصوفية في هذا الشأن فيها تَجَوُّزٌ، وتُفهَم من خلال السياق فهماً صحيحاً، كما سيبين ابن عطاء مقصوده في الحكم الآتية، وطريقة الصوفية هذه تشبه كلام النبي ﷺ في قوله: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، أخرجه البخاري رقم ٣٦٢٨ ومسلم رقم ٢٢٥٦، فهذا الحديث ليس على ظاهره، فظاهره مشكل، وإنما الأشياء باطلٌ وعدمٌ بذاتها، وهي حق بالله سبحانه.

وتقدير عبارة ابن عطاء كأنه قال: ما حجبك عن الله وجودُ موجودٍ مثلِه معه.

ولكن حجبك عنه تعالى توهم موجود معه: أي توهمك أن ما سواه له وجود، والتَّوهمات باطلةٌ لا حقيقة لها، فلا حاجب لك عن الله تعالى، فإن وجود الآثار كوجود الظِّلال، فمن شهد ظلية الآثار لم يحصل له عائق عن الله تعالى، فإن ظلال الأشجار في الأنهار لا تعوق السُّفن عن التِّسيار، ولو كان بينك وبين الله تعالى حجابٌ وجودي للزم أن يكون أقرب إليك منه، ولا شيء أقرب من الله تعالى، فالحجابُ حينئذٍ أمرٌ توهمي بلا اشتباه.



(١٣٨)

(لولا ظهوره في المكوَّناتِ ما وقع عليهم وجود إبصار، لو ظهرت صفاتُه اضْمَحلَّتْ مُكَوَّناتُه)

أي لولا تجليه سبحانه وتعالى مِن وراءِ حِجابِ المكوَّنات: أي من وراء حجابٍ هُوَ هِيَ، ما وقع عليها إبصار: أي ما وجدت، فلا يقع عليها إبصار، ولو تَجَلَّى التَّجَلِّيَ الحقيقيَّ الذي لا خَفاءَ معه لاضمحلت وتلاشت، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [١٤٣: الأعراف].

كما وضح ذلك بقوله: لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوَّناته؛ لأنه لا ارتباط بين القديم والحادث، فظهوره سبحانه من وراء حجاب المكوَّنات هو الذي أَوجب ظهورها.



(١٣٩)

(أظهر كل شيء لأنه الباطن، وطَوَى وجودَ كلِّ شيءٍ لأنه الظاهر)

يعني أن مقتضى اسمه تعالى الباطن أن لا يُشاركه في البطون شيء، فلذا أظهر كلَّ شيء أي جَعَلَ الأشياء كلَّها ظاهرة، ولا باطن فيها غيره، ومقتضى اسمه تعالى الظاهر أنّ لا يُشاركه في الظهور شيء، فلذا طوى وجود كلِّ شيء: أي لم يجعل لغيره وجوداً من ذاته، بل المكوَّنات جميعها في الحقيقةِ عدم محض؛ لأنه لا وجودَ لها إلا من وجوده، فالحقُّ تعالى هو الموجود بكلِّ اعتبار؛ لأنه الظَّاهر من جهة التعريف الباطن من جهة التَّكييف.



(١٤٠)

(أباح لك أن تنظرَ ما في المكوَّنات وما أَذن لك أن تقف مع ذوات المكوَّنات ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [١٠١: يونس]، فتح لك باب الأفهام، ولم يقل: انظروا السَّماوات؛ لئلا يَدُلَّكَ على وجود الأجْرام)

يعني أمرك الله تعالى أن تنظر ما في المكوَّنات من آثار قدرته وبدائع صنعته؛ لتستدل بذلك على آثار الأسماء والصفات، وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات، فإنه سبحانه ما نصب لك الكائنات لتراها، بل لترى فيها مولاها، كما قيل في ذلك:

ما أُبينت لك العوالمُ إلا لتراها بعين مَن لا يَراها
فَاْرْقَ عنها رُقيَّ مَن ليس يرضى حالةً دون أن يَرى مولاها

فقوله سبحانه: ﴿ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [١٠١: يونس] بفي الظرفية المشعرة بأن الاعتبار بالمظروف دون الظرف، فتح لك ـ أيها المريد ـ باب الأفهام فتفهم أنها موجودة لغيرها لا لذاتها، فتنظر في الأكوان؛ لتصل إلى معرفة الرحمن.



(١٤١)

(الأكوان ثابتةٌ بإثباتِه ومَمْحُوَّةٌ بأحديّةِ ذاتِه)

يعني أنَّ الأكوانَ من حيث ذاتها عدمٌ محض، ولم تكن ثابتةٌ إلا بإثباتِه تعالى، وإيجادِه لها، وظهورِه فيها، فالثبوتُ لها أمرٌ عَرَضيٌّ، وإلا فهي في الحقيقةِ ممحوةٌ بأَحَدية ذاته، فمَن نَظَرَ إلى أَحَدية ذاتِه لم يجد للأكوان ثبوتاً، وإنّما لها ثبوتٌ عند مَن نظر إلى الواحداية؛ لأنّ الأَحَدية عند العارفين هي الذات البحت: أي الخالصة عن الظُّهور في المظاهر، وهي الأكوان.

والواحدية هي الذات الظاهرة في الأكوان، فيكون للأكوان حينئذٍ ثبوتٌ باعتبار ظهور الحقَّ فيها. ولذا يقولون: الأَحَدية بحرٌ بلا موج، والوحدانية بحرٌ مع موج، فإن الحقَّ سبحانه عندهم كالبحر، والأكوان كالأمواج التي يحركها ذلك البحر، فهي ليست عينُه ولا غيرُه، هذا هو توحيد العارفين.

وقد كرَّر المصنف الكلام عليه في هذا الكتاب وأَبرزَه في عبارات مختلفة، محاولةً على أن يُحِقَّ عندك الحقَّ، ويُبطل الباطل، وقد أفردَه بعضُهم بالتَّأليف، وتكلَّم على وحدة الوجود بما لا مَزيد عليه، اهـ، «شرقاوي»



(١٤٢)

(النَّاس يمدحونك لما يَظنونه فيك، فكن أنت ذامّاً لنفسك لما تعلمُه منها)

يعني أنّ النَّاس إنّما يمدحونك ـ أيها المريد ـ لما يظنونَه فيك من الأوصاف الحميدة، فكن أنت ذامّاً لنفسك لما تعلمه منها من العيوب والقبائح العديدة، ولا تغتر على كلِّ حال من الأحوال بمدح المادح، فإنّه السَمَّ القَتَّال؛ لأنّ مَن فرح بمدح نفسِه أوقعها في الغرور، وساق إليها ما لا يُطاق من أنواع الشرور، بل قُلْ إذا مدحك المادحون: اللهم اجعلنا خيراً مما يظنون، ولا تؤاخذنا بما يقولون، واغفر لنا ما لا يعلمون.



(١٤٣)

(المؤمنُ إذا مُدح استحيا من الله تعالى أن يُثنَى عليه بوصفٍ لا يَشهدُه مِن نفسِهِ)

أي المؤمنُ الحقيقيّ إذا مَدَحه النَّاس بوصفٍ ليس فيه عَدَّ ذلك من

إحسان الله تعالى عليه، واستحيا منه تعالى أن يثني الناس عليه بوصف محمود لا يشهده من نفسه، فيرجع على نفسه بالمقتِ والاستحقار، ويُكثر الشُّكر لربِّه الذي أَظهر له محاسن عند الناس لم يكن له عليها اشتهار، فيَنال بذلك الشُّكر المزيد مع سلامتِه من السُّكون إلى ثناء العبيد.



(١٤٤)

(أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لِظَنِّ ما عند النَّاس)

يعني أنّ مَن ترك يقين ما عنده من عيوب نفسِه لظنٍّ ما عند النَّاس أي للظَّنِّ الذي عند النَّاس من صلاح حاله، فهو أكثرُ النَّاس جهلاً؛ لأنّه قَدَّمَ الظَّنَّ على اليقين، وقدَّم ما عند غيره على ما يعلمه من نفسه، وهذا من الضَّلال المبين، وقد حُكِي أن بعضَ الحكماء مدحه بعض العوام، فبكى فقال تلميذه: أتبكي وقد مدحك، فقال له: إنه لم يمدحني حتى وافق بعضُ خُلُقي خلقَه فلذلك بكيتُ، فانظر بعين بصيرتك، فقد نبَّهك الحكيمُ العليمُ.



(١٤٥)

(إذا أَطلق الثَّناء عليك ولست بأهل فأثن عليه بما هو أَهله)

أي إذا أَطلق مولاك أَلسنة النَّاس بالثَّناء عليك، ولست بأهل للثَّناء لعلمك بعيوب نفسك، وتقصيرها كما هو شأن المؤمن، فأثن عليه سبحانه بما

هو أهلُه شكراً لنعمة إطلاق الألسن بالثناء عليك، حيث ستر القَبيح وأَظهر المليح، ولا تغترّ بمدح المادحين، فتهلك مع الهالكين.



(١٤٦)

(الزُّهاد إذا مُدحوا انقبضوا لشهودهم الثناء من الخلق، والعارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحقّ)

يعني أنَّ الزُّهاد الذين هم في غيبة عنه تعالى إذا مدحهم المادح انقبضوا خوفاً من الاغترار القاطع لهم عن الله تعالى لشهودهم الثناء صادراً من الخلق.

والعارفون الحاضرون مع ربِّهم إذا مُدحوا انبسطوا؛ لشهودهم ذلك من الملك الحقِّ؛ لأنهم لا يَشاهدون معه غيره، بل يقولون: ألسنة الخلق أقلام الحق، وهذا محمل قوله ﷺ: «إذا مدح المؤمن في وجهه ربا الإيمان في قلبه[(١)]»[(٢)].

ولذا كان المصنف يمدح شيخه المرسي فيقع عند المدح موقعاً عظيماً .

---

(١) أي زاد إيمانه لمعرفته نفسه وإذلاله لها بحيث لا يغتر بإطراء المادح، فالمراد المؤمن الكامل الإيمان، أمّا غيره فعلى نقيض ذلك وعليه: حمل خبر: «إياكم والمدح» فلا تعارض، كما في التيسير١: ١٢٩.

(٢) فعن خلاد بن السائب، قال: دخلت على أسامة بن زيد فمدحني في وجهي، فقال: إنه حملني أن أمدحك في وجهك أني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «إذا مدح المؤمن في وجهه ربا الإيمان في قلبه» في المستدرك٣: ٦٩٠، والمعجم الكبير١: ١٧٠، قال الهيثمي في المجمع٨: ١١٩: فيه ابن لهيعة، وبقية رجاله وثقوا.

وصاحب هذا المقام إذا ذمه أحد لا يجد في نفسه عليه ولا يؤذيه لعدم شهوده الذم صادراً منه.



(١٤٧)

(متى كنتَ إذا أُعطيتَ بَسَطَكَ العطاءُ، وإذا مُنِعْتَ قبضك المنع، فاستدلّ بذلك على ثبوت طُفُولِيَّتِك، وعدم صِدْقِك في عُبودِيَّتك)

أي متى كنت ـ أيها المريد ـ تجد من نفسك أنك إذا أُعطيت شيئاً مراداً لك بسطك العطاءُ، وإذا مُنعتَ منه قبضَك المنعُ، فاستدلَّ بذلك على تَطفُّلِك على أهل الله تعالى، وادعاء ما لهم من المقامات، ولست منهم، فتكون كالطُّفيلي الذي يدخل مع الأضياف في ضيافتهم، ولا يستحقُّ الدُّخول معهم.

واستدلّ بذلك أيضاً على عدم صدقك في عبوديتك، فإن البسطَ عند العَطاء، والقبض عند المنع من علامات بقاء الحظّ للنفس، والعمل على نيلِه، وهو مناقضٌ للعبودية عند العارفين.

فإن العارفَ يستوي عنده كلُّ ما فعله سيدُه ساءه أم سرَّه.



(١٤٨)

(إذا وَقَعَ منك ذنبٌ فلا يكن سبباً ليأسك من حصول الاستقامة مع ربِّك، فقد يكون ذلك آخرَ ذنبٍ قُدِّر عليك)

أي إذا وقع منك ـ أيها المريد ـ ذنب على حسب مقامك، فلا يكن سبباً مقتضياً ليأسك من حصول الاستقامة: أي اعتدال الأحوال في العبودية مع ربك؛ لأنّ الاستقامةَ لا يُناقضها فعل الذَّنب فَلْتةً إذا جرى القدر بذلك، وإنّما يُناقضها الإصرار عليه، والعزم على فعله ثانياً.

فالواجبُ عليك حينئذٍ أن تُبادر بالتوبةِ منه، فإنه قد يكون آخر ذنب قُدِّر عليك، فتستديم بعده الاستقامة.



(١٤٩)

(إذا أردت أن يُفْتَحَ لك بابُ الرَّجاء؛ فَاشْهَدْ ما مِنه إليك، وإذا أردت أن يُفتح لك بابُ الخوف؛ فاشهد ما مِنك إليه)

أي إذا أردت ـ أيها المريد ـ أن يفتح الله لك باب الرجاء، حتى ترجوه، فاستحضر بقلبك ما هو واصل منه تعالى إليك من الفضل والكرم ومزيد الإحسان الذي لا يحصيه القلم.

وإذا أردت أن يفتح لك باب الخوف، فاشهد أي استحضر ما هو واصل منك إليه من عظيم المخالفات وارتكاب السيئات، فإذا غلَب عليك هذا الحال، اشتدّ بك الحزن وبادرت بصالح الأعمال.

فالرجاء والخوف حالان ناشئان عن هاتين المشاهدتين، فاعمل بهما ـ أيها المريد ـ لتشرب بالكأسين.



(١٥٠)

(رُبَّما أَفادَك في لَيْلُ القَبْضِ ما لم تستفِدْه في إِشْراقِ نَهارِ البَسْطِ: ﴿ لَا تَدۡرُونَ ﴾(١))

أي ربما أفادك مولاك ـ أيها العارف ـ من المعارف والأسرار في حال القبض الشَّبيه بالليل بجامع السُّكون في كلٍّ ما لم تستفده في إشراق البسط الشبيه بالنَّهار بجامع الانتشار، فإن صاحب البسط يحب نشر ما عنده من الأسرار والمعارف، وربما حصل له الحجب بذلك، بخلاف صاحب القبض، و لذا آثره العارف.

ولكن الأولى له أن يَكِل الأمر إلى مولاه، ويختار ما يختاره له سيِّده ويَرضاه، فإنّه لا يَدْري أيهما أَقرب إليه نفعاً، كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة التي وردت في الآباء والأبناء جمعاً.



(١٥١)

(مَطالعُ الأنوارِ القلوبُ والأسرارُ)

يعني أن مواضع طلوع الأنوار المعنوية، وهي نجومُ العلم وأقمار المعرفة وشموس التوحيد، إنما هي قلوب العارفين وأسرارهم(٢)، فهي كالسماء التي

---

(١) تمام الآية: ﴿ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء:١١].

(٢) يستعمل الصوفية مصطلح "الأسرار" بمعنى قلب القلب، والأسرارُ تكون في القلب، فعبروا عن الأسرار التي لا يُخرِجُها الإنسانُ، وهي خاصة بين العبد وربه، كأنها عالَم من =

تشرق فيها الكواكب، بل تلك الأنوار المعنوية أشدّ إشراقاً في الحقيقة من الكواكب الحسية.

وقد قال بعضُ العارفين: إذا كان الله تعالى قد حرس السَّماء بالكواكب والشهب، كي لا يسترقّ السَّمع منها، فقلب المؤمن أولى بذلك: أي لأنّه عرش تجلي الحقّ، كما يُشير إليه قوله سبحانه في الحديث القدسي: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن»(١).

فتأمل هذا الأمر الأعلى الذي أُعطيه هذا القلب حتى صار لهذه الرتبة أهلاً، ومن هنا قال أبو الحسن الشَّاذليُّ: لو كُشِف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، فما ظَنُّك بنور المؤمن المطيع؟



= عوالم القلب، وفي داخله، ويسميها بعضهم الخَفِيّ، وعبروا عما كان أعمق من ذلك بالأخفى، وقد استأنسوا لذلك بقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧]، والأخفى هو ما يسميه المعاصرون بالعقل الباطن، والذي يتحكم بتصرفات الإنسان وتوجهاته مِن غير أن يَشعُر.

(١) قال العراقي في المغني١: ٨٩٠: «لم أر له أصلاً، وفي حديث أبي عتبة ﵁ عند الطبراني: «وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها».

وفي المداوي٢: ٥٠٣: «وقد روى أحمد في «الزهد» عن وهب بن منبه ما هو قريب من اللفظ المتداول المذكور، فقال أحمد: أخبرنا إبراهيم بن خالد حدثني عمرو بن عبيد أنه سمع وهب بن منبه يقول: «إن اللهَّ عز وجل فتح السماوات لحزقيل حتى نظر إلى العرش ـ أو كما قال ـ فقال حزقيل: سبحانك ما أعظمك يا رب، فقال اللهَّ: إنّ السَّموات والأرض لم تطق أن تحملني، وضقن من أن تسعني، ووسعني قلب المؤمن الوادع اللين».».

(١٥٢)

(نورٌ مستودَعٌ في القلوب، مددُه من النُّور الوارد من خزائن الغيوب)

يعني أنّ النُّور على قسمين: نورُ يكشف الله تعالى به عن آثاره كنور الشمس ـ وسيأتي في الحكمة بعد هذه ـ ونور مستودع في القلوب، وهو نور اليقين الذي أودعه الله تعالى في قلوب عباده العارفين، ومَددُه الذي يُستمد ويَتزايد منه ضياء، إنما هو من النور الوارد من خزائن الغيوب، وهو نورُ الأوصاف الأزلية، كقوله فيما تقدم: أنار الظواهر بأنوار آثاره، وأنار السَّرائر بأنور أوصافه، وكقوله هنا:



(١٥٣)

(نور يكشف لك به عن آثاره، ونور يكشف لك به عن أوصافه)

فالنُّور المدرك بالحواس كنور الشَّمس والقمر يكشف لك به عن آثاره، وهي الأكوان، فتستدل بالأثر على المؤثر.

وأما النور الذي يكشف لك به عن أوصافه، فهو المستودع في القلوب من نور اليقين الذي يكشف لك به عن أوصافه الأزلية الجمالية والجلالية، حتى تراها عياناً، ولا تحتاج معه إلى دليل، فإنك تشهد به المؤثر، وشتان بين النورين.

أسأل الله تعالى أن يَرْزقنا نور اليقين بجاه سيد الكونين، وما ألطف قول بعض العارفين:

هذه الشَّمسُ قابلتنا بنورٍ ولَشمسُ اليقين أَبْهَرُ نوراً
فرأينا بهذه النُّورَ لكن بِهاتَيك قد رَأينا المُنِيرا



(١٥٤)

(رُبَّما وَقَفت القلوبُ مع الأنوار كما حُجِبَت النُّفوس بكثائف الأَغيار)

أي رُبَّما وقفت عن سيرها القُلوبُ، وهي نورانيةٌ مع الأنوار التي هي لطائف الأَغيار من العلوم والأسرار الرَّبانية، فتُحْجَّبُ بها كما حُجِبت النُّفوس، وهي ظلمانيةٌ بكثائفِ الأَغيار: أي بالأَغيار الكثيفة كالشَّهوات والعادات الإنسانية، فالأنوارُ حجابٌ نورانيٌّ، والعاداتُ والشَّهوات حجابٌ ظلمانيٌّ، والحق وراء ذلك كلِّه، كما قال بعضُ العارفين:

تَقيَّدْتَ بالأَوهام لما تَداخلَتْ عليك ونورُ العقل أَورثكَ السِّجْنا
وَهِمْتَ بأنوار فَهِمْنا أُصولَها ومَنْبَعَها من أَين كان فَما هِمْنا
وقد تَحْجُبُ الأنوارُ للعبد مِثْلَ ما تُبْعَدُ مِن إِظْلامِ نفْسٍ حَوَتْ ضِغْنا



(١٥٥)

(ستر أنوار السَّرائر بكثائف الظَّواهر إجلالاً لها أن تُبْتَذَلَ بوجودِ الإظهار وأن يُنادَى عليها بلسان الاشتهار)

يعني أنّ الله سبحانه ستر أَنوار قلوب أوليائه، وهي ما تحقَّقوا به من العلوم والمعارف بالظواهر الكثيفة: أي الأحوال التي يَتعاطونها كالصَّنائع كما تقدم في قوله: سبحان مَن ستر سرّ الخصوصية بظهور البشرية، وإنّما ستر هذه الأنوار مع أنّ من حقِّها الظُّهور التَّام لأجل صَونها عن أن تُبْتذل بسبب وجود الإظهار لها، أو يُنادى عليها بلسان الاشتهار، فإن في ذلك نَوعاً من الاستخفاف بها، ولذلك تَرَى أهلَها يَبْخلون بها إلا بالرَّمز والإشارة أدباً مع مولاهم، وصَوناً لنفيس ما خوَّلهم وأَعطاهم.



(١٥٦)

(سبحان مَن لم يجعل الدَّليل على أوليائه إلا مِن حيثُ الدَّليلُ عليه، ولم يُوصِلْ إليهم إلا مَن أَراد أن يوصلَه إليه)

يعني أنّه سبحانه كما احتجب بالأكوان عن العقول والأَبصار ستر أولياءه بكثائف الظَّواهر من الصَّنائع الخسيسة صيانةً لهم عن الأغيار، ولا دليل على معرفتهم إلا العناية الإلهية التي بها عرفت الرُّبوبية، كما قال بعضُ الأكابر: عرفتُ ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي.

فإذا أَحبَّك الله تعالى، وأراد أن يعرفِّكَ بوليٍّ من أوليائه طَوَى عنك وجود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته، فإنه لم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه؛ لأنهم أحبابه، فلا يحب أن يجمع عليهم إلا مَن جمع قلبه عليه.



(١٥٧)

(رُبَّما أَطلعك على غيب ملكوته، وحَجَب عنك الاستشرافَ على أسرار العباد)

أي رُبَّما أطلعك مولاك ـ أيها المريد ـ على ملكوته الغائب عنك كالجنّة والنّار والعرش والكرسيّ وغير ذلك، وحَجَب عنك الاستشراف: أي الاطلاع على أسرار العباد، وما في قلوبهم من خير أو شر لطفاً منه تعالى بك، فإنّك رُبَّما أطلعت على معصيةٍ فبادرت بمعاقبة صاحبها، وعدم رحمته، فتقع في الفتنة: أي العجب على النَّاس بعملك، فيكون ذلك سبباً لجرِّ الوبال: أي الهلاك إليك، كما قال المصنف:



(١٥٨)

(مَن اطَّلعَ على أسرار العباد، ولم يتخلق بالرَّحمة الإلهية كان اطّلاعُه فتنةً عليه وسبباً لجَرِّ الوبالِ إليه)

وفي الحديث المسلسل بالأَوْلية[١]: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[٢].

(١) أي المنسوب بالأول، وهو الحديث المسلسل بأول حديث سمعه كل واحد منهم من شيخه، كما في شرح نخبة الفكر للقاري١: ٦٥٩.

(٢) فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة من الرحمن، فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله» في سنن الترمذي٤: ٣٢٣، وصححه.



(١٥٩)

(حظُّ النَّفس في المعصية ظاهرٌ جليٌّ، وحَظُّها في الطَّاعة باطنٌ خَفيٌّ، ومداواةُ ما يخفى صَعْبٌ عِلاجُه)

يعني أنّ النَّفس من شأنها أن تطلب ما فيه حظٌّ لها غير أن حظَّها في المعصية: كالزنا وشرب الخمر ظاهر جليٌّ، وحظُّها في الطاعةِ باطنٌ خفي؛ لأنّ ظاهرَها في الطَّاعة التقرب إلى الله تعالى، وفي الباطن ليس لها حظٌّ إلا إقبال الناس والاشتهار بالصَّلاح بينهم ولا يظهر ذلك إلا بعد التفتيش على دسائسها، وهذا هو الدَّاء العضال الخفي.

ومداواة ما يخفى صعب علاجُه؛ لأنه يحتاج إلى دقة إدراك، ولذا كانت أهل البصائر يتهمون نفوسهم إذا مالت إلى عبادة من العبادات، فإذا رأوا فيها حظاً لها تركوها، كما وقع لبعضهم: أنّه حدثته نفسه بالخروج إلى الغزو، وأظهرت له أن ذلك لله تعالى، فقال: يا ربّ نبهني لمقصدها، فإني متهمٌ لها، وفتش فإذا هو لأجل أن تستريح من تعب مجاهدته لها، فإنّه كلّ يوم يقتلُها مرّات عديدة بمنعها من شهواتها، فأرادت أن تُقتلَ مرةً واحدةً، فتستريح فترك الخروج إلى الغزو، واشتغل بما هو فيه.



(١٦٠)

(رُبَّما دخل الرِّياء عليك من حيث لا يَنظر الخلقُ إليك)

يعني أنّ الرِّياء كما يدخل في عملك ـ أيها المريد ـ إذا عملتَه بحضرة النَّاس، وهو الرياء الجلي يدخل عليك إذا عملته وحدك.

وعلامتُه: أن تقصد بعملك توقير النَّاس لك، والمسارعة إلى قضاء حوائجك، وأن تغضب على مَن قصَّر في حقِّك الذي تستحقُّه عند نفسك، ورُبَّما تتوعده بمعاجلة العقوبة له من الله تعالى.

فمَن شاهد من نفسه شيئاً من هذه العلامات، فليعلم أنه مراءٌ بعملِه، وإن أخفاه على سائر المخلوقات، وهذا هو الرِّياء الخفي الذي هو أَخفى من دبيب النمل، ولا يَسلم منه إلا العارفون الذين غيب الله تعالى نظرهم عن رؤية الخلق بما أودعه في قلوبهم من نور اليقين، فلا يرجون من الخلق منفعةً، ولا يخشون منهم مضرّة، فأعمال هؤلاء خالصة وإن كانت بين أظهر النّاس.

قال بعضُ العارفين: أعزُّ شيء في الدُّنيا الإخلاص، وكم أَجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت فيه على لون آخر، فتنبَّه لذلك، والله يتولى هُداك.



(١٦١)

(استشرافُك أن يعلمَ الخَلُق بخصوصيَّتك دليلٌ على عدم صدقِك في عبوديتِك)

أي تطلعك ـ أيها المريد ـ وميلك إلى أن يعلمَ الخَلق بخصوصيَّتك التي خصَّك الله تعالى بها من الأعمال الصَّالحة ونحوها دليلٌ على عدم صدقك في

عبوديتك؛ لأنّ صدق العبودية طرح الأغيار اكتفاء بعلم العزيز الغفار.

قال بعضُ العارفين: مَن أَحبَّ أن يطلع النَّاس على عمله، فهو مراء، ومن أحبَّ أن يطلعَ النَّاس على حاله، فهو كذَّاب.

فعلى العبد إخفاءُ حاله جهده، وأن يبلغ في كتمانه أَقْصى ما عنده، وهذه بالنسبة للمريدين، فإن مبنى أمرهم في بدايتهم على الفِرار من الخلق والانفراد بشهود الملك الحق، وإخفاء الأعمال وكتمان الأحوال تحقيقاً لسلامة قلوبهم، وحباً في إخلاصهم لمعبودهم.

وأمّا إذا تمكن اليقين، وأُيدوا بالرُّسوخ والتَّمكين، وتحقَّقوا بحقيقة الفناء، وردوا إلى وجود البقاء، فلا بأس بإظهار الأعمال، ومحاسن الأحوال للاهتداء بهديهم، والاقتداء بفعلهم.

ثمَّ بَيَّن الصِّدق مع الله تعالى في العبودية بقوله:



(١٦٢)

(غَيِّبْ نظرَ الخَلْقِ إليك بِنَظَرِ الحقِّ إليك، وغِبْ عن إقبالهم عليك بِشُهودِ إقبالِه عليك)

يعني: إذا أردت أن تكون ـ أيها المريد ـ صادقاً في العبودية، فغَيِّب نظر الخلق إليك بأن لا يكون لك شعورٌ بنظرهم إليك، اكتفاءً منك بنظر الله تعالى إليك، وإقبالِه عليك، فتُغَيِّب أَدنى الحالين بأعلاهما، فإن نظر الخلق أمر وهميّ

باطل، ونظر الله تعالى وإقباله بُغْيَةُ كلِّ عاقل، حيث إنّهم لا يَملكون ضرّاً ولا نفعاً، ولا خفضاً ولا رفعاً.

وأمّا إذا اغتررت بإقبالهم عليك قبل كمالك، فإنّه يوجب لك التَّصنُّع لهم، ومداهنتهم ومعاشرتهم بالنِّفاق ونحوه ذلك.



(١٦٣)

(مَن عَرف الحقَّ شَهِدَهُ في كلِّ شيءٍ، ومَن فَنِي به غابَ عن كلِّ شيءٍ، ومَن أَحبَّه لم يُؤْثِرْ عليه شيئاً)

أي مَن تحقُّق في مقام المعرفة بالله تعالى شهده في كلِّ شيء؛ لأنّ العارف إذا كان في مقام البقاء يرى الخلق والحق، ويَرَى الحقَّ ظاهراً في كلِّ الأشياء، وقائماً بها مع عدم غيبتِهِ عن نفسِهِ وحسِّه، بخلاف مَن فَنِي به: أي مَن تحقَّق في مقام الفناء، فإنّه لا يَرَى في الوجودِ ظاهراً إلا الله تعالى، ويَغيب عن كلِّ شيءٍ سواه حتى عن نفسِه وحسِّه، فلا يكون منه على الأشياء اعتماد، ولا له إليها استناد.

ومَن أَحبه تعالى لم يؤثر: أي لم يُقدِّم عليه سبحانه في المحبّةِ شيئاً من مراداته وشهواته، فضلاً عن غيرهما من الخلق؛ لأنّ حقيقةَ المحبَّةِ أخذُ جمال المحبوب بحبّةِ القلب، حتى لا يدعه لغيره في حال من الأحوال، فهذه الأمورُ علاماتُ هذه المقامات، فلا تُقْبَلُ ممن يدَّعيها إلا بهذه الشَّهادات.



(١٦٤)

(إنّما حَجَبَ الحقَّ عنك شدّةُ قُرْبِه منك)

يعني أنّه لما كان الحقُّ أَقْرَبُ إلى العبد من حبل الورد، كانت شدّةُ القُرْب حجاباً؛ لأنّ الحجاب كما يكون بشدّة البعد يكون بشدّة القرب، فإن اليد إذا قَرُبَت من البصر والتصقت به لم يرها، وكذلك الرَّبُّ لم نره لإحاطته بنا إحاطة تامّة، وقربُه منّا قرباً معنوياً.

ثم أكد ذلك بقوله:



(١٦٥)

(إنما احتجب لشدةِ ظهورِه وخَفِيَ عن الأبصار لِعِظَمِ نُورِه)

يعني أنّ شدّةَ ظهوره بآياته عينُ خفائه عن الأنام بذاته: كالشَّمس حُجِبت بالأنوار عن أن تدركها الأبصار، فهو الباطنُ الظَّاهرُ، كما أنّه الأَوَّلُ الآخر.

والحجابُ في الحقيقةِ إنّما هو من الخَلْق كضَعْفِ البَصَر عن مقاومة فيضان النُّور، فإنّ الظَّاهر لذاته لا يحجب من ذاته.

وأنشدوا في هذا المعنى:

لقد ظهرْتَ فلا تَخْفَى على أحدٍ ... إلا على أَكْمَهٍ لا يُدْرِكُ القَمَرا
لكن بَطَنْتَ بما أَظْهَرْتَ مُحتجِباً ... وكيف يُعْرَفُ مَن بالعِزّة اشتُهِرا



(١٦٦)

(لا يكن طلبُك تسبباً إلى العطاء منه، فيَقِلُّ فهمُك عنه، وليكن طلبك لإظهار العبوديّة، وقياماً بحقوق الرُّبوبيّة)

أي لا تقصد بطلبك من الله تعالى أن يكون تَسبباً: أي سبباً مُوصلاً إلى العطاء منه تعالى، فيَقِلّ فهمك عنه سبحانه، فإنّه ما جعل الحكمة في الطَّلب ذلك، وإنّما الحكمة إظهار العبودية أي إظهار كونك عبداً فقيراً لا غنى لك عن سيدك وإن أَعطاك كلّ مطلب، والقيام بحقوق الرُّبوبية من التَّذلُّل والخضوع، ولذا قال الشَّاذليُّ: «لا يكن هَمُّك في دعائك الظفر بقضاء حاجتك، فتكون محجوباً، وليكن هَمُّك مناجاة مولاك».

ثمّ علَّل كون الطَّلب لا يكون سبباً للعطاء بثلاث علل ينبغي عدُّ كلِّ واحدةٍ حكمة في نفسِها، فقال:



(١٦٧)

(كيف يكون طلبُك اللاحقُ سبباً في عطائه السَّابق؟)

أي كيف يكون طلبك فيما لا يَزال سبباً في عطائه في الأزل؟ فإن تعلَّق الإرادة في الأزل تعلّقاً تنجيزياً قديماً لا يكون الطلب سبباً فيه لتأخره عنه، والسَّبب لا بُدّ من تقدمه على المسبب.



(١٦٨)

(جَلَّ حُكْمُ الأزَلِ أن يَنْضافَ إلى العِلَل)

أي جلّ حكم الله تعالى بحصول ما طلبَه الدَّاعي في الأزل أن يَنْضافَ: أي ينسب إلى العِلل كالطَّلَب؛ لأنه له الإرادةُ المطلقةُ والمشيئةُ النافذةُ.

وأمّا العطاء المعلَّق على الطَّلَب، فالسبب في الحقيقة هو تعلُّق الإرادة في الأزل بأنّك تدعوه فيما لا يَزال لا نفس الطَّلَب المتأخر.



(١٦٩)

(عنايتُه فيك لا لشيءَ منك، وأين كنت حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته؟، لم يكن في أزَلِه إخلاصُ أعمال، ولا وجودُ أحوال، بل لم يكن هناك إلا محضُ الإفْضالِ وعظيمُ النَّوال)

يعني أنّ عنايتَه سبحانه بك في الأزل ـ بمعنى تعلُّق إرادته في الأزل بإعطائك ما تَطْلُبه ـ كانت لا لشيء حصل منك يقتضي حصوله تلك العناية: كالدعاء؛ لأنك لم تكن حين واجهتك عنايته وقابلتك رعايته، ولم يكن في أزله إخلاص أَعمال بدنية ولا وجود أحوال قلبية، بل لم يكن هناك إلا محض أي خالص الإفضال وعظيم النوال: أي العطاء العظيم من المحسن المفضال، فليس الدُّعاء سبباً مؤثراً في المطلوب، وإنّما العبرة بما سَبَقَت به إرادةُ علّام الغيوب.

ولذا قال الواسطيُّ(١): أقسامٌ قُسِمتْ، وأَحكام أُجريَتْ، كيف تُسْتَجْلَبُ بحركاتٍ، أو تُنالُ بسِعايات؟



(١٧٠)

(علم أنّ العباد يتشوَّفون إلى ظُهور سِرِّ العناية، فقال: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [١٠٥ : البقرة]، وعَلِم أن لو خلّاهم وذلك؛ لتركوا العمل اعتماداً على الأزل، فقال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [٥٦: الأعراف])

أي علم سبحانه أنّ العباد يتشوَّفون ـ بالفاء ـ أي يتطلَّعون إلى ظهور سِرِّ العناية التي مُقتضاها الرَّحمة والولاية، فيطلبون ذلك بالدُّعاء والأعمال الصَّالحة، ويعتقدون تأثير ذلك فيه، فقال: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [١٠٥ : البقرة] زجراً لهم، وقطعاً لطماعيتهم على حدِّ قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [١٢٤ : الأنعام]، فلا علّة لذلك من العباد.

وعلم سبحانه أنّ لو خلّاهم أي لو تركهم وذلك أي وملاحظتهم أنّها خاصّة ببعض النَّاس وليست عامّة لتركوا العمل الذي هو مُقتضى العبودية اعتماداً منهم على السَّابق في الأزل، فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [٥٦: الأعراف]، فجعل الإحسان بالأعمال الصَّالحة علامةً على العناية

---

(١) وهو علي بن الحسين بن أحمد الواسطي الشافعيّ، أبو الحسن، له «خلاصة الإكسير» في نسب الرفاعيّ، (٦٥٤ - ٧٣٣ هـ، ينظر: الأعلام٤: ٢٧٤.

الأزلية، وإن لم يكن علّةً موجبةً لها عند تحقيق القضية، فقم بما أَدَّبك الله تعالى به وإن كنت في رقدة فانتبه.



(١٧١)

(إلى المشيئة تستندُ كلُّ شيءٍ، ولا تستندُ هي إلى شيءٍ)

يعني أن أدب التَّوحيد أن يعتقد الإنسان أن كلَّ شيءٍ يَستندُ إلى المشيئة، فلا يكون شيء إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته أزلاً، وليست تستندُ هي إلى شيءٍ من الموجودات لاستحالة وجود النَّقص فيما يجب له الكمال.

فإذا تحقَّق المريد بذلك تعلَّق بأحكام الأزل، وطرح الأسباب والعِلل، ولزم العبودية والافتقار، وترك التَّدبير والاختيار.



(١٧٢)

(رُبَّما دلهم الأدب على تركِ الطَّلَب اعتماداً على قِسْمَتِه، واشتغالاً بذكرِه عن مسألتِه)

أي قد يكون من الأدب ترك السُّؤال، والطلب لَمن هو مستغرقٌ في الأذكار، راض بما يجري عليه من تصاريف الأقدار؛ لما في الحديث القدسي: «مَن شَغَلَه ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[١].

---

(١) سبق تخريجه.

كما أنه قد يكون من الأدب السُّؤال والطلب؛ لما في الحديث النبوي: «الدُّعاء مخ العبادة»[(١)]، فالتَّحقيقُ أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال.

ثمّ علَّل ما ذكره من كون الأدب قد يكون في ترك الطَّلَب فقال:



(١٧٣)

(إنّما يُذَكَّرُ مَن يجوز عليه الإغفالُ، وإنّما يُنَبَّهُ مَن يُمكِنُ منه الإهمالُ)

أي إنما يحصل التَّذكير بالطَّلَب لمن يجوز عليه الإغفال: أي السَّهو، وإنَّما يُنَبَّه على المراد منه مَن يُمكن منه الإهمال، وكلٌّ من الإغفال والإهمال مستحيلٌ على ذي العِزّة والجلال، فلذا كان تركُ الطَّلب عند بعض العارفين أدباً.

وقد سُئِل الواسطي رضي الله عنه أن يدعو فقال: أَخْشَى إن دعوت أن يُقال لي: إن سألتنا مالك عندنا فقد اتَّهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا، فقد أسأت الثَّناء علينا، وإن رضيت أَجرينا لك من الأُمور ما قَضينا لك في الدُّهور.

---

(١) فعن أنس رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «الدّعاء مخُّ العبادة» في سنن الترمذي٥: ٥٦، وقد تواترت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم، بالترغيب في الدعاء، والحث عليه؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه رفعه: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»، أخرجه الترمذي وابن ماجه وصححه ابن حبان والحاكم، وحديثه رفعه: «من لم يسأل الله يغضب عليه»، أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وقال الطيبي شيخ شيخ أبي الروح السرماري: إن من لم يسأل الله يبغضه، والمبغوض مغضوب عليه، والله يحب أن يسأل، وأخرج الترمذي من حديث ابن مسعود رضي الله عنه رفعه: «سلوا الله من فضله، فإن اللهَ يحبُّ أن يسأل،» وروى الطبرانيّ من حديث عائشة رضي الله عنها: «إن الله يحب الملحين في الدعاء»، كما في عمدة القاري٢٢: ٢٧٦.



(١٧٤)

(وُرُودُ الفاقاتِ أَعيادُ المريدين)

يعني أنّ أيام موارد الفاقات[١]: أي البلايا والمحن هي أَعياد المريدين: أي الأيام العائدة عليهم بالمِسرَّات والأفراح، فإنّهم يَفرحون بالفاقات؛ لما فيها من ذُلِّ النَّفْسِ الموصلِ إلى رَبِّ البَرِيّات، كما تفرح العوام بأيام الأَعياد؛ لما فيها من الشَّهوات التي تُوصل نفوسهم إلى بلوغ المراد، وما ألطف قول بعض العارفين:

قالوا غداً[٢] العِيد ماذا أنت لابسُه؟ فقلتُ: خِلْعَةَ ساقٍ حُبَّه جَرْعاً
فقرٌ وصبرٌ هما ثوبايَ تحتهُما قلبٌ يَرَى إلْفَهُ الأعيادَ والجُمَعَا
أَحرى الملابسِ أن تَلْقَى الحبيبَ به يومَ التَّزاورِ في الثَّوب الذي خَلَعا
الدَّهرُ لي مأتمٌ إنْ غِبتَ يا أَمليْ والعيدُ ما كنتَ لي مَرأىً ومُسْتَمَعا



---

(١) الفاقة: الفقر والحاجة، وورودها حصول الأمور التي تُذَكِّر الإنسانَ وتُشْعِرُه بفقره وحاجته إلى الله، ومن ذلك البلايا والأمراض والنوازل والفقر والخسارة وفقد الأحباب، وغير ذلك.

(٢) هكذا في الأصل وهو خطأ في وزن الشعر، وقد رويت في بعض الكتب بلفظ: أتى العيد، ورويت بلفظ: غداً عيدٌ، وكلاهما موزون.

(١٧٥)

(رُبَّما وَجَدْتَ مِن المزيدِ في الفاقات ما لا تجده في الصَّوم والصَّلاة)

أي رُبَّما وجدت ـ أيها المريد ـ في الفاقات من مزيد صفاء القلب وطهارة السَّريرة، ما لا تجده في الصَّوم والصَّلاة، فإنّ الفاقات مباينةٌ للهوى والشَّهوة على كلِّ حال، بخلاف الصَّوم والصَّلاة، فإن حَظَّ النَّفس قد يعتريهما، فيحصل فيهما إخلال.



(١٧٦)

(الفاقاتُ بُسُطُ المواهب)

يعني أنّ الفاقات تُدخل المريد حظيرةَ القُدس وتُجلسه على بساط الأُنس فتحصل له المواهب الرَّبانية والنَّفحات الرَّحمانية، كما وضح ذلك بقوله:



(١٧٧)

(إن أردت ورود المواهب عليك؛ صَحِّح الفقرَ والحاجة لديك: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ ﴾ [٦٠: التوبة])

أي إن أردت وُرود المواهب الرَّبانية من الله تعالى عليك صحِّح الفقر والفاقة لديك بأن تتحقَّق بهما تحقُّقاً تامّاً، فلا يكون عندك استغناءٌ بغيره بوجه من الوجوه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ [٦٠: التوبة]، وتقول في تضرُّعك:

إنّي إليك مَدَى الأنفاسِ محتاج   لو كان في مَفرِقي الإكليلُ والتَّاجُ

ومن صدق الفقير أخذه الصدقة ممن يُعطيه على الحقيقة، وهو اللهُ تعالى؛ لأنه جعلها له، فإن قبلها منه، فهو الصَّادق في فقره؛ لعلو همَّتِه، وإن قبلها من الوسائط فهو المتوسِّمُ بالفقر مع دناءة همّته، ثمّ زاد ذلك وضوحاً بقوله:



(١٧٨)

(تحقَّق بأوصافك يَمدُّك بأوصافه، تَحقَّق بذلك يَمدُّك بعِزّه، تَحقَّق بعجزك يَمدُّك بقدرِته، تَحقَّق بضعفِك يَمدُّك بحولِه وقوَّتِه)

أي تحقَّق ـ أيها المريد ـ بأوصاف عبوديتك يمدُّك بأَوصاف ربوبيته، ثم فصل هذا المجمل بما بعده: فإذا جلست على بساط الذل وقلت: يا عزيزُ مَن للذليل سواك، وعلى بساط العَجْز وقلت: يا قادر مَن للعاجز سواك، وعلى بساط الضَّعف وقلت: يا قوي مَن للضَّعيف سواك، وعلى بساط الفقر والفاقة وقلت: يا غنيُّ مَن للفقير سواك، وجدت الإجابة كأنَّها طوع يدك، فتصير عزيزاً بالله، قادراً بالله، قوياً بالله، غنياً بالله إلى غير ذلك، فيمدُّك بأوصاف الرُّبوبية حيث تحقَّقتَ بأَوصافِ العبودية.



(١٧٩)

(رُبَّما رُزِقَ الكرامةَ مَن لم تَكْمُلْ له الاستقامة)

يعني أنّ الكرامة التي هي الأمر الخارق للعادة لا عبرة بها عند المحققين، وإنّما الكرامة الحقيقية هي الاستقامة، ومرجعها إلى أمرين:

١. صحة الإيمان بالله عز وجل.

٢. واتباع ما جاء به رسوله ﷺ ظاهراً وباطناً.

ولذا قال أبو يزيد[١]: لو أن رجلاً بسط مصلاّه على الماء، وتربع في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه في الأمر والنهي.

وقيل له: إن فلاناً يمرُّ في ليلة إلى مكة فقال: إن الشيطان يمرُّ في لحظة من المشرق إلى المغرب.

وقيل له: إن فلاناً يَمشي على الماء، فقال: الحيتان في الماء والطَّير في الهواء أعجب من ذلك.



(١٨٠)

(من علامة إقامةُ الحق لك في الشيء؛ إقامتُه إيّاك فيه مع حصول النَّتائج)

يعني أنّ من علامة إقامة الله تعالى لك في الشيء كالاكتساب أو التجريد إقامتُه: أي إدامتُه إياك فيه مع حصول النَّتائج: أي الثَّمرات كسلامة الدين ووجود الربح من الكسب.

---

(١) وهو طيفور بن عيسى البسطامي، أبو يزيد، الزاهد المشهور، له أخبار كثيرة، (١٨٨ ـ ٢٦١هـ). ينظر: الأعلام٣: ٢٣٥.



(١٨١)

(مَن عَبَّر مِن بِساط إحسانه أصمتَتْه الإساءةُ، ومَن عَبَّرَ مِن بساطِ إحسانِ الله تعالى إليه لم يَصْمتْ إذا أَساء)

يعني إنّ مَن انبسط لسانه بالنَّصيحة والموعظة والتَّكلُّم في علوم القوم، وعبَّرَ من بساط إحسانه، أي من إحسانه للطاعة الشبيه بالبساط، أصمتته أي أسكتته الإساءة، فينقبض عن ذلك التعبير عند صدور المعصية منه، لما يعتريه من الخجل والحياء من ربه، وهذه طريقة أهل التكليف الذين يَنظرون إلى ما مِنْهُم إلى الله تعالى.

وأمّا مَن عبَّر من بساط إحسان الله تعالى إليه، فإنه لم يصمت إذا أساء: أي لم يسكت عن التعبير إذا صدرت منه معصية؛ لأن غيبتَه عن نفسه ومشاهدته لوحدانية ربِّه أوجبت جراءته على ذلك، وهذه طريقة أهل التعريف الذين يَنظرون إلى ما مَنَّ الله تعالى إليهم.



(١٨٢)

(تَسْبقُ أَنوارُ الحكماء أَقوالهم، فحيث صار التَّنوير وصل التَّعبير)

يعني أنّ العارفين بالله تعالى المُعبَّر عنهم بالحكماء إذا أرادوا إرشاد عباد الله تعالى توجَّهوا إلى الله تعالى بقلوبهم في هدايتهم واستعدادهم؛ لقبول ما يرد

عليهم من أقوالهم، فيجيبهم لذلك، فيخرج حينئذٍ من قلوبهم أنوار ناشئةً من نور سرائرهم تَسبق أقوالهم.

فحيث صار: أي حصل التَّنوير في قلوب السَّامعين وصل التَّعبير، فينتفعون بأقوالهم أتم انتفاع.

ثمَّ علَّل ذلك بقوله:



(١٨٣)

(كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز)

يعني أنَّ اللِّسان ترجمان القلب، فإذا تطهَّرَ القلبُ من الأَغيار وأَشْرَقت عليه الأنوار اكتسى الكلام نوراً، وانتفعت به السَّامعون وازدادوا سروراً، وأمّا إذا تدنَّس القلب بالذُّنوب، فإنّ كلام صاحبه يُوجب قسوة القلوب.



(١٨٤)

(مَن أذن له في التَّعبير فُهمت في مسامع الخلق عبارتُه، وجُلِيت إليهم إشارتُه)

أي مَن أَذِن اللهُ تعالى له من العارفين في التَّعبير عن الحقائق، وهي العلوم الوهبية، فُهمت في مسامع الخلق عبارته، فلم يفتقروا إلى معاودة، ولا تكرار، وجُلِّيت ـ بضم الجيم وشدّ اللام ـ أي ظَهرت إشارتُه إليهم، فلم يحتاجوا إلى

إطناب ولا إكثار، بخلاف غير المأذون له في ذلك كما قال:



(١٨٥)

(رُبَّما بَرَزَت الحقائق مكسوفةَ الأنوار إذا لم يُؤذن لك فيها بالإظهار)

أي رُبَّما برَزَت الحقائق التي هي العلوم الوهبية مكسوفة الأنوار إذا لم يؤذن لك في إظهارها، فتمجها الأسماع، ولا يحصل بها للسَّامعين استبصار.

وقد كان أبو العباس المرسي يقول: كلامُ المأذون له يخرجُ وعليه كسوة وطلاوة، وكلامُ الذي لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار، حتى أنّ الرَّجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة، فتقبل من أحدِهما وتُرَدُّ على الآخر.

وكان يقول: الوليُّ يكون مشحوناً بالعلوم والمعارف، والحقائقُ لديه مشهودة حتى إذا أُعطي العبارة كان كالإذن من الله تعالى له في الكلام.



(١٨٦)

(عباراتهم إمّا لِفَيَضان وُجْدٍ أو لِقَصْدِ هدايةِ مُريد، فالأَوَّلُ حال السَّالكين، والثاني حال أرباب المُكْنَةِ والمُحقِّقين)

أي عباراتهم التي يُعبِّرون بها عن العلوم والمعارف التي يجدونها في باطنهم لا تكون إلا لأحد أمرين:

١. إما لفيضان وُجد ـ بضم الواو ـ أي لفيضان ما يجدونه في قلوبهم من ذلك، فيخرج قهراً عنهم، وهذا حال السَّالكين المهديين.

٢. وإما لقصد هداية مريد، وهم أرباب المُكنة: أي التمكين، فيلزمهم ذلك لما فيه من الإرشاد إلى سلوك سبيل الرشاد.

فإن عبَّر السالك لا عن غلبة وُجد كان في ذلك نوع من الدَّعوى، وإن عبَّر المتمكن لغير قصد هداية مريد كان من إفشاءِ السِّرِّ الذي لم يؤذن له فيه.



(١٨٧)

(العباراتُ قُوتٌ لعائلة المستمعين، وليس لك إلا ما أنت له آكل)

يعني أنّ العبارات التي يُعبَّر بها أهل هذه الطَّائفة عن العلوم والمعارف، هي من حيث معناها قوتٌ لأرواح جماعة المستمعين، كما أن الأطعمة الحسية قوتٌ لأبدان المحتاجين لها، وهذه الأقوات المعنوية كالأقوات الحسية من حيث إنها تختلف باختلاف الطَّبائع، فكما أنّ بعض الأطعمة قد يصلحُ لشخص دون آخر؛ للاختلاف في الطبيعة والمزاج، فكذلك الأقوات المعنوية منها ما يصلح لواحد دون آخر.

وليس لك إلا ما أنت له آكل: أي إلا ما فهمته عنهم لاختلاف المذاهب وتباين المطالب، فقد تلقى العبارة على جماعة، فيفهم كلُّ واحدٍ منهم ما لا يَفهمه الآخر، وقد يفهم بعضُهم من الكلام معنى لم يقصده المتكلم، ويتأثر

باطنه بذلك تأثراً عجيباً ورُبّما فهم منه ضدّ ما قصده المتكلم كما اتفق أنّ بعضهم سَمِع قائلاً يقول:

إذا العِشرون مِن شَعبانَ وَلَّت فَواصل شُرْبَ لَيْلِكَ بالنَّهار
ولا تَشْرب بأَقداحِ صغارٍ فإنّ الوقتَ ضاق عن الصِّغارِ

فخرج هائماً على وجهِه حتى أتى مكّة ولم يزل مُجاوراً بها حتى مات، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [٦٠: البقرة].



(١٨٨)

(رُبَّما عَبَّرَ عن المَقام مَن استشرف عليه، ورُبَّما عَبَّر عنه مَن وَصَل إليه، وذلك مُلْتَبِسٌ إلا على صاحب بصيرة)

يعني أنه كما يُعَبَّرُ عن أي مقام من مقامات اليقين: كمقام الزهد ومقام الورع ومقام التَّوكل من وصل إليه وتحقق فيه، يُعبِّر عنه من استشرف: أي اطلع عليه، وقارب الوصول إليه، ولم يتحقَّق فيه، وذلك التَّعبير مُلتبسٌ على مَن يسمعُه منهما إلا على صاحب بصيرة، فإنّه يَرَى في الكلام صورة المتكلم الباطنة من كمال أو نقص، ولذا قيل: تكلَّموا تُعْرَفوا ...



(١٨٩)

(لا ينبغي للسَّالك أن يُعبِّرَ عن وارداتِهِ، فإنّ ذلك يُقِلُّ عملَها في قلبه، ويَمْنَعُه وُجودُ الصِّدقِ مع ربِّه)

يعني أنّه لا ينبغي للسَّالك أن يُعبِّرَ عن الواردات التي تَرِد عليه من العلوم الوهبية والأسرار التوحيدية اختياراً منه، بل يَصونها عن كلِّ أحدٍ إلا عن شيخه، فإنّ إفشاءها للغير يُقِلُّ عملها في قلبه من التَّأثير المحمود، فلا يحصل له كمال الانتفاع بها، ويمنعه وجود الصدق مع ربِّه؛ لأنَّ النَّفسَ تجد عند التعبير بها لذّة وانشراحاً، فيغلب عليه حظّ نفسه.



(١٩٠)

(لا تَمُدَّنَّ يدَك إلى الأخذ من الخلائق؛ إلا أن ترى أنّ المعطي فيهم مولاك، فإذا كنت كذلك فخُذْ ما وافقك العِلم)

أي لا تمدن يدك أيها ـ أيها المريد ـ المتجرِّد إلى الأخذ من الخلائق، إلا بشرطين:

أشار إلى الأول بقوله: إلا أن ترى أنّ المعطي فيهم مولاك، فلا ترى العطاء الذي يَصِل إليك إلا منه، وأنّ الخلقَ أسبابٌ ووسائط، فلا تُعلِّق قلبك بهم وإلا كنت عبداً لهم.

وأشار إلى الثاني بقوله: فخذ ما وافقك العلم أي على أخذه.

والمراد: علم الظَّاهر بأن لا تأخذ إلا من يد مُكلَّف رشيد تقي، وعلم الباطن بأن لا تأخذ إلا ما كان على قدر حاجتك بغير استشرافِ نفسٍ.



(١٩١)

(ربما استحيا العارفُ أن يَرفعَ حاجتَه إلى مولاه؛ لاكتفائه بمشيئته، فكيف لا يَستَحْيِي أن يَرفعَها إلى خَليقَتِه ؟)

يعني أنّ رفع الهِمّة لسالكي طريق الآخرة عن المخلوقين مما يوجب قربهم من ربّ العالمين، فإنّ العارف رُبّما استحيا من سؤال المولى عز وجل اكتفاء بما قضاه له في الأزل، فكيف لا يَستحيي من رفع حاجته إلى بعض من العبيد، وهم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد.

ولذا قال أبو علي الدَّقاق(١): من علامة المعرفة أن لا تَسأل حوائجك قلَّت أو كثرت إلا من الله تعالى مثل موسى ﷺ، فإنه اشتاق إلى الرؤية، فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾ [١٤٣: الأعراف]، واحتاج مرّةً إلى رغيف، فقال: ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ [٢٤: القصص].

وسئل الشَّاذلي عن الكيمياء فقال: أخرج الخلق من قلبك، واقطع يَأسك من ربِّك أن يُعطيك غير ما قَسَم لك.

و قال: ليس يدلك على فهم العبد كثرة عملِه و مداومةِ ورده، و إنّما يدلُّ على نوره وفهمه غناه بربِّه، وتحرره من رقِّ الطَّمع، وتحليه بحلية الورع، وبذلك تحسن الأعمال وتصلح الأحوال.

---

(١) وهو أبو علي علي الدَّقَّاق الرَّازيّ، الدَّقَّاق يقال لمن يبيع الدقيق ويعمله، تفقه على موسى بن نصر الرازي، وتفقَّه عليه أبو عيسى البردعي. ينظر: تاج ص٣٣٧، الجواهر المضية ٤: ٦٩، الفوائد ٢٣٧.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [٧: الكهف]، فحسن الأعمال إنّما هو بالفهم عن الله تعالى، والفهم هو ما ذكرناه من الغنى بالله تعالى، والاعتماد عليه، والاكتفاء به، ورفع الحوائج إليه.



(١٩٢)

(إذا التبس عليك أمران، فانظر أثقلَهما على النَّفس فاتبعه، فإنّه لا يَثْقُل عليها إلا ما كان حقّاً)

يعني إذا التبس عليك ـ أيها المريد ـ أمران واجبان: كطلب ما لا بُدّ منه من العلم، والسعي على العيال، أو مندوبان كطلب علم زائد على ما لا بُدّ منه والاشتغال بالنَّوافل، فانظر أثقلهما على النَّفس فاتّبعه، فإنَّه لا يثقلُ عليها إلا ما كان حقّاً: أي أولى، فإن شأنها أن تميل إلى الحظوظ، وتفرَّ من الحقوق.

وهذا بالنسبةِ لغير النَّفس المطمئنة، وأمَّا هي فقد يخف عليها عَمَل ما هو أولى، فليكن نظر صاحبها حينئذٍ إلى ما هو أكثر فائدة وأعظم مَزية.

وقد ذكر بعضُهم ميزاناً آخر تعرف به ما هو أولى بالتَّقديم من غيره عند الالتباس عليك، وهو: أن تقدر نزول الموت بك في الوقت، فأَي عمل سرَّك أن تكون مشغولاً به؛ إذ ذاك فهو حقّ، وما سواه باطل؛ لأنّ العبد لا يصدر منه في هذه الحالة إلا العمل الصالح الخالص من شوائب الرِّياء، كما هو مقتضى قصر الأمل الذي هو أصل حُسْن العمل.

إذا علمت ذلك عَلِمت أن مَن يَأخذ في علم غير متعيِّن عليه، ولا يَجنِي ثمرتَه إلا في ثاني حال، مع تمكنه في الحالة الراهنة من إيقاع طاعةٍ تزيد مصلحتُها عليه؛ بَعيدٌ عن درجات الكمال، نسأل الله السلامة من الغَفلة في زمان المهلة، فإنّها مبدأ كلّ عمل فاسد، ومنشأ وجود الغِرَّة والجهالة لكل عالم وعابد.



(١٩٣)

(من علامة اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات، والتَّكاسل عن القيام بالواجبات)

يعني أن من علامة اتباع هوى نفسك ـ أيها المريد ـ المسارعة عند عقد التوبة إلى نوافل الخيرات من صيام وقيام ونحو ذلك، والتكاسل عن القيام بحقوق الواجبات التي عليك كقضاء فائتة واستحلال من ظُلامَة؛ اتِّباعاً لِما خفَّ على النَّفس، وتركاً لما ثَقُل عليها، فإن حظَّها في النَّوافل أن تذكر بها عند الناس، بخلاف الفرائض، فتحرم الوصول بتضييع الأصول، وقد قالوا: من كانت الفضائل أهم إليه من أداء الفرائض، فهو مخدوع(١).

---

(١) وقد نبه إلى ذلك الحديث القدسي، بتقديم الفرائض وأنها أحب وأهم، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إن الله قال: مَن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إلي عبدي بشيءٍ أحبُّ إلي مما افترضت عليه، وما يَزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتى أُحبه...» أخرجه البخاري رقم ٦١٣٧.

فاحذر يا أخي أن تكون ممن لم يشتغلوا برياضة نفوسهم التي خدعتهم، ولم يعتنوا بمجاهدة أهوائهم التي أسَرَتْهم، والله يتولى هُداك.



(١٩٤)

(قَيَّدَ الطَّاعات بأعيان الأوقات كي لا يَمنعُك عنها وجود التَّسويف، ووسَّع عليك الوقتَ كي تَبْقى لك حِصّةُ الاختيار)

يعني أنه سبحانه أنعم عليك بنعمتين عظيمتين:

الأولى: أنّه قيَّد لك الطَّاعات الواجبة عليك بأعيان الأوقات المعيَّنة لوقوعها فيها، ولم يُطلق وقتها كي لا يَمْنَعُكَ عنها وجود التَّسويف منك، فيفوتك ثوابُها.

والثَّانية: أنّه وسَّع عليك الوقت رأفة بك، ولم يُضيِّقه عليك، كي تَبْقَى حصّة الاختيار، فتأتي بالطَّاعة في حال سكونٍ وتَمَهُّلٍ؛ في أوَّل الوقت، أو في وسطه، أو في آخره، فقم بشكر مولاك على ما أولاك.



(١٩٥)

(عَلِم قلّة نهوض العباد إلى معاملتِه، فأوجب عليهم وجود طاعته، فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب: «عَجِبَ ربُّك من قوم يُساقون إلى الجنة بالسَّلاسل»)

أي علم الله سبحانه وتعالى قلّة نهوض عامّة عباده إلى معاملته من إقامة العبودية طوعاً منهم، فأوجب عليهم وجود طاعته كرهاً لأجل ما خوفهم به إن لم يفعلوا، فساقهم إليه بسلاسل الإيجاب والتَّخويف، واستدرجهم بذلك إلى ما فيه نعيمهم ورفعهم إلى المقام المنيف، كما يفعل ولي الصَّبي عند إرادة تأديبه، فإنه لا يتركه إلى طبيعته وأهوائه تجري به، بل يلزمه أموراً يشقُّ عاليه فعلها، فإذا بلغ مبلغ الرجال تبين له نفعها.

فيكونون كأُسارى الكفار الذين يُراد بهم الدُّخول في الإسلام، وهم يكرهون ذلك مع أنه موصل إلى الجنة دار السلام، كما أشار إلى ذلك بالحديث الشَّريف الذي رواه بالمعنى، ولفظه: «عجب اللهُ من أقوام يقادون إلى الجنة بالسلاسل»[١]، و هذا الحديث في أُسارى بدر الذين أُسروا ثم أَسلموا، و المراد من قوله: «عجب ربك... الخ » إظهار غرابة ذلك الأمر لخلقه، فيتعجبون منه؛ لأنّ العجب الذي هو استعظام أمر خفي سببه مستحيل على اللهِ تعالى.

واعلم أن الخاصّة لا يحتاجون إلى الإيجاب والتخويف والتحذير؛ لتنوير بصائرهم وحبهم لطاعة اللطيف الخبير، فلم يقتصروا على ما اقتصر عليه العامّة من الواجبات، بل أضافوا إليها نوافل الخيرات وصارت أعمالهم كلها قربات، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ:

---

(١) فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «عجب ربنا عز وجل من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل» في سنن أبي داود٣: ٥٦، وصحيح ابن حبان١ : ٣٤٣، وفي البخاري رقم ٣٠١٠: « عَجِبَ اللهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلاَسِلِ ».

«نِعْمَ العبدُ صُهيب لو لم يَخَفِ اللهَ لم يَعْصِه»[١].

---

(١) قال في كثير في مسنده٢: ٦٨١: «فأما قول عمر ﷺ في صهيب بن سنان الرومي نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، فهو مشهور عنه، ولم أره إلى الآن بإسناد عنه، والله الموفق، وقد ذكره أبو عبيد في كتاب الغريب ولم أره من أسنده، قال: ووجهه أن صهيباً إنما يطيع الله حباً له، لا مخافة عقابه، يقول: فولم يكن عقاب يخافه ما عصى الله».
وقال العجلوني في كشف الخفاء٢: ٣٩١: « اشتهر في كلام الأصوليين وأصحاب المعاني وأهل العربية من حديث عمر ﷺ، وبعضهم يرفعه إلى النبي ﷺ، وذكر البهاء السُّبكي أنه لم يظفر به بعد البحث، وكذا كثيرٌ من أهل اللغة؛ لكن نقل في «المقاصد» عن الحافظ ابن حجر أنه ظفر به في «مشكل الحديث» لابن قتيبة من غير إسناد.
وقال في «اللآلئ»: منهم من يجعله من كلام عمر، وقد كثر السؤال عنه ولم أقف له على أصل، وسئل بعض شيوخنا الحفاظ عنه فلم يعرفه؛ لكن روى أبو نعيم في «الحلية» بسند ضعيف عن عبدالله بن الأرقم أنه قال: حضرت عمر ﷺ عند وفاته مع ابن عباس والمسور بن مخرمة فقال عمر: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن سالمًا شديد الحبّ لله عز وجل، لو كان لا يخاف الله ما عصاه».
وفي لفظ: «لو لم يخف الله ما عصاه»، وفي رواية قال: «لو استخلفت سالمًا مولى أبي حذيفة؛ فسألني ربي ما حملك على ذلك؟ لقلت: ربي سمعت نبيك ﷺ يقول: أنه يحب الله حقًا من قلبه».
وقال الجلال السيوطي في «شرح نظم التلخيص»: كثر سؤال الناس عن حديث: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، ونسبه بعضهم إلى النبي ﷺ، ونسبه ابن مالك في «شرح الكفاية» وغيره إلى عمر ﷺ، قال الشيخ بهاء الدين السبكي: لم أر هذا الكلام في شيء من كتب الحديث؛ لا مرفوعًا ولا موقوفًا، لا عن عمر ولا عن غيره مع شدّة التفحص عنه، انتهى.
نعم قد روى الديلمي في سالم لا صهيب عن عمر ﷺ مرفوعًا: «أن معاذ بن جبل ﷺ إمام العلماء يوم القيامة لا يحجبه من الله إلا المرسلون، وإن سالمًا مولى أبي حذيفة شديد الحب في الله، لو لم يخف الله ما عصاه»، والله أعلم».



(١٩٦)

(أوجب عليك وجود خدمته، وما أَوجب عليك إلا دخول جنّته)

أي أوجب الحقُّ تعالى عليك في الظاهر وجود خدمته، وفي الحقيقة ونفس الأمر ما أوجب عليك إلا دخول جنَّته، فإنّه سبحانه جعل الأَعمال سبباً لدخول الجنة[١].

والمقصود بهذه الحكمة وما قبلها الإعلام بأن اللهَّ تعالى غنيٌّ عن خلقِه لا تنفعه طاعتهم، ولا تضره معصيتهم، بل التَّكاليفُ كلُّها ترجع إلى ما فيه منفعتهم، واللهَّ هو الغني الحميد.



(١٩٧)

(مَن استغرب أن ينقذه اللهَّ تعالى من شهوته، وأن يخرجه من وجود غفلته؛ فقد استعجز القدرة الإلهية: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [٤٥: الكهف])

أي من استغرب أن يخلِّصه اللهُ تعالى من شهوته التي أَسرته، وأن يخرجَه من وجود غفلتِه التي استهوته فقد استعجز: أي نسب القدرة الإلهية إلى العجز، واللهُ تعالى متصفٌ بالاقتدار على كلِّ شيءٍ ممكن، ومنه الإنقاذ من

(١) قال تعالى: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

الشَّهوات والإخراج من الغَفلات، كما قال سبحانه: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ مُّقۡتَدِرًا ﴾ [٤٥: الكهف][1].

فعلى العبد المسيء أن يلزم باب مولاه بالذلة والافتقار، فإنّه يَسهل عليه ما استصعبه، ويرفعه إلى منازل الأبرار، فإن اللهَّ تعالى إذا أَقبل على أهل الخطيئات بدل سيئاتهم حسنات.



(١٩٨)

(ربما وردت الظُلَمُ عليك لِيُعرِّفَك قدْرَ ما مَنَّ به عليك)

أي ورُبَّما ورَدَت عليك الشَّهوات والغَفلات الشَّبيهة بالظُّلَم ـ بفتح اللام ـ جمع ظُلْمة ليعرفك سبحانه قدرَ ما مَنَّ به عليك من أَنوار التَّجلي في حضرة القرب، فيزداد شكرُك عند الرُّجوع؛ لتلك الحالة التي أَبعدتها الشُّهوات، وتحرص على القيام بحقِّ النِّعمة في جميع الأوقات، فما منهما إلا له فيه نعمة، عليك له في مثلها يجب الشُّكر.

وقد علَّل ذلك بقوله:

---

(١) وواجب العبد أن يحسن الظن بالله، عن أبي هريرة ﵁، قال ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي» أخرجه البخاري رقم ٦٩٧٠ ومسلم رقم ٢٦٧٥، وعلى العبد أن يعلم سعةَ رحمةِ الله ومغفرتِه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣٢] ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].



(١٩٩)

(مَن لم يعرف قدر النِّعم بوُجْدانها عرفَها بوجودِ فقدانها)

يعني أنّ مَن لم يعرف قدر النِّعم التي أَنعم اللهّٰ تعالى بها عليه بوجدانها عنده؛ لغلبة الغفلة عليه عرفها بوجود فقدانها، فإنه لا يعرف قدر نعمة البصر إلا مَن وصل العمى إليه، وبضدِّها تتبين الأشياء.



(٢٠٠)

(لا تدهشك واردات النِّعم عن القيام بحقوق شكرك، فإن ذلك مما يحطُّ من وجود قدرِك)

أي لا تدهشك النِّعم المترادفة عليك عن القيام بحقوق شكرك لمولاك أن ترى عجز نفسك عن توفية ذلك، فتترك الشُّكر، فإن ذلك يحطُّ من وجود قدرك، وقد رفع اللهّٰ قدرك حيث جعل القليل منك كثيراً، وادخر لك عليه جزاءً كبيراً، قال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [١٦٠: الأنعام]، فلا تبخس نفسك حقَّها ولا تحطها عن قدرها، فإن ترك الشُّكر بسبب كثرة النِّعم جهلٌ بحقِّ المُنعم المفضال، كما أن ترك الشُّكر على النِّعمة لاستقلالها موجب لغضب الكبير المتعال.



(٢٠١)

(تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العُضال)

يعني أن تمكن حلاوة ما تهواه النَّفس من الشَّهوات الدُّنيوية من القلب[١]، هو الدَّاء العضال الذي يتعذَّر برؤه، فإن القلب محلُّ الإيمان والمعرفة و اليقين، وهذه هي الأدوية لأمراضه ما لم يكن الدَّاء معضلاً: كتمكن الهوى، فلا يُفيد فيه إلا وارد إلهي[٢]، كما أشار إلى ذلك بقوله:

---

(١) وقد جاءت الإشارة في القرآن إلى تَمَكُّن الهوى حيث وصف حب اليهود للذهب وللعجل الذهبي بقوله: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[البقرة: ٩٣]، ومن أراد التخلص من المعصية وحُبِّها والتعلقِ بها؛ فلا بد أن يُجفِّف منابعَها وأسبابَها، ويمنع الماء عن جذورها في القلب.

(٢) عندئذ يمن الله عليك بطعم الإيمان وحلاوته، ومن أسبابها ما يأتي في الأحاديث، قال النبي ﷺ: « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً » أخرجه مسلم رقم ٣٤. وقال ﷺ: « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » أخرجه البخاري رقم ١٦ ومسلم رقم ٤٣. وروى المقدسي في الأحاديث المختارة رقم ٢١٩٧ بإسناد حسنه، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يجد عبد حلاوة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»، وروى محمد بن نصر بن الحجاج المروزي في تعظيم قدر الصلاة رقم ٣٩٦ عن مجاهد قال: قال لي ابن عباس: «يا مجاهد أَحِبَّ في الله، وأبغِض في الله، ووَالِ في الله، وعاد في الله، فإنما تَنال ما عند الله بذلك، ولن يجد عبد حلاوة الإيمان وإن كثر صلاته وصيامه حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس اليوم أو عامتهم في الدنيا، وذلك لا يجزي عن أهله شيئاً، ثم قرأ ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقرأ ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]».



(٢٠٢)

(لا يُخْرِج الشهوةَ من القلب إلا خوفٌ مُزعِجٌ أو شوقٌ مُقلِقٌ)

أي لا يكون سبباً في إخراج الشَّهوة المتمكنة من القلب إلا خوف من اللهَّ تعالى مزعج يَرد على القلب من شهود صفات الجلال، ومنشؤه النَّظر في الآيات المحتوية على ما أَعدَّ للعصاة من العذاب الأليم، أو شوق إلى اللهَّ تعالى مقلقٌ يَرد على القلب من شهودِ صفات الجمال، ومنشؤه النَّظر في الآيات المحتوية على ما أَعدَّ للطائعين من النَّعيم المقيم.



(٢٠٣)

(كما لا يحب العملَ المُشتَرَك، كذلك لا يُحبُّ القلبَ المشترَك، العملُ المشترَك لا يَقبَلُه، والقلبُ المشترَك لا يُقبِلُ عليه)

يعني أنه سبحانه كما لا يحبُّ العمل المشوب بالرِّياء وملاحظة الخلق[1]،

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه » رواه مسلم رقم ٢٩٨٥، وبين رسول الله ﷺ أن الأعمال لا تقبل ولا يكون فيها أجر وتكفير للذنوب إلا مع الإخلاص والتوجه بها إلى الله، قال ﷺ : «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه البخاري رقم ٣٨ ومسلم رقم ٧٥٩ عن أبي هريرة ﷺ، وقال ﷺ: «من يقم ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه البخاري رقم ٣٥ ومسلم رقم ٧٦٠ عن أبي هريرة ﷺ.

كذلك لا يحب القلب الذي فيه محبة غيره.

و لما كانت المحبّة بمعنى ميل القلب مستحيلة على الله تعالى بين المراد منها بقوله: العمل المشترك لا يقبله أي لا يثيب عليه؛ لفقدَ الإخلاص منه، والقلب المشترك لا يُقبِل عليه: أي لا يرضى عن صاحبه؛ لعدم صدقه في محبَّته.



(٢٠٤)

(أنوارٌ أُذن لها في الوصول، وأنوار أُذن لها في الدُّخول)

يعني أنّ الأنوارَ الواردةَ على القلوب من خزائن الغُيوب، وهي الأسرارُ الإلهيةُ والمعارفُ الرَّبانية تنقسم إلى قسمين:

١ .أنوار أذن لها في الوصول إلى ظاهر القلب فقط، فيشاهد معها نفسه، وربه ودنياه وآخرته.

٢ .وأنوارٍ أذن لها في الدخول إلى صميم القلب وسويدائه، فلا يحبُّ العبد عند ذلك سوى مولاه، ولا يفعل إلا ما يحبُّه سيِّدُه ويَرضاه[١].

---

(١) وواجب المسلم السالك إلى الله أن يصلح قلبه وعمله ليكون ذلك سبباً في دخول الأنوار وإزالة الموانع والحجب عن القلب، فللطاعة آثارها وأنوارها التي تغير القلب وتصلحه بإذن الله وفضله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] وقال ﷺ: «يقول الله تعالى: وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» أخرجه البخاري رقم ٦٩٧٠ ومسلم رقم ٢٦٧٥، عنْ أبي هُريرةَ ﷺ، =



(٢٠٥)

(ربَّما وردت عليك الأنوار، فوجدت القلب محشواً بصور الآثار، فارتحلت من حيث نَزَلَت)

أي رُبَّما وردت عليك ـ أيها المريد ـ الأنوار الإلهية فوجدت قلبك محشواً بصور الآثار الكونية: من أموال وأولاد وغيرهما، فارتحلت من حيث نزلت؛ لأنّها مقدَّسة عن حلولها في القلب المدنس بالأغيار[١].

وقد ذَكَرَ المصنِّف ما هو في معنى التَّفريغ، فقال:



= وقال ﷺ: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا، لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ تُصِيبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا» أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٢٨٥٦ والمعجم الكبير ٥١٩ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيِّ، والله تعالى ينظر إلى القلوب ويمدها بحسب صفائها وينظر إلى الأعمالِ فيُكرِم العبدَ بها ويرحمه بصلاحها وموافقتها لشرعه وإخلاصها، قال ﷺ: « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]، وورد في حديث حسنه بعض العلماء: «لولا تَمَرُّغُ قلوبِكم وتَزَيُّدُكم في الحديث لَسَمِعْتُم ما أَسمَع» أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم ٢٢٣٤٦ والطبري في صريح السنة رقم ٤٠، عن أبي أمامة رضي الله عنه، ولفظ الطبري: تمريج في قلوبكم.

(٢٠٦)

(فرغ قلبك من الأغيار يَملأْه بالمعارفِ و الأسرار)

أي إذا أردت ـ أيها المريد ـ حلول الأنوار في قلبك و تجلي الأسرار والمعارف عليه من ربِّك، ففرغه من صور الأغيار يَملأه بالمعارفِ والأسرار.



(٢٠٧)

(لا تَستبْطِئْ منه النَّوال، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال)

أي لا تستبطئ ـ أيها المريد ـ من ربِّك العطاء فتقول: أردت الفتح، فلم يفتح لي، ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال عليه بترك ما عداه وتسليم الأمر إليه، فإنّ مَن تعلَّق بالأغيار لا يصلح أن يكون من الأخيار، فاصدق في الإرادة تنل منه الحُسنى وزيادة.



(٢٠٨)

(حقوق في الأوقات يُمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يُمكن قضاؤها، إذ ما من وقتٍ يَرِدُ إلا ولله فيه حقٌّ جديد وأمر أكيد، فكيف تقضي فيه حقّ غيره؟ وأنت لم تقض حقّ الله تعالى فيه)

يعني أنّ الله تعالى جعل عليك ـ أيها المريد ـ حقوقاً في الأوقات، وحقوقاً للأوقات، فالحقوق التي في الأوقات المعيَّنة لها كالصَّلاة والصَّوم يُمكن

قضاؤها في وقت آخر لمن فاتته(١)، وأما حقوقُ الأوقات، وهي المعاملات الباطنية التي تقتضيها أحوال العبد التي يكون عليها من نعمة وبلية وطاعة ومعصية، فلا يمكن قضاؤها لكون الوقت لا يخلو من حال منها، فوقت كلّ عبد ما هو عليه من تلك الأحوال(٢).

قال سيدي أبو العَبَّاس المرسي: أوقات العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، و البلية، والطَّاعة، والمعصية، ولله عليك في كلِّ وقت منها سهمٌ من العبودية يقتضيه الحقُّ منك بحكم الربوبية، فمنَ كان وقته الطَّاعة فسبيله شهود المِنَّة من الله تعالى عليه أن هداه لها، ووفقه للقيام بها، ومن كان وقته للمعصية، فمقتضى الحقّ منه وجود الاستغفار والندم، ومَن كان وقتُه النِّعمة فسبيله الشكر، وهو فرحُ القلب بالله تعالى، ومن كان وقته البلية فسبيله الرَّضا بالقضاء والصبر.

و في الحديث: «مَن أُعطِي فشَكر، وابتلي فصَبر، وظُلم فغفر، وظلم

---

(١) وتتنوع الحقوق، كما قال سلمان ﷺ لأبي الدرداء ﷺ : «إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه»، فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان» أخرجه البخاري رقم ١٨٦٧عن أبي جُحَيْفَةَ، وقال ﷺ : «فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لِزَوْرِك عليك حقاً» أخرجه البخاري رقم ١٨٧٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ونحوه مسلم رقم ١١٥٩ وليس فيه: «لعينك» وفي رواية عنده: « وإن لِوَلَدِك عليك حقاً ».

(٢) والإنسان مهما حاول أن يؤدي حق الله فإنه قاصر، قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ [عبس: ٢٣].

فاستغفر، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»[١]: أي لهم الأمن في الآخرة، وهم المهتدون في الدنيا.

ومن كلامهم: الفقيرُ ابنُ وقته: أي يتأدب معه ويُعطيه حقَّه، كما يتأدب الولد مع أبيه، فيجب عليك ـ أيها المريد ـ مراقبة الأوقات وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، فإنّه لا يُقضى متى فات.



(٢٠٩)

(ما فات من عمرك لا عِوَضَ له، وما حصل لك منه لا قِيمةَ له)

أي ما فات من عمرك ـ أيها المريد ـ لا عودة له، فإذا أَخليته من العمل الصَّالح فاتك خير كثير، وإذا تأملت قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [٣٩: النجم] شمرت عن ساعد الجدِّ كلَّ التَّشمير، و ما حصل لك منه لا قيمة له: أي لا يُقاوم بشيءٍ لنفاسته، كما قال الإمام عليّ كرم الله وجهه: بقية عمر المرء ما لها ثمن، يُدرِك فيها ما فات، ويُحيِي ما أمات.

وأخذ بعضُهم هذا المعنى، فقال:

بقيةُ العمر عندي ما لها ثمنٌ وإن غدا غيرَ مَحْسُوبٍ من الزَّمن
يَستدركُ المرءُ فيها كلَّ فائتةٍ من الزَّمان ويمحو السُّوء بالحسن

---

(١) فعن سَخْبَرَة، قال ﷺ: «مَن أعطي فشكر، وابتلي فصبر، وظلم فاستغفر، وظلم فغفر، ثم سكت، فقالوا: يا رسول الله، ماله؟ قال: أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» في المعجم الكبير٧: ١٣٨، قال الهيثمي في مجمع الزوائد١٠: ٢٨٤: فيه أبو داود الأعمى، وهو متروك.



(٢١٠)

(ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً، وهو لا يحبُّ أن تكون لغيره عبداً)

أي ما أَحببت ـ أيها المريد ـ شيئاً من الأشياء إلا كنت له عبداً: أي منقاداً، كما قال بعضُهم:

إذا لعبَ الرِّجال بكلِّ شيءٍ ... رأيتَ الحُبَّ يَلعبُ بالرِّجال

وهو تعالى لا يحب أن تكون لغيره عبداً: أي لا يَرضى بذلك، وفي الحديث: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم والخميصة والقطيفة والزوجة»[1].

و قال الجنيد: إنك لن تكون على الحقيقة له عبداً، وشيء مما دونه لك مُسترِقٌّ، وإنّك لن تصل إلى صريح الحرية، وعليك من حقوق عبوديتك بقية، فإنّ المكاتَب عبدٌ ما بقي عليه درهم.

والحاصل: أن محبة الشيء مُلزِمةٌ للعبودية له، فاجعل محبَّتك لمن تلزمك عبوديتُه، وتَعُودُ عليك بغاية النفع عنايتُه، و ليس ذلك إلا مولاك، فإن أحببت غيره لا من حيث النِّسبة له أغضبتَه؛ لأنه لا يرضى الشركة، وأما إذا أحببت غيره من حيث النِّسبة له كالأنبياء والمرسلين والعلماء والصالحين، فهو من باب الحب في الله تعالى، وهو محمود بلا اشتباه.

---

(١) فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض» في صحيح البخاري٤: ٣٤.



(٢١١)

(لا تنفعه طاعتك، و لا تضرّه معصيتك، و إنّما أمرك بهذه ونهاك عن هذه؛ لما يعود عليك)

يعني أنّ الحقَّ سبحانه لا تنفعه طاعتُك ـ أيها المريد ـ فإنّه هو الغَنِي الحميد، ولا تضرُّه معصيتُك، ولا معصية جميع الأنام، فإنّه منزَّهٌ عن أن يصل إليه مكروه من خلقِهِ لعزّته التي لا تُرام[١]، و إنّما أَمرك بالطَّاعة ونهاك عن المعصية لحكمة يرجع نفعها عليك، فاشكر هذه النعمة واستحضرها على الدوام بين عينيك، ثم علَّل ذلك بقوله:



(١) عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديتُه، فاستهدونى أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفرونى أغفر لكم، يا عبادي إنكم **لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» رواه مسلم ٢٥٧٧.

(٢١٢)

(لا يزيد في عِزِّه إقبالُ مَن أَقبل عليه، ولا يُنقص من عِزِّه إدبار من أَدبر عنه)

يعني أنه سبحانه لا يعود عليه نفعٌ من عبيدِه، و لا يلحقُه ضررٌ منهم؛ لكون عِزِّه الذي هو صفة من صفاته الجامعة كالكبرياء والعظمة في غاية الكمال، لا يَعتريه نقصٌ من المعصيةِ، ولا زيادةٌ من الطَّاعة و الإقبال.



(٢١٣)

(وصولُك إلى الله تعالى وصولُك إلى العلم به، وإلا فَجَلَّ رَبُّنا أن يتصل به شيءٌ أو يتصل هو بشيءٍ)

يعني أنّ الوصولَ إلى الله تعالى الذي يُشير إليه أهل هذه الطَّريق، فيقولون: فلان واصل، أو من أهل الوصول، إنّما هو الوصول إلى العلم الحقيقي بالله تعالى، وهذا هو غاية السَّالكين ومنتهى سير السَّائرين.

و إلا نُرِدْ ذلك(١)، بل أردنا الوصول المفهوم بين الذوات، فلا يصحّ؛ لأنّه تعالى منزّهٌ عنه؛ إذ لا يتصل من لا شبيه له بمَن له شبيه ونظير.



(١) أي إن لم نرد المعنى المتقدم من الوصول المعنوي ....

(٢١٤)

(قُرْبُك منه أن تكون شاهداً لقربه، وإلا فمن أين أنتَ ووجودُ قربِهِ)

يعني أنّ مقامَ القُرْب الذي يُشير إليه أُهل هذه الطَّريق إنَّما هو مشاهدتُك لقربه تعالى منك قرباً معنوياً؛ لقوله سبحانه: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [١٦: ق]، فتستفيد بهذه المشاهدة شدة المراقبة وغلبة الهيبة، و التأدب بآداب الحضرة بحيث لا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

وإلا نُرد القرب المعنوي بل أردنا القرب الحسي فلا يصح(١)؛ لأنّه لا مناسبة بين القديم والحادث، فلا يَليق بك إلا وصف البعد، وشهوده من نفسك، كما سيقول المؤلف: إلهي ما أقربك مِنِّي وما أَبعدني عنك.



(٢١٥)

(الحقائق ترد في حال التَّجَلِّي مُجمَلةً، وبعد الوَعْي يكون البيان: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [١٨-١٩: القيامة])

يعني أنّ العلومَ اللدنية التي يقذفُها الحقُّ تعالى في أَسرار الأبرار عند براءتهم من الدعوى وتحررهم من رِقِّ الأغيار لا تتوقَّف على تعلُّم ولا دراسة،

---

(١) ومثل ذلك نفهم مجازياً قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ [الحديد: ٤]، وقول الله تعالى في الحديث القدسي: «وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» أخرجه البخاري ٦٩٧٠ ومسلم ٢٦٧٥، عن أبي هُريرةَ ﵁.

بل هي منحٌ إلهيةٌ في غايةِ النَّفاسة تَرِدُ في حال التَّجلي من اللهِ تعالى على قلوبهم مُجْمَلَةً لا تتبين لهم معانيها؛ لِعِظَمِ تجلِّي الرَّحمن.

وبعد الوعي بزوال ذلك التَّجلي يكون البيان، فيتبين لهم معناها، وموافقتها لما في أيديهم من العلوم النَّقلية والعقلية، فإن الحقيقةَ موافقةٌ للشَّريعة لقولهم: حقيقةٌ بلا شريعةٍ باطلةٌ، وشريعةٌ بلا حقيقةٍ عاطلةٌ.

فالحقائق الواردة على قلوب العارفين فيها نوع شبه بالوحي المنزل على سيد العالمين، ولذلك استدل بقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ ﴾: أي أقرأناه لك على لسان جبريل عليه السلام: ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾: أي فاستمع لقراءته، ثم اقرأه بعد ذلك، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾: أي بيان معانيه لك.

والمراد هنا: فإذا ألقينا عليك ـ أيها العارف ـ شيئاً من الحقائق اللَّدُنِّيَّة والعلوم الإلهاميَّة، فلا تُعمِل فكرَك، وراجعْ إلينا في تبيين المُبْهَم، وتفصيل المُجْمَل، فإن ذلك علينا، وصدق الالتجاء منك أجمل.



(٢١٦)

(متى وردت الواردات الإلهية إليك هُدِمَت العوائد عليك: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [٣٤: النمل])

أي متى وصلت التَّجليات الإلهية إلى قلبك ـ أيها المريد ـ وحصل لك من المعارف والأحوال ما تميز به بين ما للشَّقي والسعيد هُدِمت العوائد التي اعتادتها نفسك الخبيثة عليك، وقربت الأحوال السَّنية التي يحسن التَّخلق بها إليك.

فإنّ الواردات الإلهية لها سلطنة عظيمة: كالملوك، فإذا وردت على قلب مشحون بالخبائث أزالتها عنه، حتى يصلح للسلوك، ولذا استدل[١] بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ ﴾: أي جنودهم، ﴿ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [٣٤: النمل]: أي أزالوا ما تلبس به أهلها من النَّعيم، وكذلك الواردات الإلهية شبيهة بجنود الملك، فتقهر القلب على ترك تعلُّقه بالشهوات، ولا تتركه حتى يستقيم، ثم وضح ذلك بقوله:



(٢١٧)

(الوارد يأتي من حضرة قهَّار لأجل ذلك لا يُصادمه شيءٌ إلا دمغه: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [١٨: الأنبياء])

يعني أنّ الوارد الإلهي الذي يَرِدُ على قلب العبد الذي أراد الله تعالى تخليصه من رقِّ الأغيار يأتي من حضرة اسمه تعالى قهار، ومعناه الغالب؛ لأجل ذلك لا يُصادمه شيءٌ من رعونات البَشرية إلا دمغه: أي أصاب دماغه، وفي ذلك إتلافه[٢].

(١) والاستدلال هنا من التفسير الإشاري، وليس على ظاهر المعنى.

(٢) مما يشير إلى هذا المعنى وأن الله إذا مَنَّ بالنور على القلب فإنه يصلحه ويشرحه ويوسع معارفه، ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ثم قال: «إن النور إذا دخل الصدر انفسح» فقيل: يا رسول الله؛ هل لذلك من علم يعرف؟ قال: «نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله» أخرجه الحاكم ٧٨٦٣ والبيهقي في شعب الإيمان ١٠٠٦٨.

وهو أيضاً حقٌّ وَرَدَ على باطل، وقد قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [١٨: الأنبياء]: أي ذاهب، فإذا وردت الواردات الرَّبانية ذهبت بالطَّبائع العادية، فيصير البَخيل كريماً، والجبان شجاعاً، والحريص زاهداً، والكسلان مجتهداً، والغافل متيقظاً، والمُتسخط راضياً، والمعتمد على الأسباب متوكلاً، والمصرُّ على المعاصي مستغفراً إلى غير ذلك من تبديل الخصلة السيئة بالحسنة، حتى لا تصدر من المريد إلا الأمور المستحسنة.

وقد علمت أنّ هذا إنّما يكون لمن أراد الله تعالى استخلاصه من الأغيار، فلا ينافي قوله فيما تقدَّم: «رُبَّما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشواً بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت».

أسأل الله تعالى أن يَمُنَّ علينا بجميل الهِبات، ويُصلح فساد قُلوبنا بجنودِ الواردات.



(٢١٨)

(كيف يحتجبُ الحقُّ بشيءٍ؟ والذي يحتجبُ به هو فيه ظاهر وموجود حاضر)

هذا كقوله فيما تقدم: «كيف يتصوَّر أن يحجبهَ شيءٌ، وهو الظَّاهرُ في كلِّ شيءٍ»، يعني أنّه سبحانه في كلِّ شيءٍ ظاهر؛ لأنّ به تعالى قام كلُّ شيءٍ، فأهل

البصائر يشاهدون أنه في كلِّ موجودٍ حاضرٌ[١]، فكيف يكون ما هو ظاهر فيه حجاباً له حتى يستدلَّ به عليه؟ وما ذاك إلا من عمى البصيرة وعدم الوصول بأنوار معرفته إليه.



(٢١٩)

(لا تيأس من قَبول عمل لم تجد فيه وُجود الحضور، فرُبَّما قَبل من العمل ما لم تُدرَك ثمرتُه عاجلاً)

أي إذا لم تجد العلامة على قَبول العمل، التي هي حضور قلبك فيه مع الله تعالى بأن تلاحظ أنك حاضر بين يديه؛ فلا تيأس من قبوله، فإنّها علامةٌ غير مُطَّرِدَة؛ لأنه رُبّما قبل من العمل ما لم تُدرَك ثمرتُه: أي علامةُ قبوله عاجلاً، وإنّما الشَّرطُ في القَبول: الإخلاص، أي قصد وجه الله تعالى بالعمل.

وأمّا الحضور بالقلب[٢] واستلذاذه بالطَّاعة ووجدان حلاوتها، فهي علامات لا شروط.

---

(١) وهذا معنى المعية والظهور في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣]، وقوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

(٢) تَكَلُّفُ الحضورِ بالقلب حين الذكرِ قدرَ الإمكانِ مطلوبٌ، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ [الكهف: ٢٨]، وهذا شرط في الذكر، أما العلامة فأن يَمُنَّ الله عليك بدوام حضور القلب، ويمنع الشواغل والأغيار من التأثير على قلبك. والله أعلم.



(٢٢٠)

(لا تزكين وارداً لا تعلم ثمرته، فليس المراد من السحابة الأمطار، وإنما المراد منها وجود الأثمار)

هذا رجوعٌ منه للكلام على الوارد يعني: إذا ورد عليك ـ أيها المريد ـ واردٌ فلا تزكينه: أي لا تمدحنه، ولا تفرح به، حتى تعرف ثمرته، وتتحقَّق بها، وهي تأثرُ القلب به، وتبدل صفاته المذمومة بصفات محمودةٍ، فتنشط الجوارحُ للأعمال، وتقوم بخدمة ذي العِزّة والجلال، فليس المراد من السَّحابة الأمطار، بل ما يَنشأ عن المطر من وجود الأثمار.

فكذلك الوارد إذا لم تحصل ثمرتُه، تكون تزكيته نوعاً من الاغترار؛ لأنّه حينئذٍ يكون مدحُه لحظِّ النَّفس فيه من العلم الذي لم يحصل به للقلب استبصار.



(٢٢١)

(لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بَسَطَتْ أنوارها، وأَوْدَعَتْ أسرارها، فلك في الله تعالى غِنىً عن كلِّ شيءٍ، وليس يُغنيك عنه شيءٌ)

أي لا تَطْلبَنَّ بقاءَ التَّجليات والأحوال، التي وردت على قلبك بعد أن

بسطت عليه أنوارها، فتُكيِّفُ ظاهرَك وباطنك بكيفيات العبودية، وأَودعتْه أسرارَها، استغناءً عنها بالملك المعبود، كما قال بعضُ أهل الشُّهود:

لكلِّ شيءٍ إذا فارَقْتَه عِوَضٌ ... وليس لله إن فارَقْتَ مِن عِوَضِ

فإنَّ الرُّكون إلى الواردِ قادحٌ في إخلاص التَّوحيد؛ لأنه من الأغيار الشَّاملةِ للأنوار والمقامات والأحوال.

فكن عبداً للعزيز الحميد، فإنّه إنّما أدخلك في الحال؛ لتأخذ منها لا لتأخذ منك؛ لأنه وجهها إليك باسمه المبدئ، فأبداها حتى إذا أدّت ما كان لك فيها أعادها باسمه المعيد وتوفاها، ثمّ علَّل ذلك بقوله:



(٢٢٢)

(تطلعك إلى بقاء غيره دليلٌ على عدم وُجْدانِك له، واستيحاشُك لِفُقْدان ما سواه؛ دليلٌ على عدمِ وَصْلَتِك به)

يعني أنّ تَطلعك وتشوفكَ إلى بقاءِ غيره تعالى من الواردات المذكورة وغيرها من المقامات والأحوال والنعم الظَّاهرية والباطنية دليلٌ على عدم وجدانك له تعالى؛ إذ لو وجدته في قلبك لم تطلب بقاء غيره، ولو وصلت إليه لم تستوحش عند فقد شيء سواه، فإنّه غاية المطالب، ومنتهى الآمال والمآرب، كما قال بعضُ العارفين:

كانت لقلبي أهـواءٌ مفـرَّقةٌ ... فاستجمعتْ مُذْ رَأَتْكَ العَيْنُ أهوائي

فصار يحسدني من كنتُ أحسدُهُ ... وصِرْتُ مولى الوَرَى مُذْصِرْتَ مَوْلائي
تركتُ للنَّـاس دُنْياهم ودِينَهمُ ... شُغلاً بذكرك يا دِيني ودُنيائي



(٢٢٣)

(النَّعيم وإن تنوَّعت مظاهرُه إنّما هو بشهودِه واقترابِه، والعذاب وإن تنوَّعت مَظاهره إنّما هو بوجودِ حجابه، فسبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النَّعيم بالنَّظر إلى وجهِهِ الكريم)

يعني أنّ النَّعيم وإن تنوَّعت مظاهرُه التي يَظْهرُ فيها من المَطاعم والملابس ونحوها في هذه الدَّار، وفي تلك الدَّار إنّما هو بشهودِه تعالى بالبصيرة في الدُّنيا والبصر في الآخرة، واقترابه سبحانه من العبد قرباً معنوياً.

وأمَّا إذا لم يكن شهودٌ واقترابٌ كان ذلك النَّعيم في الحقيقةِ عينُ العذاب، فإنّ العذاب وإن تنوَّعت مظاهرُه التي يظهرُ فيها من أنواع العقوبات: كحميم وزَقوم وسَلاسل وأغلال إنّما هو بسبب احتجاب العبد عن ذي العِزَّة والجلال.

وأمَّا عند مشاهدتِه، فليس ذلك بعذاب، وقد وضح ذلك بقوله: فسبب العذاب وجود الحجاب: أي لا تلك المظاهر لذاتها، ولذلك لم تكن النَّار عذاباً على الملائكة الموكلين بها.

ويلوح لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [١٥ـ ١٦: المطففين]، ثمّ قال: وإتمام النَّعيم بالنَّظر إلى

وجهه الكريم: أي لا بتلك المظاهر لذاتها، فهجره أعظم من ناره، ووصله أطيب من جنَّته[١]، أسأل الله تعالى جميل الوصال.



(٢٢٤)

(ما تجدُه القلوبُ من الهموم والأحزان؛ فَلِأَجْلِ ما مُنِعَتْ من وجودِ العِيان)

يعني أنّ الذي تجده القلوب من الهموم المتعلِّقة بالمستقبل والأحزان المتعلقة بالماضي، إنما يكون لأجل ما منعته من وجود العِيان ـ بكسر العين المهملة ـ أي معاينة الحقّ جل شأنه بعين البصيرة، وذلك من نتائج رؤية النَّفس وبقاء حظِّها.

فلو غاب شخصٌ عن رؤيةِ نفسِهِ بمعاينة سيِّده كان دائم الفرح، كما أخبر الله تعالى عن سيد الأبرار حين، قال لصاحبه في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [٤٠: التوبة]، فمَن استنار قلبه بنور المعرفة زال همُّه، وتباعد عنه غمُّه، لكن مَن لم يصل إلى هذا المقام يكون همُّه مُصفياً لقلبه، وموجباً لتطهيره من الذنوب والآثام، فإن الهموم في الأمور الدنيوية – كطلب المعيشة – كفَّارات، وفي الأمور الأُخروية رَفع الدَّرجات.



(١) كما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال المفسرون: الحسنى الجنة، والزيادة مشاهدة الله وقربه.

(٢٢٥)

(من تمام النِّعمة عليك؛ أن يرزقَك ما يَكفِيْكَ، ويَمنعَك ما يُطغِيْك)

يعني أن من تمام نعمة الله عليك ـ أيها المريد ـ أن يرزقكَ ما يَكفيك من غير زيادة ولا نقصان[1]، فإنّ في الزِّيادة عن الكفاية الطُّغيان، قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [٦ـ ٧: العلق]، وفي النُّقصان عن الكفاية الاشتغال عن طاعة الله تعالى والتَّعرض للسؤال.

وقد قالوا: إذا كان العبدُ في كفاية، ثمّ مال إلى الدُّنيا سلبه الله تعالى حلاوة الزُّهد، ثمّ ذكر فائدة تترتب على الرِّضا بالكفاف فقال:



(٢٢٦)

(لِيَقِلَّ ما تفرحُ به؛ يَقلُّ ما تحزنُ عليه)

أي ليقلَّ الشَّيء الذي تفرح به من المال والجاه ليقلَّ حزنُك عليه عند فقده[2]، فإنّ المفروحَ به هو المحزون عليه إن قليلاً فقليل، وإن كثيراً فكثير، كما قيل في ذلك:

---

(١) قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورُزِقَ كفافاً، وقَنَّعَه الله بما آتاه» رواه مسلم ١٠٥٤ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وقد دعا النبي ﷺ لآله: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» أخرجه البخاري ٦٠٩٥ ومسلم ١٠٥٥ وفي مسلم بلفظ «كفافاً» أيضاً.

(٢) قال تعالى: ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ ﴾ [الحديد: ٢٣]، وقد عَرَّف الإمام أحمد الزهدَ بهذه الآية.

على قدر ما أُوْلِعْتَ بالشَّيء حُزْنُه ... ويَصعبُ نزعُ السَّهم مهما تَمكَّنا

ودرءُ مفسدةِ وجود الحزن مُقدَّم على جلب مصلحة الفرح الذي لا يدوم، كما قيل:

ومَن سَرَّه أن لا يَرَى ما يَسُوؤه ... فلا يَتَّخِذْ شيئاً يَخافُ له فَقْدا

فإنّ صلاحَ المرءِ يَرجعُ كلُّه ... فساداً إذا الإنسانُ جاز به الحَدّا

ثم ذكر ما هو من أفراد ذلك بقوله:



(٢٢٧)

(إن أردت أن لا تُعزل فلا تتولَّ ولايةً لا تدوم لك)

يعني إن أردت أن لا تُعزل فتحزن بسبب العزل عن الولاية، فلا تتول ولايةً لا تدوم لك، فإنّها نعمت المرضعة وبئست الفاطمة[1].

مُبتدأٌ حُلْوٌ لمن ذاقَه ... ولكن انظر خَبَرَ المبتدأ

كما أشار إلى ذلك بقوله:



---

(١) قال ﷺ: « إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة، وبئست الفاطمة » أخرجه البخاري رقم ٦٧٢٩ عن أبي هريرة ﷺ. وقوله: « فنعم المرضعة»: أي إن الإمارة تعطي الأمير من المنافع العاجلة واللذات والجاه والسلطان، «وبئست الفاطمة»: فإذا انفطم عن الإمارة بموته أو بغيره؛ لم يبق له من منافعها ولذاتها شيء، وإنما بقي الحساب والسؤال، فلا يجد إلا شراً؛ إن لم يقم بحقها.

(٢٢٨)

(إنْ رَغَّبَتْك البدايات؛ زَهَّدَتْك النِّهاياتُ، إنْ دعاك إليها ظاهرٌ؛ نَهاكَ عنها باطنٌ)

يعني إذا رغبتك ـ أيّها المغترّ ـ بدايات الأمور الدُّنيوية كالولاية لرَونقها الظَّاهر زهدتَك نهايتُها من العزل عنها ولو بالموت، ونهاك عنها باطنُها من كونها شاغلةً عن طاعةِ عالم السَّرائر.

فالأمورُ الدُّنيوية في الظَّاهر تسرُّ، وفي الباطن تضر، فمتى رغبتك البدايات بتسهيل ما تريد، زهدتك النِّهايات بالوقوع فيما لا تُريد، فالعاقل مَن زهد في الدُّنيا، وتأمل قول العزيز القهار: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [٣٩: غافر][(١)].



(٢٢٩)

(إنَّما جعلها محلاً للأغيار ومعدناً للأكدار؛ تزهيداً لك فيها)

---

(١) وتأمل حديث النبي ﷺ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: « أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ » فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: « أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟ » قَالُوا: وَالله لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: « فَوَالله لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى الله مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ » أخرجه مسلم ٢٩٥٧، (كنفته) أي جانبه، (جدي أسَكّ) أي صغير الأذنين، أو مقطوعهما.

يعني أنّه سبحانه إنّما جعل الدُّنيا محلاً للأَغيار كالأمراض والمحن، ومعدن للأكدار التي تكدر الإنسان ـ فهو بمعنى ما قبله ـ؛ ليزهدك فيها، فورود الأكدار من جملة النعيم عليك؛ لكونها تزهدك في الدنيا قبل أن يَصِل ضررُها إليك.



(٢٣٠)

(علم أنّك لا تقبل النُّصْح المُجَرَّد، فذَوَّقَك مِن ذواقِها ما يُسَهِّلُ عليك وُجودَ فِراقها)

يعني أنّ اللهَ سبحانه عَلِم منك ـ يا مَن استحكم فيك حبُّ الدُّنيا الفانية ـ أنّك لا تَقبلُ نُصْحَ النَّاصحين لك المجرد عن البلايا والأمراض، فذوقك من ذواقها: أي مما شأنه أن يُذاق فيها من تلك المحن ما يُسهل عليك فراقها، فإنّ العبد إذا نزل به شيءٌ من ذلك يتمنَّى الموت ومفارقة الدنيا.

فعدَّ ذلك عليك من أعظم المنن، وإن ظَهَرَ لك في صورة البلايا والمحن، وأمّا مَن لم يستحكم في قلبه حُبُّ الدُّنيا، فإنّ مجردَ النُّصح يكفيه، كما قال بعضُهم:

العبدُ يُقْرَعُ بالعصا والحرُّ تكفيه الملامَه

ولله درّ القائل:

إن لله عِباداً فُطُناً طَلَّقوا الدُّنيا وخافوا الفِتَنا

نظروا فيها فلمّا عِلِموا أنّها ليست لِحَيٍّ وَطَنا
جعلوها لُجَّةً واتخذوا صالحَ الأعمال فيها سُفُنا



(٢٣١)

(العلم النافع: هو الذي يَنْبَسِطُ في الصَّدر شُعاعُه، ويُكشَفُ به عن القلب قِناعُه)

يعني أنّ العلمَ النَّافع: هو العلم بالله تعالى وصفاته وأسمائه والعلم بكيفية التعبد له والتَّأدب بين يديه؛ لأنّه العلم الذي ينبسط في الصدر شُعاعُه ـ أي نوره ـ، فيتسع وينشرح للإسلام، ويُكشَف به عن القلب قِناعُه ـ أي غطاؤه ـ، فتزول عنه الشُّكوك والأوهام.

قال الجنيدُ: العلم أن تعرف ربَّك ولا تعدو قدرك: أي هو معرفة الله وحسن الآداب، فلا تغترَّ بعلم اللِّسان، وعليك بالعلم الذي يُوصلك إلى الكريم الوهاب، كما قال المصنف:



(٢٣٢)

(خيرُ العلم ما كانت الخَشية معه)

يعني أنّ العلمَ النَّافع: هو ما كان صاحبُه مُلازماً للخَشْية، وهي خوفٌ

مع إجلال يَنْشأ عنه العمل(١)، وقد أَثْنَى اللهُ تعالى على العلماء بذلك، فقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [٢٨: فاطر].

وأمّا العالم الذي لا خشية معه، فليس عالماً على الحقيقة(٢)، خصوصاً إذا كان همّه الجمع والادخار والمباهاة والاستكبار.

فإنَّ علمَه هذا حجةٌ عليه وسبب في جرّ وبال العقوبة إليه؛ لأنه لا يكون

---

(١) وقد قرن الله تعالى بين العمل وبين العلم، فقال: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلزِرَةٌ أي أولئك المذكورون في أول الآية، فوَصَفَ الخوفَ والرجاء والاجتهاد في العبادة بأنه هو العلم] وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

(٢) كما بين ذلك النبي ﷺ حيث أخبرنا بأن الناس قد تغتر بالعالم فتصفه بالعلم وهو ليس بعالم لأنه ليس عنده إيمان، فالعلم النافع ما كان مبنياً على الإيمان والإخلاص، فعن حذيفة ﵁ قال: « حدثنا [أي النبي ﷺ] أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من الكتاب، ثم علموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال [أي النبي ﷺ]: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت [الأثر اليسير للشيء]، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المَجْل، كجَمْر دحرجته على رِجْلك فنَفِط، فتراه مُنْتَبراً وليس فيه شيء [أي إن الجمر إذا أصاب جلد الإنسان إصابة سريعة فإنه يحرقه حرقاً خفيفاً يؤدي إلى انتفاخ الجلد، وهذا الانتفاخ لا يحتوي على شيء ذي بال، كذلك الأمانة حينما يفقدها الإنسان، يُظَنُّ أنه أمين، وما هو إلا وهم لا حقيقة له، يتظاهر بالخلق وما هو بمتحقق به]، ثم أخذ الرسول ﷺ حصى فدَحْرَجَه على رجله، ثم قال: فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجلدَه، وما أَظْرَفَه، وما أعقلَه، وما في قلبه مِثقالُ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ مِن إيمان » أخرجه البخاري ٧٠٨٦، ونحوه مسلم ١٤٣.

من ورثة الأنبياء(١)، إلا إذا كان بصفةِ المورِّث عنه من الزُّهد في الدُّنيا والرغبة في الآخرة وتمكن التقوى منه(٢)، وما ألطف قول بعضهم:

لو كان للعلمُ من دون التُّقى شرفٌ لكان أَفضلَ خلقِ الله إبليسُ

ولقد أَحْسَنَ مَن قال:

قالوا: فلانٌ عالمٌ فاضلٌ فأكرِموه مثلَ ما يُرتضَى
فقلت: لَـمّا لم يكن ذا تُقَى تعارَض المانعُ والمقتضَى

وناهيك قوله سبحانه في كتابه المكنون: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

---

(١) إشارة إلى حديث النبي ﷺ: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً؛ سَلَكَ اللهُ له [به] طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم، وإن العالِمَ لَيَستغفرُ له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحِيْتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر» حديث حسن، أخرجه الترمذي رقم ٢٦٨٢ والدارمي نحوه رقم ٣٤٢ عن أبي الدرداء ﷺ، وروى أبو داود وأحمد بعضه.

(٢) فهذا الذي بين الله تعالى أنه ترتفع درجته من أهل العلم، قال سبحانه: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ [المجادلة: ١١]، وعلى هذا يُفهَم قول النبي ﷺ: « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم » حديث حسن، أخرجه الترمذي ٢٦٨٥، عن أبي أمامة الباهلي ﷺ، أي صاحب الفضل هو العامل العابد، وفُضِّلَ بعِلْمه لأنه يعبد على علم، ولأنه لا يقتصر نفعه على نفسه بل ينفع غيره أيضاً، والعالم الذي لا يستفيد من علمه خاسر ولو نفع الناس، قال ﷺ: «مثل الذي يُعَلِّم الناسَ الخيرَ ويَنسَى نفسَه؛ كمثل المصباح يضيء للناس ويَحرِقُ نفسَه» حديث حسن، أخرجه الطبراني في المعجم الكبير رقم ١٦٨٥ عن أبي ذر ﷺ، وقد روي الحديث بلفظ «السراج» وبلفظ «الشمعة» بدل «المصباح».

وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [٧: الروم]، فالزم الطَّاعة إن أردت أن تكون من العلماء العاملين، واستعذ بالله تعالى من علم لا ينفع، كما استعاذ منه سيد الأولين والآخرين(١).

ثمّ أكد المصنف ذلك بقوله:



(٢٣٣)

(العلم أن قارنته الخشية فَلَكَ، وإلا فعليك)

يعني أنّ العلم النَّافع الذي يكون لك ثوابُه هو ما قارنته الخشية من الله تعالى فتداوم العمل، وإلا بأن قصدت به المباهاة والتَّعاظم، فعليك وزره وخاب منك الأمل، فإنّه لا يكون العلم نافعاً إلا إذا كانت نيّة صاحبه طلب مرضاة مولاه، واستعماله فيما يُحبّه ويَرضاه؛ لأنّ التُّقرُّب إلى الله تعالى بالعلم هو مقصود الأكابر من القوم.

وناهيك قوله ﷺ: «كلُّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى ربي فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم»(٢)، وقد قالوا: مثل مَن قَطَعَ الأَوقات في طلب

(١) قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلمٍ لا يَنْفَعُ» أخرجه مسلم رقم ٢٧٢٢، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٢) فعن عائشة رضي الله عنها،قال ﷺ: «إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علماً، فلا بورك في طلوع شمس ذلك اليوم» في المعجم الأوسط٦: ٣٦٧، ومسند ابن راهويه٢: ٥٣٣: قال العراقي في المغني١: ١٣: إسناده ضعيف.

العلم، فمَكث أَربعين أو خمسين سنة يتعلم ولا يَعمل: كمثل مَن قَعَدَ هذه المدّة يَتَطَهَّرُ ويُجَدِّدُ الطَّهارة ولم يصل ركعة واحدة؛ إذ المقصودُ من العلم العمل، كما أنّ المقصودَ بالطَّهارة وجود الصَّلاة.

وقد سمع أبو داود الطيالسي[١] يحدث عن شعبة[٢] أنه كان يقول: الإكثار من هذا الحديث يصدكم عن ذكر الله تعالى، وعن الصَّلاة، فهل أنتم منتهون.

فإذا كان الإكثار من طلب الحديث بهذه المثارة عند هذين الإمامين مع ما فيه من الفوائد الأخروية، فما ظَنُّك بغيره من محدثات العلوم ومبتدعاتها، وقد ذكر طلب العلم عند الإمام مالك فقال: إن طلبَه لحسنٌ إذا صحَّت فيه النيّة، ولكن انظر ماذا يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي، ومن حين تمسي إلى حين تصبح، فلا تؤثرون عليه شيئاً.



---

(١) وهو سليمان بن داود بن الجارود الطَّيَالِسِي البصري، أبو داود، قال الفلاس: ما رأيت أحفظ منه، من مصنفاته: «المسند»، (١٣٣-٢٠٤هـ) . ينظر: العبر ١: ٣٤٥-٣٤٦. مرآة الجنان ٢:٢٩. روض المناظر ص١٤٨. الكشف ٢: ١٦٧٩. الأعلام ٣: ١٨٧. معجم المؤلفين ١: ٧٨٩.

(٢) وهو شُعْبَةُ بن الحَجَّاج بن الوَرْد العَتَكِي الواسطيّ البصري، أبو بسطام، قال الشافعي: لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق، قال ابن حجر: ثقة حافظ متقن، قال الثوري: هو أمير المؤمنين في الحديث، وهو أول من فَتَش بالعراق عن الرجال وذَبَّ عن السنة، وكان عابداً، (ت١٦٠هـ). ينظر: التقريب ص٢٠٨. مرآة الجنان ١: ٣٤٠-٣٤١.

(٢٣٤)

(متى آلمك عدم إقبال الناس عليك أو توجههم بالذَّم إليك، فارجع إلى علم الله تعالى فيك، فإن كان لا يُقْنِعُك علمُه، فمصيبتُك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مُصيبتك بوجود الأذى منهم)

يعني متى أوجعك عدم إقبال الناس عليك بالمدح أو آلمك توجههم إليك بالذم، فارجع إلى علم الله تعالى فيك، فإنه هو الذي يعلم ظاهرك وخافيك، فإن كنت عنده مخلصاً في أعمالك، فلا تغتمّ لذمّ الذامين، وإن كنت عنده ممقوتاً، فلا تغترّ بمدح المادحين، فإن كان لا ينفعك علم الله تعالى بك، بل نظرت إلى ما من المخلوقين، فمصيبتك الحاصلة لك بعدم قَناعتك بعلمه أشدُّ من مصيبتك بوجود الأذى منهم؛ لبعدك عن ربِّ العالمين، فلا ينبغي للمريد أن يكون مطمح نظره إلا إلى مولاه، فلا يفرح إلا بإقباله عليه، ولا يحزن إلا لإعراضه عنه، والعياذ بالله تعالى(١).

---

(١) ومن كان يطلب العلم ليقال عالم، وليمدحه الناس ويعظموه؛ فهو غير مخلص لله، وقد أخبر النبي ﷺ أنه ممن تسعر بهم النار وتحمى، فيكون من أول الداخلين، وكذلك من يقرأ القرآن ويجوده ليقال قارئ، ومن يتصدق ليقال جَواد، ويقاتل ليقال شجاع، والعياذ بالله، أخرج مسلم ١٩٠٥ عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه؛ رجل استشهد، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأُتي به، فَعَرَّفَه نِعَمَه، فعرَفَها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت =



(٢٣٥)

(إنّما أجرى الأذى على أَيدهم؛ كي لا تكون ساكِناً إليهم، أراد أن يُزعِجَك عن كلِّ شيءٍ؛ حتى لا يُشغلك عنه شيءٌ)

يعني أنه سبحانه إنّما أَجرى الأذى لك ـ أيها المريد ـ على أيدي الخَلْق لأجل أن لا تكون مائلاً إليهم بقلبك، فهو في الحقيقةِ نعمةٌ عليك؛ لأنه أَوصلك إلى مَن لا تَصِل النِّعم إلا منه إليك.

قال بعضُ العارفين: الصَّيحة من العدو سوط الله تعالى يضرب به القلوب إذا ساكنت غيره، ولولا ذلك لرقد العبدُ في ظلِّ العزِّ والجاه، وهو حجاب عن الله تعالى عظيم.

وكان بعضُ العارفين يقول في دعائه: اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لهم خلقك، فسخرت لهم خلقك فرضوا منك بذلك، اللهم إني أسألك اعوجاج الخلق عليّ حتى لا يكون لي مَلجأ إلا إليك.

وقال في «لطائف المنن»: اعلم أنّ أولياء الله تعالى حكمهم في بداياتهم

= العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

أن يُسَلِّط الخلقَ عليهم؛ ليظهروا من البقايا وتكمل فيهم المزايا، ولئلا يساكنوا هذا الخلق باعتماد أو يميلوا إليهم باستناد، ومن آذاك فقد أعتقك من رِقِّ إحسانه، ومَن أحسن إليك فقد استرقَّك بوجود امتنانه، ولذلك قال ﷺ: «مَن أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا الله له» (١)، كلُّ ذلك ليتخلص القلب من رقِّ إحسان الخلق، وليتعلق بالملك الحقِّ.

وقول المصنف: أَراد أن يُزعجك... الخ، بمعنى ما قبله، يعني أراد أن يُنَفِّرُكَ من كلِّ شيءٍ سواه، حتى لا يُشغلك عنه سبحانه شيء، وذلك من أكبر النِّعم عليك من الله تعالى، قال أبو الحسن الشَّاذليّ: آذاني إنسانٌ مرّةً، فضِقْتُ ذَرَعاً بذلك، فنمت، فرأيتُ يُقال لي: من علامة الصِّديقيَّة كثرة أعدائها، ثمّ لا يُبالي بهم.



(٢٣٦)

(إذا علمت أنّ الشَّيطان لا يَغْفَلُ عنك، فلا تَغفل أنت عمَّن ناصيتُك بيدِه)

يعني إذا تيقَّنت ـ أيها المريد ـ بالأدلة القَطعيّة أنّ الشَّيطان لا يَغْفَلُ عن

---

(١) فعن ابن عمر رضي الله عنه، قال ﷺ: «مَن استعاذكم بالله تعالى فأعيذوه، ومَن سألكم بالله تعالى فأعطوه، ومَن دعاكم فأجيبوه، ومن آتى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا الله له حتى تعلموا أن قد كافأتموه» في سنن أبي داود٤: ٣٢٨، وسنن النسائي الكبرى٣: ٦٥، ومسند أحمد٩: ٢٦٦، والمستدرك٢: ٧٣، وصححه.

إغوائك ومحاربتك من كلِّ جهةٍ، كما قصَّ اللهُ تعالى ذلك بقوله: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ [١٧: الأعراف][(١)]، قال ابنُ عَبَّاس رضي الله عنهما: من بين أَيدهم أُشككهم في آخرتهم، ومن خلفِهم أُرغبهم في دنياهم، وعن أَيمانهم أُشَبِّهُ عليهم أَمر دينهم، وعن شمائلهم أُزين لهم المعاصي، وأُحقِّقُ لهم الباطل، فلا تغفل أنت عن مولاك الذي ناصيتُه بيدك: أي قدرته.

وذلك بتحقيق عبوديتك له، وتوكّلك عليه، واعتصامُك به، والتجائك إليه، فإن الله تعالى يَكفيك شرَّه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴾ [٨٧: النساء] ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ [٦٥: الإسراء].

قال بعضُ العارفين: الشَّيطانُ منديل هذه الدَّار، يعني يَمسح به أَقذار النَّسب، وهي نسبةُ الشرور، وأنواع المعاصي والفساد إليه أدباً مع الله تعالى، وهذا سرُّ إيجاده كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ ﴾ [٦٣: الكهف]، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ [١٥: القصص]، وأمّا أن له حولاً وقوّة يضرُّ بها أو ينفع فلا، اهـ.

وفي الحديث: «إن إبليس قال: وعزَّتك وجلالك لا أَبرح أُغوي بني آدم

---

(١) وقال في الآية التي قبلها: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦]، وهذه الآية تبين لماذا يشعر السالك في أول سلوكه أن الشيطان كثير الوسوسة والهجوم على قلبه وفكره، فالشيطان حينما يراه يستقيم على أمر الله؛ يجابهه بالإزعاج والتشويش، ويقعد له عند كل أمر؛ قبل أن يُفْلِتَ منه بنور الإيمان والعمل الصالح.

ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله عز وجل: وعِزَّتي وجلالي لا أَبرح أَغفر لهم ما استغفروني»[١].

وقال ذو النون المصري[٢]: إن كان هو يَراكَ مِن حيث لا تَراه، فإن الله تعالى يَراه من حيث لا يَرى الله تعالى، فاستعن بالله تعالى عليه.



(٢٣٧)

(جعله لك عدواً لِيَحُوشَك به إليه، وحَرَّك عليك النَّفْسَ لِيدومَ إقبالُك عليه)

أي جعل اللهُ تعالى لك الشَّيطان عدواً، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [٦: فاطر]؛ ليحوشك: أي ليردَّك به إليه سبحانه، فإنّك إذا عرفت أنّك لا تطيق رد غوايته لك بنفسك اضطررت إلى الاستعانة عليه

(١) فعن أبي سعيد الخدري في مسند أحمد١٧: ٣٤٤، والمعجم الأوسط٨: ٣٣٣، قال الهيثمي في المجمع١٠: ٢٠٧: وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي أبي يعلى.

(٢) وهو ثوبان بن إبراهيم الإخميميّ المصري، أبو الفَيَّاض، قال ابن خلكان: «الصالح المشهور، أحد رجال الطريقة؛ كان أوحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً»، وهو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية، فأنكر عليه عبد الله بن عبد الحكم، واتهمه المتوكل العباسي بالزندقة، فاستحضره إليه وسمع كلامه، ثم أطلقه، فعاد إلى مصر، (ت٢٤٥هـ)، ينظر: وفيات الأعيان ١١: ٣١٥، والأعلام٢: ١٠٢.

بربك، فكان تسليطه في الحقيقة من الله تعالى عليك نعمة، فاشكر مولاك الحكيم عليها، وتأمل بفكرك هذه الحكمة.

وكذلك حرَّك عليك النَّفس بطلب متابعة الشَّهوة والهوى ليدوم إقبالك عليه تعالى، فإنّك لا تقدر على مجاهدتها، وقمع شهواتها إلا بمعونة مولاك، فإذا أَرجعك بها إليه فقد بلغك مناك، وكأن المصنف رضي الله عنه يشير إلى الأعداء الأربعة المجموعة في قول بعضهم:

إنِّي بُليت بأربع يَرمينَني ... بالنُّبل عن قَوْسٍ لها تَوتِيرُ
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... يا ربِّ أنت على الخلاص قديرُ



(٢٣٨)

(مَن أثبت لنفسه تواضُعاً، فهو المتكبِّرُ حَقَّاً؛ إذ ليس التَّواضع إلا عن رِفْعة، فمتى أثبتَّ لِنفْسك تواضعاً، فأنت المتكبِّر)

يعني أنَّ مَن أثبت لنفسه تواضعاً بأن خطر بباله أنه متواضع فهو المتكبر حقاً؛ إذ ليس التَّواضع الذي أثبتَه لنفسه ناشئاً إلا عن شهودِ رفعة كان يستحقُّها، وتَنازل عنها إلى ما دونها، وشهود ذلك هو عين التَّكبُّر.

فمتى أَثبتَّ لنفسك تواضعاً وشاهدت أنَّك نَزلت عن الدِّرجة التي تستحقُّها، فأنت المتكبِّر بها، ولا ينتفي عنك التَّكبُّر إلا بوجود الصفة حقيقة،

بأن لا ترى لنفسك قيمة ولا مرتبة[١]، كما قال الشِّبلي: مَن رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب.

وعلامة المتحقق بهذا الخُلُق: أن لا يغضبَ إذا عُوتب، ولا يَكره أن يُذَمَّ أو يُقْذَفُ بالكبائر، ولا يحرصُ أن يكون له عند النَّاس قدرٌ أو جاه.

وقال أبو يزيد: ما دام العبد يظنُّ أنّ في الخلق مَن هو شرٌّ منه، فهو متكبر، قيل: فمتى يكون متواضعاً ؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقاماً أو حالاً.

وتواضع كلّ أحدٍ على قدر معرفته بربِّه وبنفسه، فقد كان بعضُ العارفين إذا عارضه في الطَّريق كلب يوسع له، ويمشي هو أسفل منه، ويقول: هو أولى بالكرامة؛ لأنّي كثيرُ الذُّنوب، والكلبُ لا ذنب له.

وقال بعضُهم: لا يجوز للإنسان أن يرى لنفسه مَزِيَّة على غيره ولو كافراً؛ لعدم أَمْنِ العاقِبة، وناهيك قوله تعالى: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ﴾

(١) وإذا لم تكن الصفة حقيقةً عند المسلم؛ فإنه يجب أن يتكلفها حتى تصير هيئة راسخة في النفْس، عندئذ تسمى خُلُقاً، وذلك التكلف هو الذي يسمى التَّخَلُّق، والمسلم إن لم تكن عنده الأخلاق خِلْقة وجِبِلَّة فعليه أن يتكلفها حتى يتحقق بها، وإن كانت عنده خِلقة فعليه أن يتعاهدها حتى لا يفقدها، وقدجاء في السنة ما يدل على أن الأخلاق إما جبلة وإما تخلق، فقد روى ابن حبان في صحيحه ٧٢٠٣ قصة وفد عبد قيس، وفيهم أشج عبد قيس، وفي الحديث أنه قال له النبي ﷺ: « إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله »، قال: ما هما؟ قال: « الأناةُ والحِلْم »، قال: شيء جُبِلْتُ عليه، أوْ شيءٌ أتخَلَّقُه؟ قال: « لا بل جُبِلْت عليه »، قال: الحمد لله. وروى نحوه البخاري في الأدب المفرد رقم ٥٨٧ وأبو داود رقم ٥٢٢٥ والنسائي في السنن الكبرى رقم ٧٧٤٦ والطبراني في المعجم الكبير رقم ١٧٢٠٠.

[٩٩: الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ [٢٤: الأنفال] (١)، وفي الحديث: «لَقَلْبُ ابنِ آدمَ أشدُّ انقلاباً من القِدْر إذا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَاناً»(٢)، وكان ﷺ كثيراً ما يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»(٣)، ثمّ وضح ما تقدَّم بقوله:



(٢٣٩)

(ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنّه فوق ما صنع، ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنّه دون ما صنع)

فمَن جلس في آخر المجلس مثلاً، ورأى أنه يستحقُّ الجلوس في صدره،

---

(١) وليس معنى ذلك أن الله يقلبك كافراً أو فاسقاً ظُلْماً، وإنما معنى ذلك أن تخاف على نفسك أن تنقلب أنت إلى الكفر أو الفسق أو العصيان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤]، وقال: ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٤٩].

(٢) فعن المقداد بن الأسود: لا أقول في رجل خيراً، ولا شراً حتى أنظر ما يختم له، يعني بعد شيء سمعته من النبي ﷺ قيل: وما سمعت؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقلب ابن آدم أشد انقلاباً من القدر إذا اجتمعت غلياً» في مسند أحمد٣٩: ٢٣٨، والمستدرك٢: ٣١٧، وصححه.

(٣) فعن أنس ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء» في سنن الترمذي٤: ٤٤٨، وحسنه.

وإنّما فعل ذلك تواضعاً، فهو المتكبِّر(١).

ومَن رأى أن مرتبتَه أحطُّ من ذلك، وأنّ جلوسَه في آخر المجلس فوق ما يستحقُّ لكونه لا يَرَى لنفسه قدراً، ولا رتبةً، فهو المتواضع(٢).

---

(١) لا يرتفع المتواضع عند الله إلا أن يكون تواضعه خالصاً لله، لا للتوصل إلى مدح الناس والتقرب إليهم والنفع لديهم، قال ﷺ: « ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » أخرجه مسلم رقم ٢٥٨٨ عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) ذكر الشارح هنا نموذجاً من التواضع للناس، وقد جاء في الكتاب والسنة عدد من الصور المحرم من مظاهر الكبر، لا يكون العبد متواضعاً إلا أن يسلك سلوك المتواضعين فيها، مع تواضع قلبه، فمن ذلك: ١. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨]، وقال ﷺ: «بينما رجلٌ يمشي في حُلَّة، تعجبه نفسه، مُرَجِّل جُمَّتَه، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة» أخرجه البخاري رقم ٥٤٥٢ ومسلم رقم ٢٠٨٨ نحوه، عن أبي هريرة ﷺ، ٢. قال ﷺ: « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً » أخرجه البخاري رقم ٥٤٥١ عن أبي هريرة ﷺ، ومسلم نحوه رقم ٢٠٨٥ عن ابن عمر رضي الله عنهما، ٣. قال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل [فقير] مستكبر» أخرجه مسلم رقم ١٠٧، ٤. قال ﷺ: «من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار» حديث صحيح، أخرجه أحمد ٤/ ١٠٠ والترمذي رقم ٢٧٥٥ وأبو داود رقم ٥٢٢٩ عن أبي مِجْلَز ﷺ، ٥. من أبشع صور الكبر: حب التفاخر بما لم يصنع الإنسان: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وفي الحديث: « المُتَشَبِّعُ بما لم يُعْطَ كَلابِسِ ثوبي زُوْرٍ » أخرجه البخاري رقم ٤٩٢١ عن أسماء رضي الله عنها، ومسلم رقم ٢١٢٩ عن عائشة رضي الله عنها، وقد أخبرنا الله سبحانه أن الجنة دار المتواضعين، فقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].



(٢٤٠)

(التواضع الحقيقي: هو ما كان ناشئاً عن شهود عظمته وتجلي صفته)

يعني أنَّ التَّواضع الحقيقي الذي لا يبقى معه شائبة كِبْرٍ هو ما كان ناشئاً عن شهود عظمته تعالى، وتجلي صفته على العبد، كما قال في «عوارف المعارف»[1]: لا يبلغ العبد حقيقة التَّواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه، فعند ذلك تذوب النَّفس، وعند ذوبانها صفاؤها من غشِّ الكِبْر والعُجْب، فتلين وتنطبع للحقِّ وللخلق[2] بمحو آثارها، وسكون وهجها وغليانها، ثم

---

(١) لعمر بن محمد بن عبد الله البكري السهروردي البغدادي، شهاب الدين، أبي حفص، شيخ الصوفية ببغداد، وكان من كبار الصالحين وسادات المسلمين، وتردد في الرسلية بين الخلفاء والملوك مراراً، وحصلت له أموال جزيلة، ففرقها بين الفقراء والمحتاجين، وقد حج مرة، وفي صحبته خلق من الفقراء لا يعلمهم إلا الله تعالى، وكانت فيه مروءة وإغاثة للملهوفين وإعانة للمحتاجين، وأمر بالمعروف ونهي عن منكر، وكان يعظ الناس وعليه ثياب البذلة، (٥٣٩ - ٦٣٢ هـ، ينظر: البداية والنهاية١٧: ٢٠٩، والأعلام٥: ٦٢.

(٢) التواضع نوعان، تواضع لله، وهو فرض إيماني، فمن تكبر على الله كفر، وتواضُعٌ للخَلْق، وهو واجب أخلاقي، فمن تكبر على المؤمن فقد عصى، وفي التواضع لله، قال ﷺ: «العز إزاره والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته» أخرجه مسلم ٢٦٢٠، عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، وفي التواضع للمؤمنين قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال للمؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، والتواضع ينفي الفخر على الآخرين كما ينفي الاعتداء على حقوقهم، قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد =

علل ذلك بقوله:



(٢٤١)

(لا يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف)

أي لا يخرجك عن وصفك النَّفساني إلا شهود الوصف الرَّباني، فإذا لم تشهد عظمته وكبريائه وجلاله، فلا تتوهم أنّ لك نصيباً من التَّواضع الحقيقي، فقف عند حدِّك واعرف قدر نفسك، ولا تدّع أَحوال الرِّجال قبل أن تظفر بالنَّوال.

وهذا وإن كان مرتباً على ما قبله لكنه أعم منه، فلا يخرجك عن شهود القدرة والقوة من نفسك إلا شهود قدرة الله تعالى وقوته، ولا يخرجك عن شهود الغنى لك إلا شهود غناه، ولا يخرجك عن شهود العِزَّة لنفسك إلا شهود عِزَّته(١)، فتبقى بربك في الكل لا بنفسك، فتدبَّر ذلك، وجُدَّ في مَرضاةِ

= على أحد» أخرجه مسلم ٢٨٦٥ عن عياض بن حمار ﵁، وكان من تواضع النبي ﷺ ما ذكره خادمه أنس ﵁: «إن كانت الأمَة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت» أخرجه البخاري ٥٧٢٤، وعن الأسود قال: سألتُ عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مِهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة، أخرجه البخاري ٥٦٩٢.

(١) من هنا اعتنى الصوفية بتربية المريد السالك على أربع صفات من صفات العبودية، إذا تذكرها ولم يغفل عنها حققته في جميع أوصاف العبودية، وهي الذلة والضعف والعجز والفقر، فلا يتوهم أنه عزيز ولا قوي ولا قادر ولا غني، فهذه صفات الله وحده على الإطلاق، فإذا عرف لله صفاته؛ أزال بها العبد دعواه وتعاظمه، ومحق بها كبرياءه، واعترف بصفات نفسه، واعترف أنه الممد بالأوصاف، فنسب إلى الله كل خير أكرمه به.

مولاك قبل حُلول رَمْسِك.



(٢٤٢)

(المؤمنُ يُشغَلُه الثَّناءُ على الله تعالى عن أن يكون لنفسه شاكراً، وتشغله حقوق الله تعالى عن أن يكون لِحُظوظِه ذاكراً)

يعني أنّ المؤمن الحقيقي ذاهب عن نفسه، فلا يرى لها عَمَلاً صالحاً، وإنما يُشاهد الأفعال من الله تعالى، فإذا صلى أو صام أو فعل شيئاً من الطَّاعات شغله الثَّناء على الله تعالى الذي أوجد ذلك فيه، ووفقه له عن أن يكون لنفسه شاكراً؛ لعدم رؤيته لنفسه[1]، كما تشغله حقوق الله تعالى ـ أي مراعاتها ـ بأن يعبده لذاته عن أن يكون لحظوظه من طمع في جنّة أو خوف من نار ذاكراً[2]، كما وضح ذلك بقوله:



---

(١) وهذه الحكمة تبين أن الإنسان إذا تحقق بشكر الله تخلص من الكِبْر تلقائياً، فالمتكبر ينسب الفعل والخير إلى نفسه، والشاكر ينسبه إلى الله، مؤمناً ومتحققاً بقوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [هود: ٨٨]، وقوله ﷺ: «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك؛ فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر» حديث حسن، أخرجه أبو داود رقم ٥٠٧٣ عن ابن غنام ﵁، والنسائي رقم ٩٨٣٥، وابن حبان رقم ٨٦١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) فالمؤمن مُستغرِق في طاعة الله والعبودية له والقيام بحقه ورؤية نِعَمِه والشكر لفضله، كما قال سبحانه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦].

(٢٤٣)

(ليس المحبُّ الذي يرجو من محبوبه عوضاً، أو يطلب منه غرضاً، فإنّ المحبَّ مَن يَبذل لك ليس المحبُّ مَن تبذل له)

يعني ليس المحبّ الحقيقي: هو الذي يرجو من محبوبه عوضاً على أعماله كدخول الجنة أو النَّجاة من النار، أو يَطلب منه غرضاً من الأغراض الدنيوية أو الأخروية، فإنّ المحبَّ الحقيقيّ مَن يَبْذُل لَكَ ـ بفتح التحتية وضم المعجمة بينهما موحدة ـ أي يُعطيك[1]، كما قال القائل:

إنّ المحبَّ إذا أَحبَّ حبيبه تلقَّاه يَبذل فيه ما لا يُبذل

ولابن الفارض:

ما لي سوى رُوحي وباذِلُ نفسِه في حُبِّ مَن يهواه ليس بمُسرِفِ
فلئنْ رَضيتَ بها لقد أَسعفتني يا خيبةَ المَسعى إذا لم تُسعِفِ

وقال أبو عبد الله القرشيّ[2]: حقيقةُ المحبَّةُ أن تَهَب كلك لمن أَحببته حتى

---

(١) وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل حُبَّه تعالى مُوجِباً للطاعة واتباع النبي ﷺ دون شيء آخر.

(٢) وهو محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي الهاشمي الأندلسي، أبو عبد الله، قال ابن خلكان: «كانت له كرامات ظاهرة، ورأيت أهل مصر يحكن عنه أشياء خارقة، ورأيت جماعة ممن صحبه، وكلٌّ منهم قد نما عليه من بركته، وذكروا عنه أنه وعد جماعته الذين صحبوه مواعيد من الولايات والمناصب العلية، وذكروا عنه أنه وعد جماعته الذين صحبوه مواعيد من الولايات والمناصب العلية، وأنها صحت كلها، وكان من السادات الأكابر، والطراز =

لا يبقى لك منك شيء، وما ألطف قول بعضهم:

لئن بقيَتْ في العين مِنِّي قطرةٌ فإني إذاً في العاشقين ذليلُ

وقوله: «ليس المحبُّ»: أي الحقيقيّ «مَن تبذل له»؛ لأنّ المحبّة الحقيقية أخذُ خِصالِ المحبوبِ لحبّة قلب المحب، فلا يكون عنده التفات لغير محبوبه، فمَن عبَده تعالى لجنته، فليس محباً له، بل للجنة، كما قال بعضهم:

وما أنا بالباغي عن الحبِّ رشوةً ضعيفُ هوىً يرجو عليه ثواباً



(٢٤٤)

(لولا مَيادين النُّفوس ما تحقَّق سير السَّائرين؛ إذ لا مسافة بينك وبينه، حتى تَطْوِيَها رِحْلَتُك، ولا قُطْعَة بينك وبينه حتى تَمْحُوَها وَصْلَتُك)

يعني لولا شهوات النُّفوس ومألوفاتها التي تخوض فيها وتتعشقها، كما تخوض الفرسان في الميادين الواسعة التي تجول فيها الخيل؛ ما تحقَّق سير السائرين: أي ما تُصُوِّرَ سيرُ من أي مُريد، فإنّ الله تعالى أَقرب إليه من حبل الوريد.

= الأول، وهو مغربي، وصحب بالمغرب أعلام الزهاد وانتفع بهم، فلما وصل إلى مصر انتفع به من صحبته أو شاهده»، وله كلمات وجمل في آداب المعاملات وطرائق أهل الرياضات، جمعها بعض تلاميذه في كتاب «الفصول»، (٥٤٤ - ٥٩٩ هـ، ينظر: وفيات الأعيان٤: ٣٠٥، والأعلام٥: ٣١٩.

ولو تطهرت النُّفوس لعلمت أنَّها في حضرة القدوس، فالسُّير إلى الله تعالى إنّما هو قطع عقبات نفسك[١]، فإنّ البعد منسوب إليك لا إلى رَبِّك؛ إذ لا مسافة حسيّة بينك وبينه تقطعها رحلتك؛ لأنّها لا تكون إلا بين متماثلين.

ولا قُطعة ـ بضم القاف ـ أي لا مقاطعة توجب البعد المعنوي بينك وبينه، حتى تمحوها وصلتك؛ لأنّ ذلك لا يكون إلا بين متعاديين، وأين أنت من معاداة رَبِّك[٢]، فليس ثمّ حجابٌ يَمنع وصولك غير نفسك.

ولا يَزول ذلك الحجاب إلا بإماتتها وتطهيرها من كلِّ ما يغضب ربِّ الأرباب.

ولا يكون ذلك في الغالب إلا بتسليمها لشيخ عارف بما لها من الأحوال، فإنَّك تَصِل بالانقياد إليه إلى أعلى مراتب الكمال.



(١) عقباتُ النفسِ أخلاقُها المذمومة وأمراضها القلبية، كالرياء، الغرور، التكبر، العجب، الغضب، متابعة الهوى، واتباع الشهوات، الكسل وحب الراحة والدعة، التسخط وعدم الصبر والرضا والتسليم، الحقد، البغض، الحسد، القلق، وخوف الفقر وهم الرزق، الحرص، الشرَه، البخل، الأنفة، الرعونة، التسرع والعَجَلة، حب الاعتماد على الغير والترفع عليهم، حب الرياسة، وغير ذلك، ولا يزال العبد يُوَجِّه طبائعَه إلى جانب الخير، ويَصرِفُها عن جانب الشر، حتى تستقيم، ولا يزال في معركة مع النفس يغالبها وتغلبه ويسايسها حتى ينتصر عليها بإذن الله.

(٢) فالله يحبك ويكرمك ويريد بك الخير، ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

(٢٤٥)

(جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته؛ ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، وأنك جوهرةٌ تنطوي عليك أَصداف مكوَّناته)

أي جعلك أيها الإنسان عالماً متوسطاً بين مُلكه ـ بضم الميم ـ وهو عالم الشهادة ومَلكوتِه وهو عالم الغيب، ولم يجعلك مُلْكِيّاً محضاً، ولا مَلَكوتِيّاً محضاً، بل جعل فيك من عالم الملك جسمك، ومن عالم الملكوت روحك، وسِرَّك؛ ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، حيث جمعت بين الظاهر والباطن، وبين الجسمانيات والرُّوحانيات، ففيك انطوى العالم الأكبر.

ومتى تدبَّرت ذلك عَلِمت أنَّك جوهرةٌ نفيسةٌ تَنْطوي أي تحتوي عليك للخدمة والحفظ مكوناته التي هل لك كالأصداف المحيطة بالجوهرة . فإن الله تعالى سخر لك جميع مخلوقاته لنفعك كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ ﴾ [١٣: الجاثية]، فينبغي لك أن ترفع همَّتك عن الأكوان، وتشتغل بعبادة الكريم المنان، فإنّه يَقْبُحُ منك أن تَخْدُم الخدم، وتترك عبادة مولى النعم.

وفي بعض الكتب المنزلة: يا ابنَ آدم خَلَقتُ الأشياءَ كلَّها من أَجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما هو لك عمَّن أنت له.

وقد بَيَّن العلامة الشرقاوي انطواء العوالم في الإنسان بقوله: ففيه من صفات الملائكة العقل والمعرفة والعبادة، ومن صفات الشَّيطان الإغواء

والتَّمرد والطغيان.

ومن صفات الحيوانات أنه في حالة الغضب يكون أسداً، وفي حالة غلبة الشهوة يكون خنزيراً لا يُبالي أين يلقي نفسه، وفي حالة الحرص على الدُّنيا والشَّرَهِ يكون كلباً، وفي حالة الاحتيال والخداع يكون ذئباً.

ومن صفات النبات والأشجار أنه يكون في مبدئه غصناً طرياً مترعرعاً، وفي آخره يابساً أسود، ومن صفات السماء أنه محلُّ الأسرار والأنوار ومجمع الملائكة.

ومن صفات الأرض أنه محلٌّ لنبات الأخلاق والطِّباع، ومنه اللَّين والخشن.

ومن صفات العرشِ: أنّ قلبَه محلُّ التجلي، واللوحِ: أنه خِزانة العلوم، والقلمِ: أنه ضابط لها، والجنةِ: أنه إذا حَسُنتْ أخلاقه تنعَّمَ به جليسه، والنّارِ: أنه إذا قَبُحَتْ أخلاقُه احترقَ به جليسُه.



(٢٤٦)

(إنّما وَسِعَكَ الكونُ مِن حيث جُثْمانيتُك، ولم يسعك من حيث ثبوتُ روحانيتِك)

يعني أنك مناسب للكون ـ أي العالم السفلي وهو الأرض ـ من حيث جُثْمانيتك ـ بضم الجيم وسكون المثلثة ـ أي جسمك فقط، فلذا وسعك؛ لأنّ

جسمَك بعض الكون، وله فيه مصالح.

وأمّا رُوحك فلا تصلح أن تتعلّق بالكون؛ لعدم وجود مصالحها فيه، وإنما تصلح للتعلُّق بمُكَوِّن الأكوان، فلذا لم يَسَعْك الكون من حيث ثبوتُ روحانيتك(١).

---

(١) مما يدل على سعة القلب والروح قول رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى آنية من أهل الأرض، وآنيةُ ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبُّها إليه ألينُها وأرقُّها» حديث صحيح، أخرجه الطبراني في مسند الشاميين رقم ٨٤٠، عن أبي عِنَبَةَ الخولاني ﷺ، ومن هذا الحديث أخذ الصوفية مصطلح «الآنية»، فما ابتدعوه، وإنما تبعوا فيه نبيهم ﷺ،والحديث يدل على سعة قلب المؤمن، لكن هذه السعة ليس سعة حسية، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فليس يعتقد ذلك مسلم ولا عاقل أبداً، والله تعالى محيط بكل شيء، وإنما يتسع قلب المؤمن لله سعة معنوية ؛ يتسع لمعرفة الله وصفاته وأسمائه، حتى يكون بها خبيراً، ومن عرف الله فهو بمعرفة الخلق أقدر، قال الإمام عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١هـ): « (إن لله تعالى آنية): جمع إناء وهو وعاء الشئ (من أهل الأرض): من الناس أو من الجنة والناس أو أعم (وآنية ربكم) في أرضه (قلوب عباده الصالحين): أي القائمين بما عليهم من حقوق الحق والخلق بمعنى أن نور معرفته تملأ قلوبهم، حتى تفيض على الجوارح، وأما حديث "ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن" فلا أصل له (وأحبها إليه): أي أكثرها حباً عنده (ألينها وأرقها): فإن القلب إذا لان ورق وانجلى صار كالمرآة الصقيلة، فإذا أشرفت عليه أنوار الملكوت أضاء الصدرَ وامتلأ من شعاعها، فأبصرَتْ عينُ الفؤاد باطنَ أمر الله في خلقه، فيؤديه ذلك إلى ملاحظة نور الله تعالى، فإذا لاحظه فذلك قلب استكمل الزينة والبهاء بما رزق من الصفاء، فصار محلَّ نظر الله من بين خلقه، فكلما نظر إلى قلبه زاده به فرحاً، وله حباً وعزاً، واكتنفه بالرحمة، وأراحه من الزحمة، وملأه من أنوار العلوم »، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢: ٦٢٩، ٢٣٧٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٤ م.

فينبغي السَّعي في تكمينها بإخراجها عن مألوفات بشريَّتك، حتى تصلحَ للتَّعلق بربِّ البَرية، فترقى بمعراج كمالاتها إلى الحضرة القدسية.

فنظرك إلى الأكوان يحطُّك إلى أَسفل سافلين، ونظرُك إلى المُكوِّن يَرفعُك إلى أَعلى عليين، فاختر لنفسك ما يحلو.



(٢٤٧)

(الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب؛ مسجون بمحيطاته ومحصور في هيكل ذاته)

يعني أنّ مَن وَجَدَ في الدُّنيا ولم تفتح له خزائن العلوم والمعارف الغيبية الشبيهة بالميادين حتى يستنير بها قلبه ويشاهد أسرار رب العالمين فهو مسجون بمحيطاته ـ أي بشهواته المحيطة به ـ ومحصورٌ في هيكل ذاته ـ أي في هيكل هو ذاته النفسانية ـ والمراد شهواتها، فهو مرادف لما قبله.

وأمّا مَن طَهَّرَ نفسَه من الشَّهوات، وتخلَّص من سجن الرّعونات فقد وصل إلى أعلى درجات السعادة، وفتحت له ميادين الغيوب من عالم الغيب والشهادة، وفي بعض الآثار المروية عن الله عز وجل: عبدي اجعلني مكان همِّك أَكْفِكَ كلّ هم، ما كنتَ بك فأنت في محلّ البعد، وما كنتَ بي فأنت في محلّ القرب، فاختر لنفسك.



(٢٤٨)

(أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوِّن، فإذا شهدته كانت الأكوان معك)

يعني أنّك تكون مع الأكوان وعبداً لها ما لم تشهد المكوِّن سبحانه فيها وقائماً عليها ومدبراً لها، فإذا شهدته وعرفته حق معرفته؛ كانت الأكوان معك ومسخرة لك ومتبركة بك، حتى الحيوانات والجمادات.

وهذا حال علي الهمّة والإرادة، كما قال الشّبلي: ليس يخطر الكون ببال مَن عرف المكوِّن.

وقال بعضُهم: أنا أدخل السُّوق والأشياء تَشتاق إلي، وأنا عن جميعها حرٌّ.

وقال بعضُهم: أشرفتُ على إبراهيم بن أدهم، وهو في بستان يحفظُه، وقد أخذه النَّوم، وإذا حيَّةٌ في فيها طاقةُ نَرْجس تُروِّحُه بها.

وقال بعضُهم: كنت مع إبراهيم الخوَّاص[١]، فإذا عقرب تَسعى على فَخِذِه فقمت لأقتلها فمنعني، وقال: دَعْها كلُّ شيء مُفتقر إلينا، ولسنا مفتقرين إلى شيء.

وكان بعض الأولياء يقول للسَّماء: أمطري فتمطر.

---

(١) وهو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص، أبو إسحاق، كان أوحد المشايخ في وقته من أقران الجنيد، والخواص: بائع الخوص، (ت٢٩١ هـ، ينظر: الأعلام١: ٢٨.

وكان بعضُهم يتعبَّد في الجبل، فإذا أراد الذَّهاب إلى بيته يأتي إليه السَّبع خاضعاً فيَرْكَبُه.



(٢٤٩)

(لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية، إنّما مَثَلُ الخصوصية: كإشراق شمس النهار؛ ظهرت في الأفق وليست منه، تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك، وتارةً يقبض ذلك عنك؛ فيردّك إلى حدودك، فالنَّهار ليس منك وإليك، ولكنه وارد عليك)

يعني لا يلزم من ثبوت الخصوصية لأحد الخواص بإيصال الأوصاف العلية إليه، وإظهار النعوت القدسية عليه، فيتصرف في المكوَّنات، وتظهر على يده الكرامات؛ عدم وصف البشرية بالكلية(١)، فإن الأوصاف البشرية من العجز والجهل والفقر للعبد من الأمور الذاتية، خلافاً لمن قال: إن الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا بذمّ أوصاف البشرية، وزوالها بالكلية، والاتصاف بصفات الربوبية(٢).

(١) بالكلية: أي أبداً.

(٢) وأمر الله تعالى للمؤمنين بأن يكونوا ربانيين لا يعني أنهم متصفون بصفات الرب، وإنما يعني أنهم منتسبون إلى الرب، فهم أحبابه وأهل طاعته والمعلمون لشريعته والدعاة إلى دينه، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

فإنّ في ذلك من قلب الحقائق ما لا يخفى على مَن له أَدنى روية، ولذا ضرب هنا لذلك مثلاً بقوله: إنّما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت في الأفق: أي نواحي السماء، وليست منه ـ أي الأفق ـ، فالنور ليس ذاتياً له، وإنّما عرض لإزالة الظلمة.

فكذلك الأوصاف القدسية ليست ذاتية للعبد، وإنّما هي عارضةٌ على ظلمة أوصاف بشريته الذاتية؛ لأنّه تارةً تُشرق أوصافه تعالى التي هي كالشموس، على وجودك الشبيه بالليل المظلم؛ لما فيه من الأوصاف الدنيئة، فتغلب عليها، وتظهر خصوصيتك، فتكون غنياً بالله تعالى بعد أن كنت فقيراً، وقادراً بالله تعالى بعد أن كنت عاجزاً، وعالماً به بعد أن كنت جاهلاً إلى غير ذلك.

وتارةً يقبض ذلك عنك، فيردُّك إلى حدودك من الفقر والعجز والجهل، فلا تظهر خصوصيتك.

فالنَّهار الذي هو الخصوصيات التي ظهرت عليك، ليس منك وإليك ـ أي ليس من أوصافك الذاتية ـ، ولكنه وارد عليك من إشراق شموس أوصافه القدسيّة.

ثم اعلم أنّ القبض المذكور ليس سلباً، بل هو تنبيهٌ للقاصرين على أنّ الأمرَ كلُّه لله تعالى ليس لهم منه شيء، ولذا تَرَى بعضَ الأولياء في بعض الأحيان عنده قوَّة بطش، وفي بعضِها يكون عاجزاً.

وهذا لا يُعارض قوله السَّابق: ولم تأفل أنوار القلوب والسَّرائر؛ لأنّ ما تقدَّم شمس المعارف وهي لم تأفل.

وما هنا ظهور الخصوصية بتبديل صفات البشرية من الفقر وما معه، فإنّها تارةً تتبدل، وتارةً لا ليعطي الكامل في العبودية كلّ وقتٍ حقَّه.



(٢٥٠)

(دلَّ بوجود آثاره على وجود أسمائه، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته إذا محال أن يقوم الوصف بنفسه، فأرباب الجذب يَكشف لهم عن كمال ذاته، ثمّ يردُّهم إلى شهود صفاته، ثم يرجعهم إلى التَّعلُّق بأَسمائه، ثم يردهم إلى شهود آثاره، والسالكون على عكس هذا، فنهاية السالكين بداية المجذوبين، وبداية السالكين نهاية المجذوبين، لكن لا بمعنى واحدٍ، فرُبَّما اْلْتَقَيا في الطَّريق هذا في تَرقِّيه، وهذا في تَدَلِّيه)

يعني أنّه سبحانه دلّ بوجود آثاره ـ أي مصنوعاته ـ على وجود أَسمائه؛ إذ لا يصدرُ هذا الصُّنع القويم إلا من قادر مريد عليم، وبوجود أسمائه على ثبوت أوصافه من القدرة والإرادة والعلم، وبثبوت أوصافه على وجود ذاته، وعلَّل ذلك بقوله: إذ محال أن يقوم الوصف بنفسه؛ لأنّ المعنى لا يقوم بالمعنى.

ثم إنّ عباد الله تعالى المختصين بالقرب منه، والوصول إليه قسمان:

أرباب جذب، وأرباب سلوك.

فأرباب الجذب الذين اختطفتهم يد العناية[١]، يكشف لهم أوّلاً عن كمال ذاته ـ أي عن ذاته الكاملة ـ بأن يزيد في قوَّة معرفتهم، حتى يروا ذاته المقدسة بعين بصيرتهم[٢]، ثمّ يردَّهم إلى شهود صفاته، فيشاهدون بنور المعرفة ارتباطها بالذَّات، ثم يُرجعهم إلى التَّعلُّق بأسمائه بأن يشاهدوا بالذَّوق تعلُّقها بالآثار، ثم يردهم إلى شهود آثاره ـ أي صدورها عن الأسماء ـ، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالمؤثِّر على الأثر، ويقولون: ما رأينا شيئاً إلا ورأينا الله تعالى قبله.

وأمَّا السالكون: فهم على عكس هذا؛ لأنهم يستدلون بالأثر على المؤثِّر[٣]، فأوَّل ما يظهر لهم الآثار، فيستدلون بها على الأسماء، وبها على الصفات، وبها على كمال الذات، وهم الذين يقولون ما رأينا شيئاً إلا ورأينا الله بعده.

---

(١) يشير إلى أنهم من أهل الاجتباء والاختصاص، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]، وقوله سبحانه: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٧٤].

(٢) رؤية الصالحين لله تعالى في الدنيا هي رؤية معنوية، بمعنى العلم والمعرفة، لذلك يربطونها بالبصيرة لا بالبصر، قال ﷺ: «تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ» أخرجه مسلم رقم ١٦٩عن عُمَرَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ عن بَعْض أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ.

(٣) وهؤلاء أهل مجاهدة حتى تلين قلوبهم بمعرفة الله، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢-٢٣].

فنهاية السَّالكين من شهود الذَّات المقدسة بداية المجذوبين، وبداية السَّالكين من التعلق بالآثار نهاية المجذوبين، لكن لا بمعنى واحد، فإنّ مراد السَّالكين شهود الأشياء لله تعالى، ومراد المجذوبين شهود الأشياء بالله تعالى، فالسَّالكون على تحقيق الفناء والمحو، والمجذوبون مسلوك بهم طريق البقاء والصَّحو، فرُبَّما التقيا في الطريق ـ أي في منزل من المنازل ـ: كشهود الصِّفات.

هذا ـ أي السَّالك ـ في ترقيه: من الخلق إلى الحقّ، وهذا ـ أي المجذوب - في تدليه: من الحقِّ إلى الخلق.



(٢٥١)

(لا يُعلَم قَدْرُ أنوارِ القلوب والأسرار إلا في غيب الملكوت، كما لا تَظهر أنوارُ السَّماء إلا في شهادة الملك)

أي لا يُعرَف قَدْرُ الأنوار[١] والأسرار التي أشرقت على القلوب مِن

(١) أشارت نصوص الكتاب والسنة إلى وجود النور في قلب المؤمن، كقوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، وكقوله ﷺ: «القلوب أربعةٌ؛ قلبٌ أجْرَدُ فيه مثل السراج يزهرُ ... فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره» أخرجه أحمد ١١١٤٥ وابن أبي شيبة ٣٧٣٩٥، ولم تبين لنا النصوص مقدار تلك الأنوار، لكنها عظيمة فوق التصور، مما يدل على ذلك أن «سُبْحَانَ الله والحمْدُ للهِ تمْلآنِ أو تَمْلأُ ما بَيْنَ السَّمَواتِ والأرْضِ» أخرجه مسلم ٢٢٣، عن أبي مالك الأشعري ﷺ، فإذا كان هذا نور تسبيحة، فما بالك بنور الصلاة، وأنوارِ الأعمالِ الصالحة!، وما بالك بأنوار صاحبها المؤمن!.

سماء التوحيد والمعرفة إلا في غيب الملكوت - وهو عالم الآخرة -، فمَن كان قوي الإيمان كان له هنالك أعظم منازل الامتنان، ومَن كان إيمانه بالغيب أكمل كان نُورُه وما يترتب عليه أتم وأشمل، كما أن أنوار السماء ـ وهي أنوار الكواكب ـ لا تظهر إلا في شهادة الملك ـ أي الملك المشاهَد وهو عالم الدنيا ـ؛ لحصول المناسبة بين هذه الأشياء، فإنّ نورَ الإيمان ليس له أُفول، فيُناسبه الدَّار الباقية، وأنوار الكواكب تأفُل، فيناسبها الدَّار الفانية.



(٢٥٢)

(وجدان ثمرات الطَّاعات عاجلاً بشائر العاملين بوجود الجزاء عليها آجلاً)

يعني أنّ ما يجده العاملون من ثمرات الطَّاعات: كزيادة إشراق أنوار اليقين في قلوبهم، والتلذذ بها عند مناجاة ربهم، بشائر لهم بقبولها(١) ووجود

(١) قال الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]، وروى مسلم ٢٦٤٢ عن أبي ذر ﷺ قال: قيل لرسول الله ﷺ أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»، ومن علامات قبول الله للعبد أن يكتب له القبول والمحبة بين الناس، كما ورد في صحيح البخاري، وبين النبي ﷺ أن الرؤى الصالحة من المبشرات، فقال: « أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له » رواه مسلم ٤٧٩ ونحوه البخاري ٦٩٩٠.

الجزاء عليها في الدار الآخرة، وإن لم يقصدوه بطاعتهم، فإن الأكمل عدم قصد ذلك، كما قال المصنف:



(٢٥٣)

(كيف تطلب العوض على عمل هو مُتصدِّق به عليك؟ أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مُهْدِيهِ إليك ؟)

يعني أنّ طلبَك العوض على عمل هو في الحقيقة له تعالى؛ لقوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [٩٦: الصافات] مما يتعجب منه؛ لأنه سبحانه مُتصدِّق به عليك، وكذلك طلب الجزاء على الصدق ـ أي الإخلاص فيه ـ مما يتعجب منه؛ لأنه مهديه إليك، وإنّما عبر في الأعمال بالصدقة، وفي الصدق الذي عليه مدار قبول الأعمال بالهديةِ إشارة إلى تباينهما في الشَّرف كتباين الصَّدقة والهدية.



(٢٥٤)

(قوم تسبق أنوارُهم أذكارَهم، وقوم تسبق أَذكارُهم أَنوارَهم)

يعني أنّ الواصلين إلى الله تعالى على قسمين:

قوم تسبقُ أنوارُهم أذكارَهم، وهم المجذوبون المرادون الذين لم يتكلفوا شيئاً، بل واجهتهم الأنوار، فحصلت منهم الأذكار.

وإذا حَلَّت الهداية قلباً   نَشِطت للعبادة الأعضاء

وقوم تسبق أذكارُهم أنوارَهم، وهم المريدون السالكون، فمتى اجتهدوا في الأذكار حصلت لهم الأنوار، واهتدوا لمرضاة العزيز الغفار، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [٦٩: العنكبوت].

ثمّ بَيَّن حال الفريقين بعبارة أُخرى، فقال:



(٢٥٥)

(ذاكرٌ ذكر لِيستنير قلبه، وذاكر استنار قلبُه فكان ذاكراً)

الأَوَّل راجعٌ للفريق الثَّاني، وهم السَّالكون.

والثَّاني راجع للفريق الأول، وهم المجذوبون، وكلٌّ على نور(١).



(٢٥٦)

(ما كان ظاهر ذكر إلا عن باطن شهودٍ وفكرٍ)

يعني أن الذِّكر الظَّاهر ـ والمرادُ به الأعمال الظاهرة جميعها ـ لا تكون إلا عن باطنِ شهودِ الحقّ جل شأنه، والتَّفكرِ في آثار قدرته، فإن صلاح الظاهر

---

(١) في بعض نسخ الحِكَم زيادة بعد هذه الحكمة: « والذي استوت أذكاره وأنواره ؛ فبذكره يَهتدِي وبنوره يَقتدِي ».

تابعٌ لصلاح الباطن(١).

وإنّما خَصّ الذِّكر بالذكر من بين سائر الأعمال؛ لأنّه روحها، والمقصود بالذَّات منها، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [١٤: طه].

ثم وضَّح هذا المعنى بقوله:



(٢٥٧)

(أشهدك من قبل أن يستشهدك، فنَطَقَتْ بإلهِيَّتِه الظواهرُ، وتحقَّقتْ بأَحديتِه القلوبُ والسَّرائرُ)

أي أَطلعك سبحانه على وحدانيته، بتجلي أنوار المعارف على قلبك، حتى شاهدت ذلك على حسب قدرك من قبل أن يستشهدك: ـأي يَطلب منك أن تشهد بعظمته وجلاله بذكرك وعبادتك، فإن الذكر والعبادة شهادة منك بعظمة المذكور والمعبود، فنطقت بألوهيته ـ أي ما يدل عليها ـ الظَّواهرُ ـ أي الجوارحُ ـ بأن أتت بالأَعمال التي تَكاد تَنطق بعظمة ذي الجلال، وهذا راجعٌ للاستشهاد.

وقوله: وتحققت بأَحديته القلوب والسَّرائر راجعٌ للإشهاد.



(١) فاستمرارك بالذكر دليل على محبة الله في قلبك وعلى وجود النور في باطنك.

(٢٥٨)

(أكرمك بكرامات ثلاث: جعلك ذاكراً له، ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذكره عليك، وجعلك مذكوراً به؛ إذ حقَّق نسبته لديك، وجَعَلك مذكوراً عنده، فتمَّم نعمته عليك)

يعني أنّ الله تعالى أكرمك أيها المؤمن بثلاث كرامات جمع لك فيهن أنواع الفضائل والمبرّات:

الأولى: جعلك ذاكراً له بلسانك وقلبك، ووَجَّهَ حلاوةَ ذلك إليك، ولولا فضله لم تكن أهلاً لجريان ذكرِه عليك(١).

والثانية: جعلك مذكوراً به عند الناس بأن يقال: هذا ولي الله وذاكره؛ إذ حقَّق نسبته ـ أي خصوصيته ـ لديك، وهي ما أظهره من أنوار الذِّكر والطَّاعة عليك.

والثَّالثة: جعلك مذكوراً عنده(٢)، فتمَّم نعمته عليك بمزيد الإكرام ومنتهى الفضل والإنعام، وفي الحديث القدسي: «من ذكرني في نفسِه ذكرته في

---

(١) وقد أشار النبي ﷺ إلى النعمة العظمى بأن يأذن الله لنا أن نذكره، فقال ﷺ: « إِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلِ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ » أخرجه أحمد ٧/ ١٧٥ والترمذي ٣٤٠١ والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وهذه كرامة ونعمة عظيمة من الله عليك أن يذكرك، والله إذا أراد أن يذكر عبداً جعله أهلاً لأن يُذكر، فيُصلِحُه ويهديه، فالله لا يمدح فاسقاً أو غافلاً.

نفسي، ومَن ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأٍ خيرٌ منه»[١].

وقال ﷺ: «ما جَلَسَ قوم يذكرون الله تعالى إلا حفَّتهم الملائكة، وغشيتهم الرَّحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده»[٢]، اهـ، والعندية هنا عندية مكانة ـ أي شرف ـ لا مكان تعالى الله تعالى عن ذلك.



(٢٥٩)

(ربَّ عُمُرٍ اتسعت آماده وقلَّت أمداده، ورُبَّ عُمُرٍ قليلة آماده كثيرة أمداده)

أي رب عمر لشخص اتسعت آماده – بالمد جمع أمد كسبب وأسباب –

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خيرٌ منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» في صحيح البخاري٩: ١٢١.

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «مَن نفَّس عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً، ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة، والله تعالى في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومَن سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهَّل الله تعالى له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله تعالى، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه» في صحيح مسلم٤: ٢٠٧٤.

أي اتسع زمنه حتى طال وقلت أمداده - بفتح الهمز جمع مدد - أي فوائده، بأن كان الشخص من الغافلين، ورُبَّ عُمُر لشخص آخر قليلة آماده كثيرة أمداده[١]، بأن كان من الذاكرين، كما وضح ذلك بقوله:



(٢٦٠)

(مَن بورك له في عُمُره أَدرك في يسير من الزَّمن من منن الله تعالى؛ ما لا يَدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقُه الإشارةُ)

يعني أنّ مَن بورك له في عُمُره بأن رُزِق من الفِطنة واليَقظة ما يَحمله على اغتنام الأوقات، وانتهاز فرصة الإمكان، خشية الفَوات، فبادر إلى الأعمال القلبية والبدنية، واستفرغ في ذلك مجهوده بالكلية، أدرك في يسير من الزَّمن من المنن الإلهية، والمعارف الربانية ما لا يدخل تحت دوائر العبارة؛ لقصورها

---

(١) ومن كثرة المدد أن جعل الله لنا أعمالاً قليلةَ الجهدِ عظيمةَ الأجر مضاعفةَ الثوابِ مباركة الآثار والأنوار، فمن ذلك جعل صيام ثلاثة أيام كصيام الدهر، وكذا من صام ستاً من شوال مع رمضان، وجعل قيام ليلة القدر خيراً من قيام ألف شهر، أي حوالي ثلاث وثمانين سنة، وجعل من يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، مئة مرة في اليوم؛ كمن سبق ما سواه إلا من زاد عليه، وجعل خَمْسَ صلواتِ الفريضةِ بخمسين صلاة، وجعل صلاة الفجر في جماعة كمن قام الليل كله، والعشاء بنصفه، ومن كان سبباً في هداية الناس وحفظ أرواحهم كأنما أحيا الناس جميعاً، وجعل من سن سنة حسنة وأحياها؛ كان له أجرها وأجر من عمل بها، ومن يصل الرحم يبارك له في عمره، وهكذا، ففضل الله مفتوح للمتسابقين والمجتهدين.

عن الإحاطة به، ولا تلحقه الإشارة إليه؛ لعلوه في مقامه ومنصبه[١].

فيرتفع له في كلِّ ليلةٍ من لياليه من الأعمال الصَّالحة ما لا يَرتفع لغيره في ألف شهر، فتكون لياليه كلِّها بمنزلة ليلة القدر، كما قال أبو العباس المرسي: أوقاتنا والحمد لله كلُّها ليلة القدر، فالعبرة بالبركة بالعمر لا بطوله.

وعلى هذا يحمل حديث: «البر يزيد في العمر»[٢]، فإن المراد البركة فيه بحيث يفعل فيه من الخيرات ما لا يفعله غيره في الأزمنة الطويلة الخالية من البركات.



(٢٦١)

(الخذلان كلُّ الخذلان أن تتفرَّغ من الشَّواغل، ثمّ لا تتوجَّه إليه، وتقل عوائقك ثمّ لا ترحلُ إليه)

---

(١) وقد أشار القرآن إلى ذلك حينما وصف بعض المؤمنين بأن لهم أجراً كبيراً وأجراً عظيماً وأجراً كريماً، فإذا كان المسلم ينال أجراً؛ فهناك من يناله كبيراً وعظيماً، وذلك يرجع إلى مدى صلاح القلب ووفرة التقوى، وقد نص النبي ﷺ على هذا التفاوت فقال: « فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا [أي بالحسنة] فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، إِلَى سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ »، أخرجه البخاري رقم ٦١٢٦ ومسلم رقم ١٣١، فالعمل واحد ولكن يختلف أجره بحسب صاحبه.

(٢) فعن سلمان ﷺ قال ﷺ: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر» في سنن الترمذي٤: ٤٤٨، وحسنه، وصحيح ابن حبان٣: ١٥٣.

يعني أنّ الخذلان التَّام المؤكَّد أن تتفرَّغ من الشَّواغل بأن كان عندك ما يَكفيك من الدُّنيا الدَّنية، ثمّ لا تتوجه إليه بالاشتغال بها يقربك إلى حضرته القدسية.

وتقل عوائقك التي تنقلك عن الإقبال عليه، ثم لا ترحل بكامل توجهاتك إليه.

قال الإمام القُشيريّ(١): فراغُ القلب من الأشغال نعمةٌ عظيمةٌ، فإذا كفر عبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى، وانجر في قياد الشَّهوات شوَّش الله تعالى عليه نعمة قلبه، وسلبه ما كان يجد من صفاء لبّه.



(٢٦٢)

(الفكرةُ سير القلب في ميادين الأغيار)

يعني أنّ الفكرة المأمورين بها إنّما هي سير القلب ـ أي جولانه ـ في

---

(١) وهو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك ابن طلحة النيسابوريّ القشيري، من بني قشير ابن كعب، أبو القاسم، زين الإسلام، شيخ خراسان في عصره في زهده وعلمه، وكان السلطان ألب أرسلان يقدمه ويكرمه، حضر إلى نيسأبور ليتعلم الحساب، لأجل قريته، فاتفق حضوره مجلس الدقاق، فأعجبه كلامه، ووقع في قلبه، فرجع عن ذلك لعزم، وسلك طريق الإرادة، فقبله الدقاق، وأقبل عليه، وتفرس فيه فجذبه، من كتبه: «التيسير في التفسير»، ويقال له: «التفسير الكبير»، و«لطائف الإشارات»، و«الرسالة القشيرية»، (٣٧٦ - ٤٦٥ هـ) ينظر: طبقات الأولياء١: ٢٧٥، وسير أعلام النبلاء١٨: ٢٢٧، والأعلام٤: ٥٧.

مشاهدة الأغيار ـ أي المخلوقات الشبيهة بالميادين في الاتساع ـ قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ ﴾ [١٠١: يونس]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على التفكر والنظر في عجائب المخلوقات وأمّا التَّفكر في ذات الله تعالى، فإنّه منهيّ عنه؛ لأنه لا تحيط به الفكرة.

فإذا تفكَّر العبد في وجود المخلوقات هداه ذلك إلى وجود موجدهم وهذا تفكر العامة، وإذا تفكَّر في الدنيا وقلّة وفائها للطالبين ازداد تباعداً عنها، وهذا تفكر الزاهدين، وإذا تفكر في الحَسنات وما يترتب عليها فعلها، وازداد رغبة فيها أو في السيئات، وهو ما يترتب عليها تركها ظاهرها وخافيها، وهذا تفكر العابدين التجار، وإذا تفكّر في توارد النِّعم ازداد محبّة في المنعم بها، وهذا تفكّر العارفين الأحرار.



(٢٦٣)

(الفكرةُ سراجُ القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءة له)

يعني أنّ الفكرة بمنزلة السِّراج للقلب يستضيء بها؛ لأنّ بها تَنجلي حقائق الأمور، فيَظهر الحقُّ من الباطل، وتعرف آفات النفس بالتَّفكر في معائبها ومكائدها، وتعلم مكائد العدو وغرور الدُّنيا ونحو ذلك، فإذا ذهبت الفكرة منه فلا إضاءة له، فيكون كالبيت المظلم والعياذ بالله تعالى.



(٢٦٤)

(الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان، وفكرةُ شهود وعيان، فالأولى لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب الشُّهود والاستبصار)

يعني أنّ الفكرة التي هي السِّير في ميادين الأغيار فكرتان: إحداهما: أرفع من الأخرى؛ لأنّها تختلف باختلاف السالكين والمجذوبين، ففكرة السالكين: فكرة تصديق وإيمان ـ أي فكرة ناشئة عن أصل التصديق الذي هو الإيمان ـ، والقصد بها الزيادة فيه بالاستدلال بالأثر على المؤثر.

وأمَّا فكرة المجذوبين: ففكرة شهود وعيان ـ أي فكرة ناشئة عن المشاهدة والمعاينة بعين البصيرة ـ، فيستدلون بالمؤثر على الأثر.

فالأولى: لأرباب الاعتبار ـ أي المستدلين بالآثار ـ وهم السالكون.

والثانية: لأرباب الشهود والاستبصار ـ أي المستدلين بالمؤثر على الأثر ـ وهم المجذوبون.

واعلم أنّ المجذوبَ سلك الطريق مسرعاً إلى الله تعالى، واطلع على المقامات التي كابد مشقَّتها مَن سواه خلافاً لمن قال: إنَّ السَّالك أَتمّ من المجذوب؛ لأنّ السَّالك عرف الطَّريق، والمجذوب ليس كذلك؛ لأنّ المجذوب طويت له الطَّريق ولم تطو عنه، فهو كمَن طويت له الطَّريق إلى مكة، والسالك كمَن سار إليها على أكوار المطايا، كذا حقَّقه بعض العارفين، والله تعالى يجعلنا من الواصلين.

من مكاتباته لبعض إخوانه

(١) فمما كتبه رضي الله عنه لبعض إخوانه وأجاد ووفى فيه من بيان حال السالك وآداب السلوك بالمراد قوله:

(**أما بعد! فإن البدايات**)؛ أي بدايات السُّلوك، (**مَجَلّات النهايات**) ـ بفتح الميم والجيم وتشديد اللام جمع مجلة ـ كذلك؛ أي محلُّ التَّجلي والظُّهور كالمرآة والمجالي والمظاهرِ التي تنجلي فيها الأمور، فينجلي أَمر نهاية السَّالك في ابتداء سلوكه، وقد بَيَّن ذلك بقوله: وإن مَن كانت بالله تعالى بدايته كانت إليه نهايته.

فمَن كان في بدايته مُنقطعاً عن الأغيار متوجِّهاً بكليته إلى خدمة العزيز الغفار انتهى إلى أمر عظيم وفتح جسيم، ومَن كان ضعيف البداية، فهو ضعيف النهاية.

(**والمشتغَل به ـ أيها المريد الصادق ـ هو الذي أَحببته وسارعت إليه**) من الأعمال الصالحة التي تقربك إلى مولاك، وتوصلك إلى حظيرة القدس التي تبلغ فيها مناك، فكن قرير العين بما سارعت إليه، ولا تحتقر ما اشتغلت به من الطَّاعات، فإنّه هو الذي يقربُّك لديه.

(**والمشتغَل عنه هو المؤثر عليه**): أي أنّ الأمرَ الذي ينبغي أن تشتغل عنه، ولا تلتفت إليه هو المؤثر ـ بفتح المثلثة ـ أي المُقدَّم غيره عليه، فإذا اشتغلت عن حظوظك الدنيوية، ولم تحتفل بها بالكلية، فقد آثرت؛ أي قدَّمت خدمة ربِّك

عليها، فطب نفساً بما وُفِّقت له منها، فالمقصود من هذا الكلام، تهييج السَّالك وإنهاضُ همَّته بمدح ما أقبل الوجود أن عليه، وذمُّ ما أعرض عنه، ليحسن عنده عدم الالتفات إليه.

ومن دعاء بعض العارفين لبعض السَّالكين: عرَفك اللهُ قدر ما تطلب حتى يهون عليك ما تترك.

(**وإنَّ مَن أيقن أن الله تعالى يَطلبه**) بالقيام بوظائف العبودية (**صَدّق الطَّلب إليه**): أي صدق في الطَّلب بأن يتوجَّه إلى ما طَلَبه منه مولاه بصدق النية، (**ومَن علم أنّ الأمور بيد الله تعالى**): أي قدرته، ومنها سعيه واجتهاده في الطَّاعة، (**انجمع بالتوكل عليه**): أي انجمع عليه قلبُه بالتوكل عليه سبحانه في تيسير أموره.

فقوله: «عليه» تنازع فيه كلٌّ من الفعل والمصدر، وهذا قيام بحق الحقيقة، كما أن قوله: «صدق الطلب» وفاء بحقِّ الشريعة، ومن ذلك قوله ﷺ: «اعقلها وتوكل»[1].

(**وإنّه لا بُدّ لبناء هذا تنهدم دعائمه، وأن تسلب كرائمه**)، هذه الجملة معطوفة على إن البدايات، فهي ـ بكسر الهمزة ـ، وقصده بها تسليةُ المريد عمّا

---

(١) فعن أنس رضي الله عنه، قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل» في سنن الترمذي ٤: ٦٦٨.

وعن عمرو بن أمية رضي الله عنه، قال ﷺ: أرسل ناقتي وأتوكل؟، قال: «اعقلها وتوكل» في صحيح ابن حبان ٢: ٥١٠.

يفوته في حال سلوكه من زهرات الدُّنيا الفانية، فإنّه إذا عَلِم أنّ هذا الوجود الذي هو دار الدنيا الشَّبيه بالقصر المبني، لا بُدّ أن تنهدم دعائمه: أي أركانه، وأن تسلب كرائمه؛ أي نفائسه، طَيب نفسَه بتركه وعدم النَّظر إليه، واجتهد فيما يُقرِّبُه في الدَّار التي لا فناء لها ويعود نفعه عليه.

(فالعاقل مَن كان بما هو أَبقى أفرح منه بما هو يَفنى، قد أَشرق نُوره وظهرت تباشيره).

يعني أنّ العاقل هو الزَّاهد في الدُّنيا، الرَّاغب في الآخرة، وإذا تحقق بهذا المقام فقد أَشرق نوره في قلبه، وظهرت تباشيره المبشرة له بالقبول على وجهه.

(فصدف) ـ بالدَّال المهملة والفاء ـ أي أَعرض **(عن هذه الدار مغضياً)** ـ بالغين والضَّاد المعجمتين بعدهما تحتيه ـ أي غاضاً ـ بصره عنها، ولم ينظر إليها لقذارتها، **(وأعرض عنها مولياً)**، فلم يلتفت إليها بقلبه، **(فلم يتخذها وطناً)** بظاهره على سبيل التَّمتع بها، **(ولا جعلها سكناً)** ببطانه على جهة المحبّة لها، **(بل أنهض الهمّة فيها إلى الله تعالى، وسار فيها مُستعيناً به في القدوم عليه، وهذا ابتداءُ سفره بقلبه إلى الحضرة العليّة، وقطع عقبات النَّفس مستعيناً به تعالى لا بأعماله في القُدوم عليه، والوصول إلى حضرته القُدسية فقد قيل:**

إذا لم يُعِنْكَ اللهُ فيما تُريده ... فليس لمخلوقٍ إليه سبيلُ
وإن هو لم يُرشدك في كلِّ مَسلكٍ ... ضَلَلْتَ ولو أن السِّماكَ دَليلُ

فمَن اعتمد على عمله انقطع عن الوصول، ومن اعتمد على فضل مولاه بلغه المأمول، فما زالت مطية عزمه؛ أي عزمه الشَّبيه بالمطية **(لا يقرّ قرارها، دائماً**

تسيارها): أي سيَّرها إلى الله تعالى، فلا تستقرّ في محلٍّ يعوقها عنه من المقامات السَّنية والمكاشفات البهية، **(إلى أن أناخت)**؛ أي استقرت **(بحضرة القدس)**؛ أي التَّطهير والتنزيه، وهي حضرة الرّبّ سبحانه وتعالى، **(وبساط الأنس)**؛ أي المؤانسة لكلِّ واصل، وقد وصف تلك الحضرة بقوله: **(محل المفاتحة والمواجهة والمجالسة والمحادثة والمشاهدة والمطالعة)**.

قال بعضُ المحققين: المراد بالمفاتحةِ نداءُ الحقِّ بمعاني أسمائه وصفاته، والمواجهةُ إقبال الرَّب على العبد.

والمجالسة ملازمة ذكر الله تعالى: «أنا جليس مَن ذكرني»[١].

المحادثة؛ أن يتكلم في سره بالمعارف والأسرار المفاضة عليه من ربّه.

والمشاهدة؛ كشف لا يصاحبه وهم.

والمطالعة ؛ هي مطالعة معاني أوصافه على بساط أوصافك. اهـ.

والتَّحقيق أنّ هذه الألفاظ السِّتة التي ذكرها المصنف لا تُدرك إلا بالذوق، وغايةُ ما يُفهم منها أنّ الواصلين إلى تلك الحضرة تُفاض عليهم المعارف الإلهية، ويُقابلون من لدن الكريم الجواد بالتُّحف السنية.

---

(١) فعن كعب قال: «قال موسى عليه السلام: أي رب، أَقريب أنت فأناجيك، أم بعيد فأناديك؟ قال: يا موسى، أنا جليس من ذكرني، قال: يا رب فإنا نكون من الحال على حال نعظمك أو نجلك أن نذكرك عليها، قال: وما هي؟ قال: الجنابة والغائط قال: يا موسى اذكرني على كل حال» في مصنف ابن أبي شيبة١: ١٠٨، وشعب الإيمان٢: ١٧٢.

(فصارت الحضرةُ معشش قلوبَهم، إليها يَأوون، وفيها يَسكنون): أي صارت الحضرة لقلوبهم بمنزلة العش للطير، ففيه تشبيه حالهم بحال الطائر؛ لأنهم إليها يأوون.

وههنا حصل لهم التَّحقق بمقام الفناء والمحو، وهو مقام الجمع الذي انتهى به سيرهم إلى الملك الحق، ثم بعد ذلك يتحقَّقون بمقام البقاء والصحو، وهو مقام الفرق الذي يؤمرون فيه بمخالطة الخلق، وهو المراد بقوله:

(فإذا نزلوا إلى سماء الحقوق)؛ أي حقوق الله تعالى الواجبة عليهم عند مخالطة الناس الشبيهة بالسَّماء، بجامع صعوبة الارتقاء إلى كلٍّ، **(أو أرض الحظوظ)**؛ أي حظوظ أنفسهم التي يحصل لهم الارتفاق بها الشبيهة بالأرض؛ بجامع سهولة الاستقرار على كلٍّ.

(فبالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين، فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، ولا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة، بل دخلوا في ذلك بالله والله ومن الله وإلى الله)؛ أي فيكون نزولهم بالإذن من الله لهم في النزول لإرشاد الخلق بما يشرق في قلوبهم من النُّور الذي يجعله علماً على ذلك.

والتمكين؛ أي التَّمكن في مقام البقاء حتى تحصل لهم القوة على مخالطة الناس، وتحمل أذاهم، ولم يكن ذلك إلا بعد رسوخهم في اليقين بالله تعالى، فلم ينزلوا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة الله تعالى، بل نزلوا إليها بالأدب التَّام مع الخلق، واليقظة الكاملة بمشاهدة الحقِّ، فإنّهم يرون الله تعالى في كلِّ مشهود، فإذا آذاهم شخص تحمَّلوه لله تعالى الذي أوجده.

ورأوا أن الذي سلَّطه عليهم مولاهم لذنب فعلوه لا يَليق بهم، وإذا أكرمهم شخص شكروه مع ملاحظة أنّ الذي حرَّك قلبه للإكرام مولاهم، ولم ينزلوا إلى الحظوظ بالشَّهوة النَّفسانية والمُتعة ـ بضم الميم ـ أي التَّمتع بها، كما هو مقصد أصحاب النُّفوس الدنية، بل دخلوا في ذلك كلِّه من الحقوق والحظوظ بالله مستعينين، ولله ملاحظين، ومن الله آخذين، وإلى الله متوسلين، فتدبر ذلك .

(﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠]؛ ليكون نظري إلى حولك وقوَّتك إذا أَدخلتني، واستسلامي وانقيادي إليك إذا أخرجتني).

قال ابن عباد: المدخل والمخرج: الإدخال والإخراج، وقد عبّر بهاتين العبارتين عن السفرين المذكورين، فالمدخل هو سفر الترقي؛ لأنه دخول على الله تعالى في حالة فنائه عن رؤية غيره.

والمخرج هو سفر التَّدلي؛ لأنه خروج إلى الخليقة لفائدتي الإرشاد والهداية في حال بقائه بربه وتحققه في هذين المقامين، أعني مقام الفناء والبقاء، هو معنى صدقية مدخله ومخرجه، وإنما طلب لهذا ليحصل به ذهابه عن رؤية نفسه في النسبة والوقوف مع الحظّ، ففي المدخل يشاهد حول الله تعالى وقوته، فينتفي عنه بذلك النسبة إلى نفسه، وفي المخرج يستسلم لربه، وينقاد إليها، فينتفي عنه بذلك مراعاة حظّه ثم قال:

(﴿ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠]، ينصرني وينصر

بي، ولا ينصر علي، ينصرني على شهود نفسي، ويفنيني عن دائرة حسي):

أي واجعل لي من عندك يا اللهُ سلطاناً نصيراً؛ أي مدداً إلهياً لا يُصادمه شيء إلا دمغه.

ينصرني على أعدائي وينصر بي أحبابي الذين أَقمتني لإرشادهم، ولا ينصر عليّ أحداً من النَّفس والهوى والشيطان، فإن ذلك والعياذ بالله من علامات الخذلان.

ثم خَصَّ النَّفس لكونها أعدى الأعداء بقوله: ينصرني على شهود نفسي بأن لا أشاهد لها فعلاً من الأفعال، ويفنيني عن دائرة حسي: أي عمّا يدور به حسي من الأكوان حتى أَصل بعدم التَّعلق بها إلى درجات الكمال.

(٢) ومما كتبه رضي الله عنه لبعض إخوانه قوله:

(إن كانت عين القلب تنظر إلى الله تعالى واحد في منته، فالشَّريعة تقضي لا بُدّ من شكر خليقته): أي إن كانت البصيرة التي هي عين القلب تَنظر إلى أنّ الله تعالى واحدٌ في منته؛ أي عطيّته بمعنى أنّه المعطي في الحقيقة لا غيره، فلا يستحقُّ الشُّكر سواه، فالشريعة أَمرتنا أن نَشكرَ أيضاً مَن وصلت النِّعمة على يدِه لما في الحديث: «وأشكر الناس لله أشكرهم للناس»[١].

---

(١) فعن الأشعث بن قيس رضي الله عنه، قال ﷺ: «إن أشكر الناس لله أشكرهم للناس» في مسند أحمد٣٦: ١٦٦، وسنن البيهقي الكبير٦: ٣٠٢، ومسند القضاعي٢: ١١٣.

فعليك أن تنظر إلى الجهتين، وتشكر الله تعالى حقيقة، والخلق مجازاً امتثالاً لأمر خالفك، فتكون في الحالين مجازاً.

ثم بيَّن أن الناس في حال ورود النعمة عليهم من أحد العبيد أقسام بقوله:

(وإن النّاس في ذلك على ثلاثة أقسام: غافلٌ منهمك في غفلته، قويت دائرةُ حسِّه وانطمست حضرة قدسه، فنظر الإحسان من المخلوقين ولم يشهده من ربِّ العالمين، إما اعتقاداً فشركُه جَلي، وإمّا استناداً فشِركه خفي).

يعني أن مَن قويت دائرة حسِّه من العامة لتعلُّقه بالأكوان، وانطمست حضره قدسه؛ أي طهَّره، والمراد عين بصيرته، فأبعدته عن المكوِّن عليِّ الشَّان، إذا اعتقد المؤثر والمعطي هو العبد، فشركه ظاهرٌ جليٌ يُخرجه من ربقةِ الإيمان، وإذا نُسب ذلك إلى العبد استناداً فذلك شركه خفي؛ لكونه أَشرك مع الله تعالى غيره، ففي إيمانه نقصانٌ؛ لقوله: لولا فلان تَسبب لي في هذا الأمر ما وصل لي من الله تعالى، والتوحيد الخالصُ أن يعتقدَ أنّ العبدَ مَقهورٌ، وأنّ الموصلَ له إنّما هو مولاه.

ثمّ أشار إلى القسم الثَّاني بقوله:

(وصاحبُ حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق، وفَنِي عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب، فهو عبدُ مواجه بالحقيقة، ظاهر عليه سناها، سالك للطريقة، قد استولى على مَداها، غير أنّه غَريق الأنوار مطموس

الآثار، قد غَلَب سَكَره على صحوه، وجمعه على فرقِه، وفناؤه على بقائه، وغيبته على حضوره) .

يعني أنّ صاحبَ الحقيقة الذي غلب عليه سَناها ـ بالقصر ـ: أي ضياؤها، وسلك طريقة القوم، واستولى على مداها؛ أي نهايتها لا ينظر الأسباب؛ لشهوده مسبب الأسباب، فهو من الخواصّ، لكنه وإن كان كاملاً بالنسبة لأهل الغفلة، ناقص بالنسبة لخواص الخواص الذين جَمعوا بين الأمرين، وهم أهل المعرفة.

ولذا قال المصنف: غير أنه غريق الأنوار؛ أي غريق في بحار التوحيد مطموس الآثار: أي مطموسة بصيرته عن النظر إلى الآثار والعبيد، قد غلب سكره، وهو عدم إحساسه بالآثار على صحوه، وهو إحساسه بها.

وجمعه، وهو رؤيه الحق وحده على فرقه، وهو رؤية الحق والخلق، فهو في مقام الجمع لا في مقام الفرق، وقد اتضح لك مما هنا، ومما تقدَّم الفرق ومعاني باقي الألفاظ، ترجع إلى هذا.

ثم أشار إلى القسم الثالث بقوله:

(وأكمل منه عبد شرب، فازداد صحواً وغاب، فازداد حضوراً، فلا جمعه يحجبه عن فرقه، ولا فرقه يحجبه عن جمعه، ولا فناؤه يَصده عن بقائه ولا بقاؤه يصده عن فنائه، يُعطي كلَّ ذي قسط قسطه، ويوفي كلّ ذي حقّ حقه).

وهذا حالُ خواص الخواص، فإن مَن شَرِبَ من كؤوس التَّوحيد، فازداد

صحواً بعد سكره، وغاب عن الخلق، فازداد حضوراً معهم بربِّه، قد شَرِب بالكأسين، وجمع بين المزينين، فباطنُه مُكمل بالحقيقة، وظاهرُه مجملٌ بالشَّريعة، فيشكر الخلق والحقّ، ولا يَغيب عن الحقِّ في حال مخالطة الخلق؛ ليعطي كلَّ ذي قسط قسطه ـ بكسر القاف ـ: أي نصيبه.

وعطف ما بعده عليه للتَّفسير، ومن أهل هذا المقام الصديق الأكبر بطريق الوراثة عن النبي الأطهر ﷺ كما قال المصنف:

(وقد قال أبو بكر الصديق ﷺ لعائشة رضي الله عنها لما نزلت براءتها من الإفك على لسان رسول الله ﷺ: يا عائشة! اشكري رسول الله ﷺ فقالت: واللهُ لا أشكر إلا الله، دلها أبو بكر رضي الله عنه على المقام الأكمل؛ مقام البقاء المقتضي لإثبات الآثار، وقد قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال ﷺ: «لا يشكر الله مَن لا يشكر الناس»[١]، وكانت هي في ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها، غائبة عن الآثار، فلم تشهد إلا الواحد القهار).

يعني أن أبا بكر الصديق كان في مقام الفرق الذي هو أعلى من مقام عائشة إذ ذاك، فإنها كانت في مقام الجمع لأنها كانت مصطلمة؛ أي فانية عن شاهدها وهو حكم بشريتها، ويفسره قوله غائبة عن الآثار بل ترقت عنه إلى مقام القهار، ولم يكن هذا الحال لازما لها في جميع أوقاتها بل ترقت عنه إلى مقام الفرق كأبيها. والإفك هو الكذب عليها، وإن أردت تفصيل هذه القصة

(١) فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» في سنن أبي داود٤: ٢٥٥، وسنن الترمذي٤: ٣٣٩، وصححه، ومسند أبي حنيفة ر١٩.

فعليك بشرحنا على مختصر الإمام ابن أبي جمرة، وفيه أن الذي قال لها ذلك أمها، ولعل القول صدر منهما معاً ليحصل الجمع بين الروايتين.

(٣) ولما سئل رضي الله عنه عن قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»، هل ذلك خاص به ﷺ أو لغيره منه نصيب؟ أجاب بقوله:

(إن قرَّة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود، فالرُّسول ﷺ ليس معرفة كمعرفته، فليس قرّة عين كقرته، وإنّما قلنا: إن قُرَّة عينه في صلاته بشهوده جلال مشهوده؛ لأنه قد أشار إلى ذلك بقوله: في الصلاة، ولم يقل بالصلاة؛ إذ هو صلوات الله عليه وسلامه لا تقرُّ عينه بغير ربِّه، وكيف وهو يدلُّ على هذا المقام، ويأمر به من سواه بقوله ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه»[(١)]، ومحال أن يَراه ويشهد معه سواه.

فإن قال قائل: قد تكون قُرَّة العين بالصلاة؛ لأنها فضل من الله تعالى، وبارزة من عين منّة الله تعالى، فكيف لا يفرح بها؟ وكيف لا تكون قُرّة العين بها؟ وقد قال سبحانه: ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ ﴾ [يونس:٥٨] الآية، فاعلم أنّ الآية قد أَومات إلى الجواب لمن تدبَّر سِرَّ الخطاب؛ إذ قال: ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ ﴾، وما قال: فبذلك فافرح يا محمد، قل

---

(١) فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي، فقال: اعبد الله كأنك تراه، وكن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل» في سنن النسائي الكبرى١٠: ٢٨٩، ومسند أحمد١٠: ٢٩٧.

لهم: فليفرحوا بالإحسان والنفضل، وليكن فرحك أنت بالمتفضل، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ [الأنعام:٩١]).

قُرّة العين ـ بضم القاف وتشديد الراء ـ عبارة عن كمال الفرح والسُّرور، ويختلف ذلك باختلاف النَّاس قوَّة وضعفاً على حسب معرفتهم بمعبودهم، يُناجونه في صلاتهم، ومعلوم أنّ أكملَ النَّاس في المعرفة سيد الأولين والآخرين، فلذلك لم تكن قُرَّة عين كقرَّته من الناس أجمعين، وكانت قُرّة عينه ﷺ في الصَّلاة بربِّه لا بالصَّلاة؛ لأنّ ذلك هو المقام الأكمل.

وأمّا مَن كانت قُرّة عينه بالصَّلاة نظراً لكونها من الفضل، فمقامه أنزل، ولا يَليق به ﷺ، وبمَن كان على قدمه من خواص أَتباعه إلا أَكمل الحالات، أسال الله بجاهه العظيم أن يُوصلنا إلى رفيع الدَّرجات.

(٤) ومما كتبه رضي الله عنه لبعض إخوانه قوله:

(النَّاس في ورود المنن على ثلاثة أقسام: فرح بالمنن لا من حيث مهديها ومنشئها، ولكن بوجود متعته فيها، فهذا من الغافلين يَصدق عليه قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٤]، وفرح بالمنن من حيث إنه شهدها منّة ممن أَرسلها، ونعمةً ممن أَوصلها يصدق عليه قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، وفرح بالله تعالى ما شغله من المنن ظاهر متعتها،

ولا باطن منتها، بل شغله النَّظر إلى الله تعالى عمّا سواه، والجمع عليه، فلا يشهد إلا إياه يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾ [الأنعام:٩١]).

يعني من النَّاس قسم فَرِح ـ بفتح الفاء وكسر الراء منوناً ـ أي شديد الفرح بالمنن: أي النِّعم، لا من حيث مهديها ومنشئها، وهو الله تعالى، وإنّما فرحه بسبب تمتعه بها، فهذا الفريقُ أَشبه شيءٍ بالأنعام الذين يأكلون ويشربون ويغفلون عن صاحب الإنعام، فرُبَّما كانت عليهم النِّعم استدراجاً، فكلَّما أُعطوا نعمة ازدادوا غفلةً عن شكر المنعم، حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقسم فرح بالنعم من حيث إنّه شهدها منة وفضلاً ممن أرسلها إليه، ونعمة ممن أوصلها لديه، وهو الله تعالى، فشكره سبحانه عليها، وشرف بذلك، ولكن انحط قدره حيث نظر إلى حظ نفسه في النعمة، وارتكن إليها، فإذا نزعت منه تغير عليها، فهو مخاطب بما خوطب به أوساط المؤمنين في الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ ﴾ [يونس:٥٨].

وقسم في غاية الشَّرف والكمال لم يَنظر بعين البصيرة إلا للمنعم المفضال، فلم يلتفت إلى ظاهر متعة النعم؛ أي التَّمتع بها كالقسم الأول، ولا إلى باطن منتها من حيث إنها منّة من الله تعالى وعناية منه بهم كالقسم الثاني، بل شغله النَّظر إلى الله تعالى عما سواه، والجمع عليه بقلبه فلا يشهد إلا إياه؛ لأنّ المشاهدَ للمنعم، فإن عن حظوظ نفسه، فهو يَرى الأشياء كلَّها نعماً لا فرق

عنده بين وجود وعدم، ولا منع وعطاء، لا يَخاف عليه من التَّغير والانقلاب لتغير الأفعال والأسباب، فهو الذي يَصدق عليه قوله تعالى: ﴿ **قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ** ﴾ [**الأنعام**:٩١].

(وقد أَوحى الله إلى داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: يا داود! قل للصديقين بي فليفرحوا، وبذكري فليتنعموا).

يعني أنّ مَن كان كثير الصِّدق في الأقوال والأفعال والأحوال، فلا ينبغي أن يفرح إلا بكونه عبداً لذي العِزة والجلال، ولا يتلذذ إلا بذكر الكبير المتعال، فإنّه إذا كان بهذه المثابة يبلغة سيده الآمال.

(والله تعالى يجعل فرحنا وإياكم به وبالرِّضا منه، وأن يجعلنا من أهل الفهم عنه، وأن لا يجعلنا من الغافلين، وأن يسلك بنا مسلك المتقين بمنه وكرمه آمين).

المناجاة الإلهية

وقال رضي الله عنه في مناجاته، وكلُّها حكم عجيبة لها في القلوب تأثيرات غريبة، لا سيما إذا استعملت في الأسحار، فإنها تكسو القلوب جلابيب الأنوار.



(١)

(إلهي! أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيراً في فقري؟!)



(٢)

(إلهي! أنا الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي؟!)

يعني أنا فقيرٌ إليك في الحالة التي تُغنيني فيها، والجاهل في حال علمي، فإن فقري وجهلي من صفاتي الذاتية، والغنى والعلم من الصفات العرضية، والعارض بصدد الزوال، فلا تتوهم أيها النَّاظر أن فيه الجمع بين المتنافيين تكن من أهل الكمال، وقدم المُصنِّف هذا بين يدي دعائه؛ ليكون أرجى للإجابة، كما قال بعضُهم في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف:٥٥]، التَّضرُّع في الدُّعاء: أن تقدم إليه افتقارك وعجزك، لا أن تقدِّم إليه صلواتك وفعلك.

وقال سهلُ بنُ عبد الله: ما أَظهر عبدٌ فقره إلى الله تعالى في وقتٍ الدُّعاء في شيءٍ يحلُّ به، إلا قال لملائكته: لو لا أنه لا يحتمل كلامي لأجبته لبيك.



(٣)

(إلهي! إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك، منعا عبادك العارفين بك عن السُّكون إلى عطاء، واليأس منك في بلاء).

يعني أنّ اختلاف ما تدبره يا الله في المخلوقات بالصَّحَّة والمرض، والغني والفقر، والطَّاعة والمعصية، والقبض والبسط، والقناعة والحرص، ونحو ذلك وسرعة حلول ما تُقدِّره عليهم، مَنعا عبادك العارفين بك عن سكونهم إلى عطاء منك، سواء كان دُنيوياً كالأموال، أو دِينياً كالمعارف، وعن يأسهم منك في رفع بلاء عنهم أوقعته بهم، سواء كان دُنيوياً: كفقر، أو دينياً: كمعصية؛ لأنّ العبرةَ بالخواتم والنهايات.

فكم من ذي مال صار فقيراً، وكم من فقير صار غنياً، وكم من مريض صار صحيحاً، وكم من صحيح صار مريضاً، وكم من طائع صار عاصياً، وكم من عاص صار مطيعاً.

فنسأله سبحانه حسن الختام بجاه النبي عليه الصلاة والسلام.



(٤)

(إلهي! مِنِّي ما يَليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك)

أي مِنّي ما يليق بلؤمي الذي هو وصف العبيد من مبارزتك بالذُّنوب، ومنك ما يليق بكرمك الذي هو وصف الرُّبوبية من التَّجاوز والعفو وستر العيوب، وهذا الكلام من ألطف آداب الدعاء، ولا يُخيب عبد به إلى الله التجأ.



(٥)

(إلهي! وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي، أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي)

يعني أنَّ اللُّطف والرَّأفة التي هي شدّةُ الرَّحمة قد اتصف بهما سبحانه في الأزل، فقال: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى:١٩]: أي مريدٌ بهم الرِّفق والرَّحمة فيما لا يَزال، ولا يُتَصوَّر أن يَمنعَ العبد منهما بعد وجوده، فإن وعده سبحانه لا يخلف.



(٦)

(إلهي! إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك، ولك المنة عليّ، وإن ظهرت المساوي مني فبعدلك، ولك الحجّة عليّ)

أي إن ظهرت أنواع الطَّاعات والصِّفات المحمودة منّي فبفضلك، ولك المنة: أي الامتنان علي بشهادة: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ

أَبَدًا ﴾ [النور:٢١] وملاحظة: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

وإن ظهرت المساوي: أي أنواع المعاصي والصفات المذمومة مني فبعدلك، لا بطريق الظُّلم، فإنَّك متصرِّفٌ في ملكك ولك الحجّةُ عليّ؛ لأنك ربٌّ وأنا عبدٌ، فتقول: لم فعلت يا عبدي! وليس لي عليك حجّةٌ بأن أقول: إن ذلك بتقديرك: يا ربي، فإنّ ذلك شأن الجاهل، وأما العالم، فيقول: المالك يتصرَّف في ملكه كيف يشاء، بذوق: ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣].



(٧)

(إلهي! كيف تكلني إلى نفسي وقد توكلت لي؟ وكيف أُضام وأنت النَّاصر لي؟ أم كيف أخيب وأنت الحفي بي؟)

يعني أنّ مَن أسماؤه تعالى الوكيل: أي الكافي، والناصر: أي مانع الضيم والذل، والحفي ـ بالحاء المهملة والفاء ـ: أي اللطيف، وهذه الأسماء تقتضي وجود آثارها من كفاية العبد، ونصرته واللطف به.

(ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ أم كيف أشكو إليك حالي وهو لا يخفى عليك؟ أم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك؟ أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك؟)

لما كان أعظم ما يتوسَّل ـ أي يتقرب به العبد إلى مولاه ـ فقره إليه في كلِّ حال من الأحوال؛ لكونه مقتضى العبودية بلا اشتباه، قال المصنف: ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك، ثم إنه ترقى عن هذا المقام، ورأى أن التَّوسل بالفقر معلول عند العارفين الأعلام، فإن توسل العبد به يقتضي شهوده له واعتماده عليه.

ورأى أيضاً أنه لا مناسبة بين المتوسل به والمتوسل إليه، فقال: وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ فلا يصح التوسل بالفقر من هذا الوجه عند العارفين، كما هو مقتضى الحقيقة، والأول مقام السالكين، وهو مقتضى الشريعة، ويناسب مقام العارفين، ما حكي أن سيدي أبا الحسن الشاذلي دخل على شيخه سيدي عبد السلام، فقال له: يا أبا الحسن! بماذا تلقى الله تعالى؟ فقال له: بفقري، فقال له الشيخ: والله تعالى لئن لقيت الله بفقرك لتلقينه بالصَّنم الأعظم، ولا تصحّ حقيقة الفقر إلا بالغيبة عن الفقر، وإلا كنت غنياً بفقرك، اهـ.

ثم إن المصنف ترقى إلى مقام الخليل المقتضي لترك الدُّعاء والتسليم إلى الملك الجليل، فتعجب من نفسه في حال السؤال السابق، وقال: أم كيف أشكو إليك حالي، وهو لا يخفى عليك؟ فإن الخليل لما قال له جبريل عليه السلام: ـ عندما أراد النمرود أن يلقيه في النار ـ سل مولاك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي.

ثم تعجب أيضاً من كونه يسأل بقوله: أم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك؟ يعني أن العبد لا تنسب إليه الترجمة والسُّؤال، فإن الذي أنطق

لسانه إنما هو الكبير المتعال، ومن أنطق لسانه عالم بأحواله، فهو المسؤول الذي يتفضل عليه عند تحريك لسانه بحصول آماله، ولذا قال: أم كيف تخيب آمالي ـ أي ما أؤمله وأرتجيه من كل ما يرام ـ وهي قد وفدت ـ أي توجهت ـ إليك كما تتوجَّه الوقود إلى الكرام وأنت أكرم الأكرمين، فافعل بنا ما أنت أهله يا أرحم الراحمين.

ثم إنّه ترقَّى عن مقام نسبة التقصير للنَّفس الذي اقتضنه هذه التعجبات؛ لأنه غيرظ لائق بالعارفين؛ لما فيه من رؤية النفس، وملاحظة حالها والعارف لا يرى غير الله تعالى، ويَرَى أنّ الأحوال كلَّها حسنةٌ من حيث نسبتها له، فقال: أم كيف لا تحسن أحوالي الباطنية والظاهرية، وبك قامت ؟ ـ أي صدرت ـ وإليك رجعت؛ لأنك المقصود بها.



(٨)

(إلهي! ما ألطفك بي مع عظيم جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي!)

ما: تعجبية، أي ما أكثر لطفك ورفقك بي، مع جهلي العظيم بعواقب الأمور فربما أقصد ما فيه ضرر فيمنعني لطفك عنه، ويرشدني إلى ما فيه النفع والسرور وما أعظم رحمتك بي، مع فعلي القبيح المقتضي – لولا عظيم إحسانك إليّ – للتأديب والتقبيح.



(٩)

(إلهي! ما أقربك مني، وما أَبعدني عنك!)

أي ما أَشد قُربُّك مِنِّي بالإحاطة والاقتدار، وما أَبعدني عنك بصفاتي التي لا تَليق للقرب من العزيز الغَفار، ثم ترقَّى فقال:

ﻫ ﻫ ﻫ

(١٠)

(إلهي! ما أرأفك بي! فما الذي يحجبني؟)

أي ما أَشدّ رأفتك بي التي أَفنى بها عن رؤية نفسي، فما الذي يحجبني عنك: أي فلا حاجب لي عن الرب المعبود، ما دمت في هذا الشهود .

ﻫ ﻫ ﻫ

(١١)

(إلهي! قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أنّ مرادَك أن تتعرَّف إلي في كل شيء، حتى لا أَجهلك في شيءٍ)

يعني قد علمت باختلاف الآثار عليَّ، التي هي تَنقلات الأطوار: أي الأحوال من صحّة ومرض، وغنى وفقر، وعزّ وذلّ، وقبض وبسط، وطاعة وعصيان، إلى غير ذلك من الشؤون التي تبديها ولا تبتدئها، بشهادة: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن:٢٩]، وأيقنت أنّ مرادك مني أن تتعرَّف إلى تعرفاً خاصاً

في كلِّ شيءٍ، حتى أعرفك ولا أجهلك في شيء، فأشكرك في حال النعمة، وأصبر في حال النقمة.

وأمّا لو ألزمتني حالة واحدةً لكانت معرفتي ناقصةً، فأنا الآن أتقلب بالمعرفة في جنّة أتبوأ منها حيث أشاء.

قال بعضهم: في الدُّنيا جنةٌ معجّلةٌ من دَخلها لم يشتق إلى جَنّة الآخرة، ولا لشيءٍ أبداً ولم يستوحش من شيء. قيل: وما هي؟ قال: معرفة الله تعالى.



(١٢)

(إلهي! كلّما أخرسني لؤمي أَنطقني كرمُك، وكلَّما آيستني أوصافي أطمعتني مننك)

أي كلّما أخرستي عصياني النّاشئ عن لؤم العبيد المانع من انطلاق اللسان بالطَّلب من العزيز الحميد، أَنطقني كرمُك العام الذي لا يخُصُّ من استقام.

وكلَّما آيستني ـ أي أوقعتني في اليأس من الاستقامة ـ أوصافي الذميمة، أَطمعتني في ذلك مننك شَمِلت البارّ والفاجر، فلم تخصّ صاحب الأوصاف العظيمة.



(١٣)

(إلهي! مَن كانت محاسنه مساوئ، فكيف لا تكون مساويه مساوئ؟ ومَن كانت حقائقه دعاوي فكيف لا تكون دعاويه دعاوي؟)

أي من كانت أعماله الصالحة عيوباً في نفس الأمر؛ لعدم خلوها من دقائق العجب والرِّياء، فإنّه أَخفى من دبيب النَّمل، فكيف لا تكون مساويه ـ أي عيوبه الظاهرة وأعماله السيئة ـ مساوي؟

أي عيوباً في نفس الأمر فصحّ الإخبار، ومَن كانت حقائقه ـ أي الأمور التي يتحقَّق بها من العلوم والمعارف ـ دعاوي لا حقائق لها في نفس الأمر، فكيف لا تكون دعاويه التي يدعيها دعاوي في نفس الأمر؟ فالكمال المنسوب إلى العبد نقصانٌ على التَّحقيق، فما ظنُّك بنقصانه؟ أسأل الله تعالى العفو والتوفيق.



(١٤)

(إلهي! حكمك النَّافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذي مقال مقالاً، ولا لذي حال حالاً)

أي قضاؤك النَّافذ في خلقك، ويُفسِّر ذلك قوله: ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذي مقال مقالاً، فمَن كان ينطق بالحكمة البهية، ويتكلم بالعلوم والمعارف الرَّبانية لم يغتر بذلك؛ لأنّ المشيئةَ قهرت غيره بسلب ما كان معه، فيكون دائماً في مقام الخوف، وكذلك إذا كان ذا حال من الأحوال بأن حصل

له الكشف، فإنّه لا يغترُّ بذلك لما شوهد من سلب كثير من الرِّجال، فوجب القرار من كلِّ شيء إليه، والاعتماد في جميع الأحوال عليه .



(١٥)

(إلهي! كم من طاعةٍ بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك، بل أَقالني منها فضلك)

أي كم من طاعةٍ ظاهريةٍ بنيَّتها: أي أَقمتها على الوجه المأمور به، وحالة باطنية شيدتها بالإخلاص فيها، وتطهيرها مما يكدر صافيها، ولما رأيت أني صرت بها في حصن حصين من النار، وأَيقنت بحصول الثَّواب في دار القرار، هدم اعتمادي عليها عدلك الذي مقتضاه أنك تفعل ما تشاء وتختار، فلك أن تعذِّب الطائع وترحم العاصي، فأقالني من الاعتماد عليها، فضلك الذي هو أحسن عوض يا عزيز يا غفار.



(١٦)

(إلهي! أنت تعلم وإن لم تدم الطَّاعة مِنّي فعلاً جزماً، فقد دامت محبّة وعزماً)

يعني أنّ عدم دوام فعل الطَّاعة مجزوم به، لكن دامت محبتي لها وعزمي عليها كما يعلم الله تعالى، وهذا فضلٌ كبيرٌ مَنَّ به اللطيفُ الخبيرُ.



(١٧)

(إلهي! كيف أعزم وأنت القاهرُ، وكيف لا أَعزم وأنت الآمر؟)

مقصوده الجمع بين الحقيقة والشريعة، فكن بالحقيقة مؤيّداً، وبالشريعة مقيداً؛ لأنّ العبدَ إذا شاهد عجزَه وضعفَه، وأنّه لا مشيئة له إلا بمشيئةِ ربِّه، لم يبق في نظره عزمٌ فضلاً عن الجزم، فضلاً عن العمل، فلا يُنسب شيئاً إلى نفسِهِ ولا يَسَعُه إلا التَّسليم والانقياد لقضاءِ رَبِّه، وإذا نظر إلى تكليفِه وأَمره ونهيه حاول العزم وعالج الجزم وسارع إلى العمل، والله تعالى يَرْزقنا التَّوفيق، وبلوغ الأمل.



(١٨)

(إلهي! ترددي في الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك)

أي تعلُّقي بالآثار التي هي المكوَّنات من حيث الاستدلال بها عليك، بعد المزار: أي الوصول إليك فاجمعني عليك: أي أَوقفني بين يديك بخدمة: أي طاعة من أذكار ورياضات ومجاهدات، فإنّها وإن كانت من الآثار، لكنها من حقوق الله تعالى التي بها يَصِل العبد بمعونته تعالى إلى رفيع الدرجات.



(١٩)

(إلهي! كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقرٌ إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي توصل إليك؟)

يشير إلى أنّ أرباب الدليل والبرهان عوامٌ عند أهل الشُّهود والعِيان، فإنّه شتان بين مَن يستدل به وبين مَن يستدل عليه، وقد قال أبو الحسن الشاذلي: كيف يعرف بالمعارف مَن به عرفت المعارف؟ أم كيف يُعرف بشيء مَن سُبق وجودُه وجود كلِّ شيء؟، اهـ، جعلنا الله تعالى به من العارفين بجاه سيد الأولين والآخرين.



(٢٠)

(إلهي! عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبِّك نصيباً)

يعني إذا لم يلاحظ العبد أنّ رقيب عليه، فذلك لعمى بصيرته التي هي عين قلبه، فيكون غافلاً عن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس:٦١].

قال الإمام القُشيري: خوفهم بما عرفهم من إطلاعه عليهم في جميع أحوالهم، ورؤيته لما يسلفونه من فنون أعمالهم، والعلم بأنه يراهم يوجب استحياؤهم منه.

وفي الحديث: «أفضل إيمان المرء أن يعلمَ أنّ اللهَ تعالى معه حيث كان»(١).

وقوله: وخَسِرت صفقةٌ ـ أي تجارةٌ ـ عبد لم يجعل له من حبِّك نصيباً: أي من حبِّك له بمزيدِ التَّفضل والإحسان، وحبِّه لك بالطَّاعة التي تقرِّبُه إلى مواهب الرضوان، فيكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي بعض الآثار: يا عبدي أنا لك محبٌّ فبحقي عليك كُن لي مُحبّاً.



(٢١)

(إلهي! أُمرت بالرُّجوع إلى الآثار فارجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار، حتى أَرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النَّظر إليها، ومرفوع الهمّة عن الاعتماد عليها: ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم:٨])

---

(١) فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال ﷺ: «إن من أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله تعالى معه حيث كان» في شعب الإيمان٢: ٢٠٠، والأربعون الصغرى للبيهقي ص٦٢، والمعجم الصغير٨: ٣٣٦، وحلية الأولياء٦: ١٢٤، قال المناوي في التيسير١: ١١٨: إسناده ضعيف.

أي أُمرت يا الله بعد سفر الترقي الذي هو الوصول إلى صريح المعرفة بالرجوع إلى الآثار ـ أي المكوَّنات ـ الذي هو سفر التَّدلي، فارجعني إليها ـ بوصل الهمزة ـ مكسواً بكسوة أنوار اليقين، ومؤيَّداً بهداية الاستبصار، وهي العلم الرَّاسخ المتين، حتى أَرجع إليك منها بأن أُشاهدك فيها، ولا أَشتغل بها عنك، كما دخلت إليك منها بالاستدلال بها عليك في ابتداء السُّلوك، فإنّي إذا كنت مؤيَّداً منك بما ذكر كنت مصون السر عن النظر إليها بعين الاستحسان، ومرفوع الهِمّة عن الاعتماد عليها في نوال أو إحسان.



(٢٢)

(إلهي! هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أَطلب الوصول إليك، وبك أَستدل عليك فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك)

بمثل هذا الدُّعاء يُرجي جَزيل العطاء، فإنّ مع الذِّلة تكون النُّصرة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران:١٢٣]، فمَن تذلَّل بين يدي مولاه: أي قدرته وإرادته، أمده بجنود عـزّتِه، وما أَلطف قول بعضهم:

وما رُمْتُ الدُّخول عليه حتى ... حلَلْتُ محلَّةَ العبدِ الذَّليلِ
وأَغْضَيْتُ الجُفون على قَذاها ... وصُنْتُ النفْسَ عن قال وقيل
وذُلُّ العبد للمولى غناهُ ... وغايتُهُ إلى العزِّ الطَّويلِ

ثم إن مطلب العارفين ـ منه لا من غيره ـ الوصول إليه، والاستدلال به عليه؛ إذ لا وصول إلى معرفته سبحانه إلا بتعريفه، فلذا سأل ذلك المُصنِّف بقوله: منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدلُّ عليك، فاهدني بنورك: أي نور الإيمان واليقين إليك: أي إلى معرفتك، وأَقمني بصدق العبودية: أي بالعبودية الصادقة بين يديك بأن أكون حاضر القلب معك، وأنا في غاية التَّذلُّل والخضوع لك ظاهري كباطني.



(٢٣)

(إلهي! علمني من علمك المخزون، وصُني بسِرّ اسمك المصون)

أي من علمك اللدني الذي اختزنته عندك لخاصّة أوليائك، كما قلتَ في كتابك العزيز في حقِّ الخَضِر عليه السلام: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف:٦٥].

قال أبو بكر الواسطي في قوله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:٧]: هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب، وفي سِرِّ السِّرِّ، فعرفهم ما عرفهم وخاضوا بحر العِلْم بالفهم لطلب الزِّيادة، فانكشف لهم من مدخور الخزائن، والمخزون تحت كلِّ حَرفٍ وآية من الفهم، وعجائب النظر، فاستخرجوا الدُّرر والجواهر، ونطقوا بالحكمة.

وقال بعضهم: العلم اللدني هو أسرار الله تعالى يبديها إلى أنبيائه وأوليائه وسادات النبلاء، من غير سماع ولا دراسة.

وقوله: وصني ؛ أي احفظني عن رؤية الأغيار بسرِّ اسمك المصون: أي أسمائك المصونة وسرها ما يتوارد على القلب من أنوارها.



(٢٤)

(إلهي! حققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي مسالك أهل الجذب)

أي أَعطني مقامات أَهل القُرب منك، وهي في التَّوحيد والتَّحقق بالتَّجريد، فتبطل في حقِّهم رؤية الأَسباب ويزول عن مطمح نظرهم كلِّ ستر وحجاب، واسلك بي مسالك أهل الجذب، وهم المحبوبون المرادون، فإن مسالكهم في غاية السهولة؛ لأنّ الله تعالى جذبهم إليه، وأخرجهم من أسر النفس والسّوى حتى أَقبلوا بعنايته عليه، أسأل الله تعالى أن يُقرِّب لنا الطَّريق، إنّه وليُّ التَّوفيق.



(٢٥)

(إلهي! أغنني بتدبيرك عن تدبيري، وباختيارك لي عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري)

لما كان كلٌّ من التَّدبير والاختيار مختصّاً بالواحد القهار، سأله أن يغنيه عنهما حتى لا يكون له التفات إليهما، فإن في ذلك منازعة للرَّبوبية ومباعدة عن مقام العبودية؛ إذ العبد ليس له إلا الوقوف على مراكز الاضطرار: أي

مواضعه من الذل والفقر والعجز؛ ليحصل له المدد من ذي العِزّة والاقتدار، فلذا طلب المصنِّف الوقوف عليها؛ ليكون مُتحقِّقاً بها، ومديم النَّظر إليها، ومَن تعلَّق بصفات مولاه، فإنّه يُبلغه بتدبيره واختياره ما يَتمنّاه.



(٢٦)

(إلهي! أخرجني من ذلّ نفسي، وطهرني من شَكَّي وشِرْكي قبل حلول رسمي)

أي أَخرجني يا الله من ذلّ نفسي لغيرك بالطَّمع والحرص، وطهرني من شَكِّي الذي هو ضيقُ الصَّدر عند إحساس النَّفس بأمر مكروه يُصيبها، فإذا ضاق الصَّدر أَظلم القلب وكثر الحزن والهمّ، والطَّهارة منه تكون بحصول ضدِّه وهو اليقين، وبقدر ما يصيب القلب من نور اليقين يكون انشراحه وفرحه بالله تعالى.

وفي الحديث: «إن الله تعالى بقسطه وعدله جعل الرَّوح، والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهمّ والحزن في الشكِّ والسّخط»[١]، والشِّرك تعلَّق

(١) فعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال ﷺ: «لا ترضين أحداً بسخط الله تعالى، ولا تحمدن أحداً على فضل الله تعالى، ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله تعالى، فإن رزق الله تعالى لا يسوقه إليك حرص حريص، ولا يرده عنك كراهية كاره، وإن الله تعالى بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في السخط» في المعجم الكبير١٠: ٢١٥، ومسند القضاعي٢: ١٦٨، قال الهيثمي في المجمع٤: ٧١: فيه خالد بن يزيد العمري، واتهم بالوضع.

القلب بالأسباب عند غفلته عن المسبب، والطَّهارة منه تكون بوجود ضدِّه، وهو نور التَّوحيد، وكلُّ مَن قوي نور التَّوحيد في قلبه كان خلاصُه من الشِّرك أكثر، فتضمحل عنده الأسباب، ويكون تعلُّقه بمسبب الأسباب والرَّمْس ـ بفتح الراء المشددة وسكون الميم ـ القبر.

(بك أستنصر فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، وإياك أسأل فلا تخيبني، وفي فضلك أرغب فلا تحرمني، ولجنابك أنتسب فلا تبعدني، وببابك أقف فلا تطردني)

أي بك يا مَنَّان أَطلب النَّصر على نفسي والهوى والشَّيطان، فانصرني يا نعم المولى ويا نعم النصير، فإني عاجز ضَعيف وأنت القوي القدير، وعليك أتوكل؛ أي أعتمد وإليك أُنيب، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا أَقلّ من ذلك يا نعم المجيب، وإنّما قال: فلا تكلني بعد قوله: وعليك أتوكل، مع أن مَن توكَّل على الله تعال لا يَكله؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣]؛ لأن العارف يتهم نفسه ويشهد تقصيرها في الإتيان بحق التوكل، فكأنّه يقول: فلا تكلني وإن كان توكلي ضعيفاً.

وكذا يُقال فيما بعده: أي فلا تخيبني وإن لم أكن أهلاً للإجابة، ولا تحرمني وإن لم أصدق في الرغبة، ولا تُبعدني وإن لم أصدق في الانتساب لجنابك: أي ذاتك: أي لم أصدق في الانتساب بالعبودية لها، ولا تطردني وإن لم أقم بشروط الوقوف ببابك للسؤال.

ﻫ ﻫ ﻫ

(٢٧)

(إلهي! تقدَّس رضاك عن أن تكون له علّة منك، فكيف تكون له علّة مني؟ أنت الغني بذاتك عن أن يَصِل إليك النَّفع منك، فكيف لا تكون غنياً عني؟)

أي تنزه رضاك الذي هو إرادةُ الإحسان عن أن تكون له علّة منك؛ لأنّ القديمَ لا يكون مَسبوقاً بشيءٍ، فكيف تكون له علّة منِّي كأعمالي وأحوالي؟ فَرِضاً المولى لا يتوقَّفُ على سببٍ ولا علّةٍ، بل رضاه وسخطُه هما سبب أعمال العاملين حسنُها وسيئها، رضي عن قوم فاستعملهم في خدمتِه، وسَخِط على قوم فأَبعدهم عن حضرته، ثم علَّل ذلك بقوله: أنت الغني بذاتك... إلخ.



(٢٨)

(إلهي! إنّ القَضاء والقدر غلبني، وإن الهوى بوثائق الشَّهوة أَسرني، فكن أنت النَّصير لي حتى تنصرني وتنصر بي، وأَغنني بفضلك حتى أَستغني بك عن طلبي)

يعني أنّ القضاء الذي هو إرادة الله تعالى مع التَّعلق في الأزل، والقدر ـ بتحريك الدَّال المهملة ـ الذي هو إيجادُ الله تعالى الأشياء على وفق إرادته غلبني: أي غلبني كلُّ منهما ـ وفي نسخة: غلباني ـ وإن الهوى؛ أي ميل النَّفس

إلى شهواتها أَسرني: أي قيدني بالشَّهوة، بالشهوة الشَّبيهة بالوثاق: أي القيد الذي يُقيد به الأسير.

وهذا اعتذار لا احتجاج: أي اعتراف منه بنفوذ الحكم وقهر المشيئة، وانتفاء الحول والقوّة عنه، وأنه لا يقدر على خلاص نفسه من شهواتها، ولا يستطيع نصرتها، ولذا أعقبه بقوله: فكن أنت النَّصير لي حتى تنصرني على النفس والهوى والشيطان، وتنصر بي سائر أَحبابي على ما ذكر، فأَكون سبباً لنفع الإخوان والخلان.

وأغنني ـ بقطع الهمزة ـ أي اجعلني غنياً بشهود فضلك حتى أستغني بك: أي يشهود منَّتك عن طلبي منك، وهذا غاية السَّعادة، كما قال الشَّاذليُّ: والسَّعيد حقاً من أغنيته عن السؤال منك.

(أنت الذي أَشرقْت الأنوار في قلوب أوليائك، حتى عرفوك ووحدوك، وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبابك، حتى لم يحبوا سواك ولم يلجؤوا إلى غيرك أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك، وما الذي فَقَدَ من وجدك؟ لقد خاب مَن رضي دونك بدلاً، ولقد خَسِرَ مَن بَغَى عنك متحوَّلاً)

يعني أنت يا الله الذي أشرقت بفضلك أنوار المعارف واليقين في قلوب أوليائك، حتى بك عرفوك ووحدوك، وأنت الذي أزلت التعلق بالأغيار؛ أي المكونات من قلوب أحبابك، حتى لم يحبوا سواك ولم يلجؤوا: أي لم يَركنوا إلى

غيرك؛ لعلمهم أنك أنت المؤنس لهم بإدخال السُّرور عليهم، حيث أوحشتهم العوالم التي كانوا يألفونها من أولاد وأموال وأصحاب، فإن من شاهد الأنس من الحقِّ استوحش من كلِّ شيءٍ وعنه غاب.

قال ذو النون المصري: بينما أنا أسير في بعض البوادي؛ إذ لقيتني امرأة فقالت: مَن أنت؟ فقلت: رجل غريب، فقالت: وهل توجد مع الله تعالى أحزان الغربة؟

وقوله: وأنت الذي هديتهم: أي بنور المعرفة حتى استبانت: أي ظهرت لهم المعالم؛ أي طرق الحقّ التي سلكوها.

وقوله: ماذا وجد مَن فقدك؟ أي مَن فقد شهودك بتعلُّقِه بالأغيار: أي لم يجد شيئاً ينفعه بل تعلَّق بالمضار، وما الذي فقد من وجدك؟ أي لم يفقد شيئاً مَن كان في مقام الشُّهود،بل فاز بكلِّ مقصودٍ، فمَن رَضِي دونك بدلاً لا يرده إلا بالخيبة والحرمان، ومَن بغى عنك متحوَّلاً ـ بفتح الواو المشددة ـ أي طلب التَّحول عن حضرتك، والتعلق بالأكوان، فقد عمَّه الخسران، وما ألطف ما قيل:

سَهَرُ العيون لغير وجهك باطلُ ... وبكاؤهنَّ لغير فَقْدِك ضائعُ

وناهيك قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:١٤].



(٢٩)

(إلهي! كيف يُرجى سواك، وأنت ما قَطَعَت الإحسان؟ وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدَّلت عادةَ الامتنان؟ يا مَن أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته، فقاموا بين يديه متملقين، ويا مَن أَلبس أولياءه ملابسَ هيبتِهِ فقاموا بعزته مستعزين، أنت الذَّاكر من قبل الذَّاكرين، وأنت البادىء بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطَّالبين، وأنت الوهّاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين)

أي كيف يرجى سواك يا الله! وأنت ما قطعت الإحسان؟ بل إحسانك مستمر تحتاج إليه الأكوان، وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة هي الامتنان؟

فهذا تعجيب ممن يوجه الرَّجاء والطَّلب لغير الواحد المنان، يا مَن أذاق أحباءه ـ جمع حبيب ـ حلاوة مؤانسته: أي مؤانسته التي هي سرورُ القلب بشهود جمال المحبوب الشبيهة بالشيء الحلو المذاق، فقاموا بين يديه: أي بحضرته متملقين: أي متلطفين في التَّودُّد بلطيف السَّؤال المشتمل على الذلّة والانكسار للكبير المتعال.

ويا من أَلبس أولياءه ملابس هي هيبته، فقاموا بعزّته مستعزين فرفعوا هممهم عن تعلُّقها بالأغيار تيهاً بعزّة ربِّ العالمين.

أنت الذَّاكر: أي الموفَّق للذِّكر من قبل وجود الذاكرين، وأنت البادىء بالإحسان والإرشاد للطَّاعة من قبل توجِّه العابدين، وأنت الجواد ـ بتخفيف الواو ـ أي كثير الجود بالعطاء من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهّاب: أي كثير الهبة لنا.

ثمّ أنت لما وهبتنا من المستقرضين حيث قلت: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة:٢٤٥]، وفي هذا من التَّعطُّف على عبيدك ورفعة قدرهم بفضلك ما يليق بإحسانك وكرمك.



(٣٠)

(إلهي! اطلبني برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بمنَّتك حتى أُقبل عليك)

أي اطلبني إلى القرب لحضرتك، فإنّه لا سبيل إلى الوصول إليها إلا بإحسانك ورحمتك، واجذبني؛ أي خُذْني منِّي بمنَّتك حتى أُقبل عليك بمعونتك .



(٣١)

(إلهي! إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خَوْفي لا يُزايلني وإن أطعتك)

يعني أن الرجاء والخوف يكونان للعارف كجناحي الطائر، لأنّ منشأ الأول مشاهدة صفات الجمال، ومنشأ الثاني مشاهدة صفات الجلال، فكما أنّه لا تفاوت في الصفات لا تفاوت عندهم في مشاهدتها.

وقد كان سيدي يحيى بن معاذ يقول: يكون رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال؛ لأني في الأعمال على الإخلاص، وكيف أحررها وأنا بالآفة معروف؟ وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟

وقوله: كما أن خوفي لا يزايلني: أي لا يُفارقني وإن أَطعتُك لعلمي بأَنَّك الفعال لما تريد، فلا تنفع الطَّاعة مَن سخطت عليه من العبيد، أسأل الله تعالى دوام الرِّضا واللُّطف فيما قضى.



(٣٢)

(إلهي! قد دفعتني العوالم إليك، وقد أَوقفني علمي بكرمِك عليك)

أي قد دفعتني العوالم ـ التي استوحشت منها لعجزها وفقرها ـ إليك، فكلَّما توجهت إليّ أحدٌ ليعطيني أو يَنصرني يقول: لا مُعطي ولا ناصر إلا الله تعالى، فجعلت معتمدي عليك، فإنّ الكريم لا تتخطَّاه الآمال، أسأل الله تعالى أن يُصلح لنا الحال والمال.



(٣٣)

(إلهي! كيف أخيب وأنت أملي، أم كيف أُهان وعليك مُتكلي؟)

أي كيف تحصل لي خيبة وعدم ظفر بالمقصود وأنت أملي الذي عطاؤك غير محدود؟ أم كيف يحصل الهوان لي وعليك يا قوي يا متين متكلِّي؟



(٣٤)

(إلهي! كيف أَستعزُّ وأنت في الذلّة أركزتني، أم كيف لا أستعز وإليك نسبتي؟ أم كيف لا أَفتقر وأنت الذي في الفقر أَقمتني، أم كيف أَفتقر وأنت الذي بجودك أَغنيتني؟)

قد تلون في هذه الأوصاف المتضادّة لما تلون عليه من مشاهدة ما يوجبها، فإذا شاهد أن الله تعالى أركزه في الذلّة ـ بكسر الذال المعجمة ـ: أي ذلّ النفس وجعلها مركزاً له، قال كيف أستعزّ وأنت في الذلة أركزتني؟

وإذا شاهد أن الله تعالى نسبه إليه نسبة خاصّة بإفاضة الأنوار عليه المقتضية لإعزامه وإكرامه، قال: كيف لا أستعز وإليك نسبتني.

وإذا شاهد الفقر الذَّاتي الذي هو صفة له، قال: كيف لا أَفتقر وأنت الذي في الفقر أَقمتني؟

وإذا شاهد أن الله تعالى أَفاض عليه مواهب إحسانه، قال: كيف أفتقر وأنت الذي بجودك أَغنيتني؟ فالفقر ذاتي للعبد، والغنى عارضٌ بإغناء الله تعالى له، فلا مُنافاة بين هذه الأوصاف التي وردت بحسب المشاهد المجملة.

(أنت الذي لا إله غيرك، تعرفت لكلِّ شيءٍ، فما جهلك شيء، وأنت الذي تعرفت إليّ في كلِّ شيءٍ فرأيتُك ظاهراً في كلِّ شيء، فأنت الظَّاهر لكلِّ شيء)

أي تعرفت لكلِّ شيءٍ بما أَودعتُه فيه من النُّور حتى عرفك، فما جهلك شيء حتى الحيوانات العجم، بشهادة: ﴿ وَإِن مِّن شَىۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ [الإسراء:٤٤]، ومَن حصل منه الجهل والكفر في حالة الاختيار، فإنّه يرجع عن جهله في حالة الاضطرار، ويزول عنك ـ أيها المريد ـ هذا الاشتباه بتلاوة: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٦٧].

وقوله: وأنت الذي تعرفت إلي: أي بما أَودعته قلبي من أَنوار المعرفة واليقين، فرأيتك ظاهراً في كلِّ شيء.

وفرع على ذلك قوله: فأنت الظَّاهر لكلِّ شيء، يا مَن استوى برحمانيته على عرشه، فصار العرش غيباً في رحمانيته، كما صارت العوالم غيباً في عرشه، محقت الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار.

قال ابن عبَّاد: كأنّه أشار بهذا إلى معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان:

٥٩]، ورحمانية الله تعالى كونه رحماناً، والرَّحمن اسم الله تعالى يقتضي وجود كلِّ موجود، وهو مشتق من الرَّحمة، والرَّحمةُ ههنا هي الرَّحمة العامة التي وسعت كلَّ شيء، كما وسع علمُه كلَّ شيء في قوله تعالى مخبراً عن حملة العرش؛ إذ قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، ولذلك دخلت تحت مقتضى اسمه تعالى: «الرحمن» جميع أسمائه تعالى الإيجادية، ويفهم من معنى الاستواء القهر والغلبة.

ومقتضاهما في حقِّ الله تعالى أنّ لا يكون لغيره وجود مع وجوده، ولا ظهور مع ظهوره، فلا جرم لمّا كان الحقُّ تعالى مستوياً برحمانيته على عرشِه الذي العوالم كلّها في طيه، كان العرش غيباً في الرَّحمانية، والعوالمُ كلُّها غيباً في العرش؛ لأنها في طيّه، فلا ظهور إذاً للعرش ولا للعوالم، وإنّما الظُّهور التَّام لله عز وجل، اهـ، ولذا قال: محقت الآثار: أي العوالم بالآثار: أي العرش، ومحوت الأغيار: أي العرش بمحيطات أفلاك الأنوار: أي بالرحمة الشبيهة بالأفلاك المحيطة بالعرش.

(يا مَن احتجب في سرادقات عِزّه عن أن تدركه الأبصار، يا مَن تجلى بكمال بهائه فتحقَّقَتْ عظمتَه الأسرارُ، كيف تخفى وأنت الظَّاهر، أم كيف تغيبُ وأنت الرَّقيب الحاضر؟ والله الموفِّق وبه أَستعين)

أي يا مَن امتنع بعِزّه المنيع الشبيه بالسُّرادقات ـ بضمّ السِّين المهملة جمع سرادق، وهي في الأصل الخيمة التي تمدّ فوق صحن الدار ـ، فكما أنّ الخيمةَ

تمنع من رؤية ما بعدها، فكذلك عِزةُ الله تعالى: أي قوّته العظيمة تمنع الأبصار عن رؤيته تعالى.

وقوله: يا مَن تجلي. أي على قلوب العارفين بكمال بهائه ـ: أي ببهائه الكامل، والمراد محاسن صفاته الجمالية والجلالية، فتحقَّقت عظمتَه الأسرارُ: أي بواطن القلوب.

كيف تخفى وأنت الظاهر في جميع الأشياء، أم كيف تغيب وأنت الرقيب؟ أي المراقب لنا الحاضر معنا. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]، وقد تقدَّم معنى هذا الكلام للمصنِّف مِراراً، ولحلاوته لا سيما في المناجاة زاده تكراراً، فإن المكرَّر أحلى وعند ذوي العرفان أعلى، كما قال بعضُ العاشقين:

وحدَّثْتني يا سعدُ عنها فزدتني حياةً فزدني من حديثك يا سعد

جعلنا اللهُ من سُعداء الدارين بجاه سيد الكونين، وقد تم ما وفقنا الله تعالى لإيراده على هذه الحكم، وله الحمدُ والشُّكر على ما أَسدى من جزيل النِّعم، في يوم عرفة بالجامع الأزهر ومنبع العلوم الأنور، سنة ثلاث وثلاثمائة وألف من هجرةِ مَن حاز كمال الشَّرف صلى الله عليه وعلى آله الكرام وأصحابه بدور التَّمام، كلما ذكره الذَّاكرون وغَفِل عن ذكره الغافلون.

المراجع

١. الأحاديث المختارة: لمحمد بن عبد الواحد المقدسي(٥٦٧-٦٤٣هـ)، تحقيق: عبد الملك عبد الله، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٠هـ.

٢. الأدب المفرد: لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ.

٣. الأربعون الصغرى: لأحمد بن الحسين بن علي الخُسْرَوْجِردي البيهقي (ت٤٥٨هـ)، ت: أبو إسحاق الحويني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.

٤. الأعلام: لخير الدين الزَّركلي، ط١٥، دار العلم للملايين. ٢٠٠٢م.

٥. اكتفاء القنوع بما هو مطبوع: لادوارد كرنيليوس فانديك (ت١٣١٣هـ)، ت: السيد محمد علي الببلاوي، مطبعة التأليف الهلال، مصر، ١٣١٣ هـ - ١٨٩٦م.

٦. إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون: لإسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم (ت١٣٣٩هـ)، دار الفكر،١٤١٠هـ.

٧. البداية والنهاية: لإسماعيل بن عمر بن كثير (ت٧٧٤هـ)، مكتبة المعارف، بيروت.

٨. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: لمحمد بن علي الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ)، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٣٤٨هـ.

٩. تاج التراجم: لأبي الفداء قاسم بن قُطْلُوبُغَا (ت٨٧٩هـ)، تحقيق: محمد خير رمضان، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٢مـ.

١٠. تراجم المؤلفين التونسيين: لمحمد محفوظ، (ت١٤٠٨ هـ)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤ م.

١١. التزكية على منهاج النبوة للدكتور معاذ سعيد حوى، دار النور، عمان.

١٢. تعظيم قدر الصلاة: لمحمد بن نصر بن الحجاج المروزي (٢٠٢-٢٩٤هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٦هـ.

١٣. التعليقات السنية على الفوائد البهية: لعبد الحي اللكنوي (١٢٦٤-١٣٠٤هـ)، تحقيق: أحمد الزعبي، دار الأرقم، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، وأيضاً: طبعة السعادة، مصر، ط١، ١٣٢٤هـ.

١٤. تقريب التهذيب: لأحمد بن علي ابن حَجَر العَسْقَلاني (ت٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٦مـ.

١٥. تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرَّافِعِي الكبير: لأحمد بن علي ابن حجر العَسْقَلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ)، تحقيق: السيد عبد الله هاشم، المدينة المنورة، ١٣٨٤هـ.

١٦. التيسير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي، (ت١٠٣١هـ)، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط٣، ١٤٠٨هـ.

١٧. جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار هجر، ط١.

١٨. الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون: لمحمد عزيز بن شمس وعلي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة، ط٢، ١٤٢٢ هـ.

١٩. الجواهر المضية في طبقات الحنفية: لعبد القادر بن محمد بن أبي الوفاء القرشي (ت٧٧٥هـ)، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ.

٢٠. حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: لعبد الرزاق بن حسن البيطار الميداني الدمشقي، (ت١٣٣٥هـ)، ت: محمد بهجة البيطار، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٤١٣ هـ.

٢١. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: لمحمد أمين المحبي (ت١٦٩٩م)، دار صادر.

٢٢. الدعاء: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، (ت٣٦٠ هـ)، ت: محمد سعيد البخاري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

٢٣. روض المناظر في علم الأوائل والأَواخر: لمحمد بن محمد ابن الشحنة (٨١٥هـ)، تحقيق: سيد محمد مهنى، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ.

٢٤. سلم الوصول إلى طبقات الفحول؛ لمصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني المعروف، «حاجي خليفة» (ت١٠٦٧ هـ)، ت محمود عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسيكا، إستانبول – تركيا، ٢٠١٠.

٢٥. سنن ابن ماجه: لمحمد بن يزيد بن ماجه القزويني (٢٠٧-٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٢٦. سنن أبي داود: لسليمان بن أشعث السجستاني (٢٠٢-٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

٢٧. سنن البَيْهَقِي الكبير: لأحمد بن الحسين بن علي البَيْهَقِي (ت٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.

٢٨. سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى الترمذي (٢٠٩-٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٩. سنن الدَّارَقُطْنِي: لأبي الحسن علي بن عمر الدَّارَقُطْنِي (٣٠٦-٣٨٥هـ)، تحقيق: السيد عبد الله هاشم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ.

٣٠. سنن الدارمي: لعبد الله بن عبد الرحمن أبي محمد الدارمي (ت٢٥٥هـ)، تحقيق: فواز أحمد وخالد العلمي، ط١، ١٤٠٧هـ، دار التراث العربي، بيروت.

٣١. السنن الصغرى: لأحمد بن حسين البيهقي(ت٤٥٨هـ)، تحقيق: الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٠هـ.

٣٢. سنن النَّسَائيّ الكبرى: لأحمد بن شعيب النَّسَائِي (ت٣٠٣هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الغفار البنداوي وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٣٣. سير أعلام النبلاء: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذَّهَبِي شمس الدين (٦٧٣-٧٤٨هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣هـ.

٣٤. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: لمحمد بن محمد مخلوف (ت١٣٦٠هـ)، ت: عبد المجيد خيالي، الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤٢٤ هـ.

٣٥. شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لعبد الحي بن أحمد العكري (ت١٠٨٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٦. شرح الحكم العطائية: لعبد المجيد الشرنوبي الأزهري، دار ابن كثير.

٣٧. شرح شرح نخبة الفكر: لأبي الحسن علي بن سلطان محمد القاري الهروي (٩٣٠-١٠١٤هـ)، اسطنبول، ١٣٢٧هـ.

٣٨. شعب الإيمان: لأبي بكر أحمد بن الحسن البيهقي (٣٨٤-٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

٣٩. صحيح ابن حبَّان بترتيب ابن بلبان: لمحمد بن حِبَّان التميمي (٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ.

٤٠. صحيح البخاري: لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البُخَارِيّ (١٩٤-٢٥٦هـ)، تحقيق: الدكتور مصطفى البغا، دار ابن كثير واليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٤١. صحيح مسلم: لمسلم بن الحجاج القُشَيْرِيّ النَّيْسَابوريّ (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٢. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: لمحمد بن عبد الرحمن السَّخَاوِيّ القاهريّ الشَّافِعِيّ شمس الدِّين (٨٣١-٩٠٢هـ)، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ طبع.

٤٣. طبقات الأولياء: لابن الملقن عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت٨٠٤هـ)، ت: نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، ط، ١٤١٥ هـ.

٤٤. العبر في خبر من غبر: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذَّهَبِي شمس الدين (٦٧٣-٧٤٨هـ)، تحقيق: الدكتور صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٣م.

٤٥. عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لأبي محمد محمود بن أحمد العَيْنِي بدر الدين (٧٦٢-٨٥٥هـ)، مصورة عن الطبعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٦. غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية: للنفزي الرندي، ت: عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، القاهرة،١٩٧٠.

٤٧. الفوائد البهية في تراجم الحنفية: لعبد الحي الكنوي (١٢٦٤-١٣٠٤هـ)، ت: أحمد الزعبي، دار الأرقم، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، وأيضاً: طبعة السعادة، مصر، ط١، ١٣٢٤هـ.

٤٨. فيض القدير شرح الجامع الصغير: لعبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

٤٩. قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر: للطيب بن عبد الله بامخرمة الهجراني، (٨٧٠-٩٤٧هـ)، ت: خالد زواري، دار المنهاج، جدة، ٢٠٠٨هـ.

٥٠. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث: لإسماعيل بن محمد العجلوني (ت١١٦٢هـ)، تحقيق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ.

٥١. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: لمصطفى بن عبد الله القسطنطيني الحنفي (١٠١٧-١٠٦٧)، دار الفكر.

٥٢. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت ٧١٠هـ).

٥٣. المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي لأحمد بن محمد بن الصديق الغماري، (١٣٨٠هـ)، دار الكتبي، ط١، ١٩٩٦، مصر.

٥٤. مرآة الجنان وعبر اليقظان في ما يعتبر من حوادث الزمان: لعبد الله بن أسعد اليافعي (ت٧٦٨هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، ١٩٧٠م.

٥٥. مرشد الزوار إلى قبور الأبرار: لموفق الدين أبي محمد بن عبد الرحمن الشارعي الشافعي (ت٦١٥هـ)، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٥ هـ.

٥٦. المستدرك على الصحيحين: لمحمد بن عبد الله الحاكم (ت٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٥٧. مسند أبي حنيفة: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (٣٣٦-٤٣٠هـ)، تحقيق: نظر محمد الفاريابي، مكتبة الكوثر، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ.

٥٨. مسند أحمد بن حنبل: لأحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ)، مؤسسة قرطبة، مصر.

٥٩. مسند إسحاق بن راهويه: لإسحاق بن إبراهيم الحنظلي (ت٢٣٨هـ)، تحقيق: عبد الغفور عبد الحق، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، ط١، ١٩٩٥م.

٦٠. مسند البَزَّار (البحر الزخار): لأبي بكر أحمد بن عمرو البَزَّار (٢١٥-٢٩٢هـ)، ت: الدكتور محفوظ الرحمن، مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.

٦١. مسند الشهاب: لأبي عبد الله محمد بن سلامة القُضَاعي (ت٤٥٤هـ)، تحقيق: حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ.

٦٢. المصنف في الأحاديث والآثار: لعبد الله بن محمد بن أبي شَيْبَةَ (١٥٩-٢٣٥هـ)، تحقيق: كمال الحوت، ط١، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ.

٦٣. معجم الأدباء: لأبي عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي البغدادي (ت٦٢٦هـ)، مكتبة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة.

٦٤. المعجم الأوسط: للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠-٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

٦٥. معجم التاريخ «التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات)» لعلي الرضا قره بلوط وأحمد طوران قره بلوط، دار العقبة، قيصري، تركيا، ط١، ٢٠٠١ م.

٦٦. المعجم الكبير: لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطَّبَرَاني (٢٦٠-٣٦٠هـ)، تحقيق: حمدي السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ.

٦٧. معجم المطبوعات العربية والمعربة: لإلياس سركيس، مطبعة سركيس، مصر، ١٩٢٨م.

٦٨. معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»: لعادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ.

٦٩. معجم المؤلفين: لعمر كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

٧٠. المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار: لعبد الرحمن بن الحسين العراقي،(ت٨٠٦هـ)، دار إحياء الكتب العربية، بهامش الإحياء.

٧١. المقفى الكبير: لتقي الدين المقريزي (ت٨٤٥ هـ)، ت: محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٢٧ هـ.

٧٢. مكارم الأخلاق: لعبد الله بن محمد القرشي (٢٠٨-٢٨١هـ)، تحقيق: مجدي السيد، مكتبة دار القرآن، القاهرة، ١٤١١هـ.

٧٣. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي: ليوسف بن تغرى بردى الحنفي، (ت٨٤٧هـ)، ت: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٧٤. موسوعة الأعلام (تراجم موجزة للأعلام)، موقع وزارة الأوقاف المصرية.

٧٥. الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة: لوليد بن أحمد وآخرون، مجلة الحكمة، بريطانيا، ط١، ١٤٢٤ هـ.

٧٦. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ليوسف بن تغرة بردة الأتابكي (٨١٣-٨٧٤)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة.

٧٧. نيل الابتهاج بتطريز الديباج: لأحمد بابا بن أحمد التكروري التنبكتي السوداني، (ت١٠٣٦ هـ)، ت: د.عبد الحميد الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ط٢، ٢٠٠٠ م.

٧٨. هدية العارفين: لإسماعيل باشا البغدادي (ت١٣٣٩هـ)، دار الفكر ، ١٤٠٢هـ.

٧٩. الوافي بالوفيات: لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت٧٦٤هـ)، ت: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٨٠. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لأبي العباس أحمد بن محمد ابن خَلكان (٦٠٨-٦٨١هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

فهرس الموضوعات: